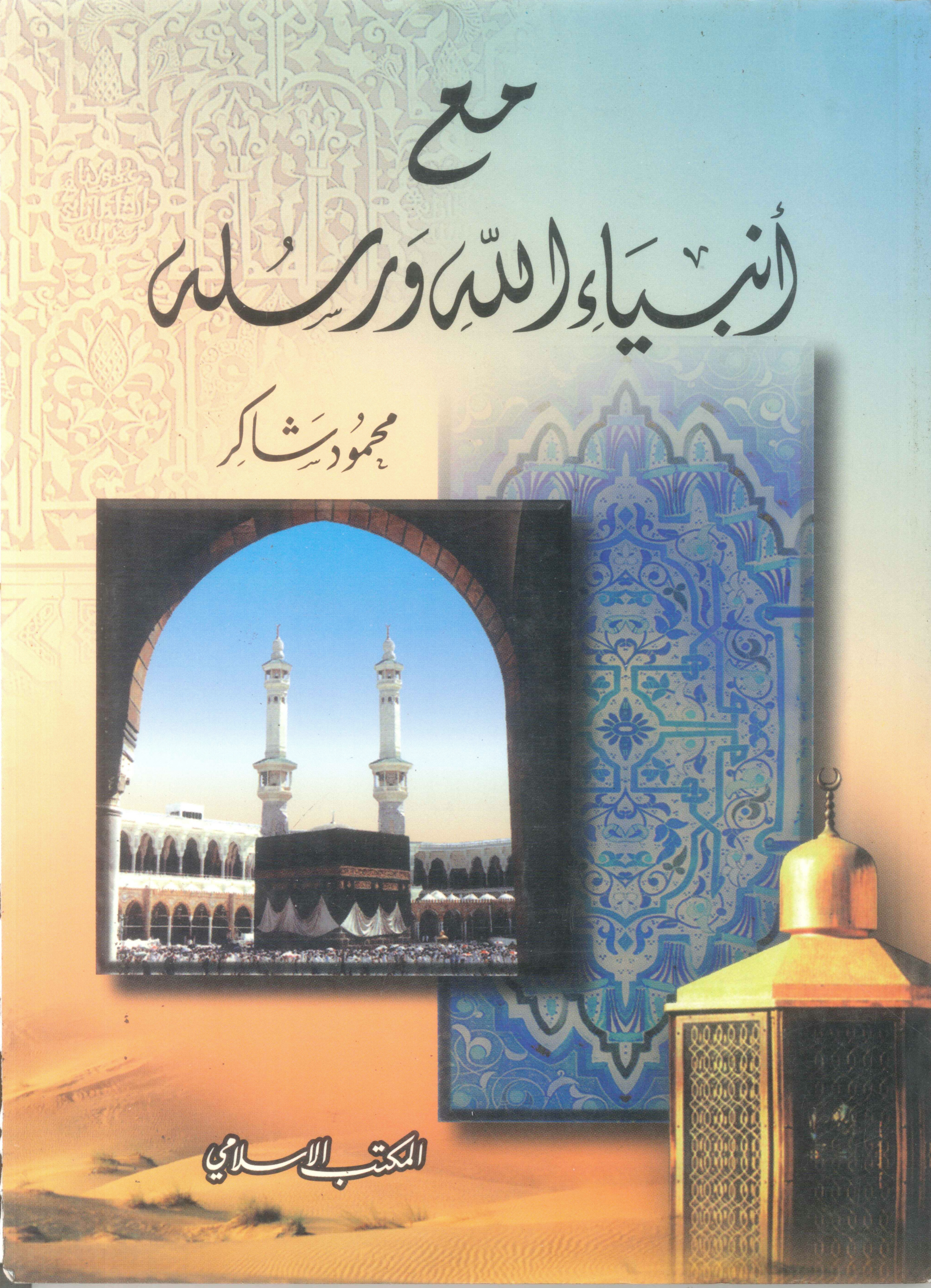


مع
أنبياء الله ورسله
محمود شاكر
المكتب الإسلامي

مع
أنبياء الله ورسله

محمود شاكر

المكتب الإسلامي

الطبعة الأولى

١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

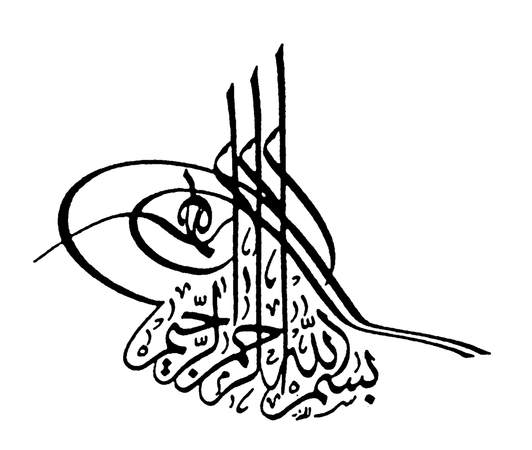
المكتب الإسلامي

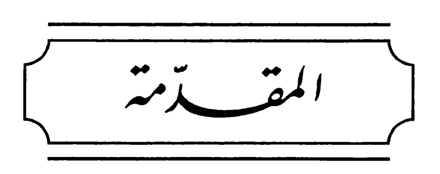
بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ - هاتف : ٤٥٦٢٨٠(٠٥)

دمشق : ص.ب : ١٣٠٧٩ - هاتف : ١١١٦٣٧

عمّان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ - هاتف : ٤٦٥٦٦٠٥

مع
أنبياء الله ورسله


بسم الله الرحمن الرحيم



المقدمة

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام علىٰ رسول الله محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين، وعلىٰ من تبعه وسار علىٰ دربه واقتفىٰ أثره إلىٰ يوم الدين، *أما بعد* :

فقد اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالىٰ أن يخلق الكون فأمره أن يكون فكان ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ [القمر]. ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يسٓ]. فكانت السماوات والأرض وما فيهن من شمسٍ وقمرٍ وكواكب تجري بأمره إلىٰ أجلٍ مسمّىً لا يعلمه إلا الخالق سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [لقمان: ٢٩]. ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف].

ثم اقتضت حكمة الله عزّ وجلّ أن يخلُق الإنسان فكان، خلقه من ترابٍ، وخلق له من نفسه زوجاً، ومن ماء الرجل والمرأة تكاثر الإنسان، إذ يكون نطفةً، ثم علقةً، ثم مضغةً، ثم يخرج طفلاً من رحم أمه، ويمرّ في مراحل الحياة المعروفة. ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم]. و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى

ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾﴾ [الحج]. ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾﴾ [لقمان].

وبأمر الخالق الكريم يجري الدم في جسم المخلوق فيصل إلىٰ أعضائه كلها يُغذّيها بما يحمل من غذاءٍ، ويُنظّفها من كل ما يشوبها، وكل عضوٍ في جسم هذا المخلوق يُؤدّي الدور الذي خُلق لأدائه ويبقىٰ في تأدية دوره ما دام صاحبه علىٰ قيد الحياة. فتبارك الله أحسن الخالقين.

وكل دابةٍ تدبّ علىٰ الأرض من إنسٍ وجنٍّ وحيوان وكذا النبات فكل له مهمة يُؤدّيها بأمر الله، ولا يستطيع أن يحيد عن الأمر مقدار ذرةٍ.

واقتضت حكمة الله سبحانه وتعالىٰ أن يبعث لخلقه من الإنس أنبياء ورسلاً يذكّرون أقوامهم بخلق الله لهذا الكون العظيم وما فيه من آيات: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [يونس].

وكان أنبياء الله ورسله يُذكّرون مجتمعاتهم إلىٰ أن ينظروا إلىٰ أنفسهم ويُفكّروا بقدرة الله الخارقة وعظمته الفائقة: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات].

ورسل الله وأنبياؤه يدعون أقوامهم إلىٰ عبادة الله وحده لا شريك له، ونبذ ما كان عليه آباؤهم من عبادة الأصنام والأوثان وكل شيءٍ من دون الله. ويأمرونهم باتباع المنهج الذي يأمرهم الله به ويُقدّمونه لهم، ثم طاعة من يبعثه الله إليهم.

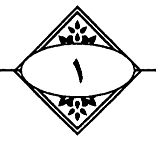
والله جلّت قدرته يُوحي إلىٰ رسله وأنبيائه، ويُوجّههم إلىٰ الطريق الحق والسبيل المستقيم، ويأمر بطاعة أولئك الرسل والأنبياء، فهم قدوتهم، ومنار سبيلهم، والدعاة إلىٰ الحق.

وفي حياة الرسل والأنبياء ودعوتهم دروس لنا وعبر، وأسلوب حياةٍ، وصبر علىٰ الشدائد وبيان للحق من الباطل.

وهذا ما نأمله من الاطلاع علىٰ حياتهم، ودراسة دعوتهم، ومعرفة واقعهم، وهداية من يريد الله له الخير والهداية، وضلال من يريد الله أن يُضلّه، والله سائل كل عبد عن موقفه من دعوة الرسل ومجازيه على ذلك. ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾ [آل عمران]. ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة].

اللهم اهدنا فيمن هديت، واجعلنا من عبادك المؤمنين، المنيبين إليك، المتوكلين عليك، المقتدين بخاتم أنبيائك ورسلك، الآخذين بكتابك.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



آدم، عليه السلام

اقتضت مشيئة الله سبحانه وتعالىٰ أن يخلق الإنسان، وأن يُسلّمه زمام هذه الأرض، ويُطلق فيها يده ليكشف ما فيها من طاقاتٍ وخامات معادن، ويُسخّر ما يحصل عليه فيما كلّفه الله به من مهمةٍ في حياته التي يحياها. كما اقتضت مشيئة الله أن يُمنَح هذا المخلوق طاقاتٍ كامنةً واستعداداتٍ كافيةً مُدّخرةً تُحقّق المشيئة الإلٰهية. وقال رب العالمين لملائكته ما اقتضت حكمته في هذا الخلق: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]. وخفيت علىٰ الملائكة حكمة المشيئة الربّانية في عمران هذه الأرض وتنمية الحياة فيها وتنوُّعها، وابتلاء هذه المخلوقات بالموت والحياة ليُعرف الصالح من الطالح، وأيّهم أحسن عملاً وأكثر طاعةً وامتثالاً لأوامر ربه ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾ [المُلك].

قال الملائكة لربهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٣٠﴾ [البقرة]. وسؤال الملائكة هذا لربّهم العزيز الحكيم، إنما كان علىٰ سبيل المعرفة والرغبة في الاستطلاع عن وجه الحكمة، لا علىٰ وجه الاعتراض علىٰ أمر الله بالخلق والإنقاص من شأن هذا المخلوق الذي سيوجد. وقد قالوا هذا لما علموا من أن الجنّ قد وُجدوا علىٰ وجه الأرض قبل آدم، عليه السلام، بألفي سنةٍ، فأفسدوا وسفكوا الدماء، فبعث الله لهم ملائكةً طردتهم من الأرض إلىٰ جزائر في البحر. وقيل: إنه قد وُجد خلق في

الأرض قبل آدم، وأطلق بعضهم علىٰ ذلك الخلق اسماً لمجموعتين منهم: (الطمّ) و(الرمّ).

وقالت الملائكة: إن كان خلق خليفةٍ لأولئك الذين مضوا حتىٰ يعبدك من يخلفهم، فها نحن نُسبّح بحمدك ونُقَدِّس لك، لا نفتر عن ذلك ليلاً ولا نهاراً، ولك الحمد والشكر والطاعة في كل أمرٍ. فجاءهم الجواب: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ إذ سيكون من هذا الخلق أنبياء ومرسلون وصدّيقون وشهداء وذاكرون ربَّهم ليلاً ونهاراً، فلسانهم رطب دائماً بذكر خالقهم.

خلق الله سبحانه وتعالىٰ آدم، عليه السلام، وعلّمه أسماءً كثيرةً تِبياناً لشرف هذا المخلوق وإظهاراً لمكانته، ومما علّمه سبحانه وتعالىٰ أسماء كل طائرٍ وكل دابّةٍ علىٰ سطح الأرض إضافةً إلىٰ أسماء الملائكة. ولم تكن للملائكة حاجة إلىٰ معرفة هذه الأسماء ما داموا ليسوا في الأرض لذا لم يعرفوها، وعرض سبحانه وتعالىٰ هذه الأشياء علىٰ ملائكته وقال لهم: ﴿أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٣١ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٣٢ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ۝٣٣﴾ [البقرة]. فأما ما أبدوه أنهم قالوا: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ﴾ وأما الذي كتموه أنهم قالوا: لن يخلق ربنا خلقاً إلا كنا أعلم منه وأكرم عليه منه[1].

كرّم الله سبحانه وتعالىٰ هذا المخلوق آدم، عليه السلام، أعلىٰ صور التكريم إذ أمر الملائكة أن يسجدوا له ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٣٤﴾ [البقرة]. ﴿فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ۝٣٠ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٣١﴾

---

(١) ذكر ذلك أبو العالية، والربيع، والحسن، وقتادة.

[الحجر]. ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۞ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۞﴾ [صٓ].

لقد سجد الملائكة امتثالاً لأمر ربّ العالمين، ولكن إبليس لم يسجد، ولم يكن هو من جنس الملائكة وإن كان معهم، فلو كان من الملائكة لسجد ولم يكن ليعصي، إذ إن صفة الملائكة أنهم لا يعصون الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۞﴾ [التحريم]. فهذا الاستثناء يدل علىٰ أن إبليس ليس من الملائكة إذ هو من الجنّ.

لقد كرّم الله آدم، عليه السلام، وشرّفه فقد خلقه بيده الكريمة، ونفخ فيه من روحه، وعلّمه الأسماء كلها، وأمر ملائكته بالسجود له، فهذه أربع تشريفاتٍ كريمات من رب العالمين: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۞﴾ [الحجر].

لما خلق الله آدم، عليه السلام، ألقىٰ عليه النوم، ثم خلق حواء من ضلعٍ من أضلاعه اليسرىٰ وهو الضلع الأقصر، فلما استيقظ رآها، ومال إليها وألفها، لأنها كانت مخلوقةً من جزءٍ من أجزائه، واحتجّوا لذلك بقول النبي، صلىٰ الله عليه وسلم: «إن المرأة خُلقت من ضلعٍ أعوج، فإن ذهبت تقوّمها كسرتها، وإن تركتها وفيها عوج استمتعت بها»[(١)].

قال ابن عباس، رضي الله عنه: إنما سمي آدم بهذا الاسم لأن الله تعالىٰ خلقه من أديم الأرض كلها أحمرها وأسودها وطيّبها وخبيثها، لذا كان في ولده الأحمر والأسود والطيّب والخبيث، والمرأة إنما سُمّيت بـ(حوّاء) لأنها خُلقت من ضلعٍ من أضلاع آدم، فكانت مخلوقةً من شيءٍ حيٍّ، فلا جرم سُمّيت بـ(حوّاء)[(٢)].

---

(١) «التفسير الكبير»: الفخر الرازي. تفسير سورة النساء الآية الأولى.

(٢) المصدر السابق نفسه.

وأكرم الله سبحانه وتعالىٰ آدم، عليه السلام، وزوجته حوّاء أيضاً فأسكنهما الجنّة وأعطاهما ـ جلّت قدرته ـ التوجيه اللازم: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [البقرة].

وقيل: إن الجنّة التي أُدخلها آدم، عليه السلام، هي في السماء، وهي جنّة المأوىٰ، كما قيل: بل هي جنّة في الأرض إذ أُمر ألا يأكل من شجرةٍ فيها، وفي جنة الخلد لا يوجد شجرة يمنع الأكل منها، ولأنه نام فيها وأُخرج منها، ودخل إبليس عليه فيها وهذا مما ينافي أن تكون جنة الخلد. فهي إذن جنّة أعدّها الله لآدم، عليه السلام، وزوجه، وجعلها دار ابتلاءٍ، وليست جنّة الخلد التي هي دار جزاءٍ.

وقيل: هي في السماء ولكنها ليست جنّة المأوىٰ، إذ أُمروا بالهبوط منها قال تعالىٰ: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦]. وقال تعالىٰ أيضاً: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [البقرة]. وقال: ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الأعراف]. وقال: ﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ [الأعراف]. وقال: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾ [طه].

قيل: إن كلمة (هبط) قد تأتي بمعنىٰ يقع ويتحطّم، قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٧٤].

وقيل: كما أن كلمة (هبط) قد تأتي بمعنىٰ نزل، قال تعالىٰ: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾ [هود].

وقيل: إن كلمة (هبط) قد تأتي بمعنىٰ انتقل، قال تعالىٰ: ﴿ٱهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ [البقرة: ٦١]. أي: انتقلوا من سيناء إلىٰ مصر.

ويحتجّ أصحاب هذا القول بما رواه عبد الله بن أحمد بن حنبل في «الزيادات» عن هدبة بن خالد، عن حماد بن سلمة، عن حُميد، عن الحسن البصري، عن يحيىٰ بن ضمرة السعديّ، عن أُبيّ بن كعب، قال: إن آدم لما احْتُضِر اشتهىٰ قطفاً من عنب الجنّة، فانطلق بنوه ليطلبوه له، فلقيتهم الملائكة فقالوا: أين تريدون يا بني آدم؟ فقالوا: إن أبانا اشتهىٰ قطفاً من عنب الجنة. فقالوا لهم: ارجعوا فقد كفيتموه. فانتهوا إليه، فقبضوا روحه وغسّلوه وحنّطوه وكفّنوه، وصلّىٰ عليه جبريل ومن خلفه الملائكة ودفنوه، وقالوا: هذه سنّتكم في موتاكم[١].

وكانت كذلك أقوال في تلك الشجرة أغرىٰ إبليس ـ عليه لعنة الله ـ آدم، عليه السلام، في الأكل منها فقيل: هي الكرم، وقيل: هي الحنطة، وقيل: هي النخلة، وقيل: هي التين، وقال أبو العالية: كانت شجرةً من أكل منها أحدث، ولا ينبغي في الجنّة حدث[٢].

روىٰ مجاهد وسعيد بن جبير، عن ابن عباس، رضي الله عنهما؛ أنها البُرّ والسنبلة، وروىٰ السّديّ عن ابن عباس وابن مسعود: أنها الكرْم، وعن مجاهد وقتادة: أنها التين، وقال الربيع بن أنس: كانت شجرةً من أكل منها أحدث ولا ينبغي أن يكون في الجنة حدث. واعلم أنه ليس في الظاهر ما يدلّ علىٰ التعيين فلا حاجة أيضاً إلىٰ بيانه لأنه ليس المقصود من هذا الكلام أن يُعرّفنا عين تلك الشجرة، وما لا يكون مقصوداً في الكلام لا يجب علىٰ الحكيم أن يُبيّنه بل ربما كان بيانه عبثاً

---

(١) «قصص الأنبياء»: ابن كثير.

(٢) المصدر السابق نفسه.

لأن أحدنا لو أراد أن يُقيم العذر لغيره في التأخُّر، فقال: شُغلت بضرب غلماني لإساءتهم الأدب، لكان هذا القدْر أحسن من أن يذكر عين الغلام ويذكر اسمه وصفته، فليس لأحدٍ أن يظنّ أنه وقع هاهنا تقصير في البيان[1].

لقد أُبيحت لهما كل ثمار الجنّة... إلا شجرة.... شجرةً واحدةً، وربما كانت ترمز للمحظور الذي لا بُدّ منه في حياة الأرض. فبغير محظورٍ لا تنبت الإرادة، ولا يتميّز الإنسان المريد من الحيوان المسوق، ولا يُمتحن صبر الإنسان علىٰ الوفاء بالعهد، والتقيّد بالشرط. فالإرادة هي مفرق الطريق. والذين يستمتعون بلا إرادةٍ؛ هم من عالم البهيمية، ولو بَدَوْا في شكل الآدميين: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ﴾ [البقرة: ٣٦].

وبالتعبير المصور: ﴿أزلّهما﴾ إنه يرسم صورة الحركة التي يُعبّر عنها. وإنك لتكاد تلمح الشيطان وهو يزحزحهما عن الجنّة، ويدفع بأقدامهما فتزلّ وتهوي.

عندئذ تمّت التجربة: نسي آدم عهده، وضعف أمام الغواية. وعندئذ حقّت كلمة الله، وصرح قضاؤه: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ٣٦﴾ [البقرة]. وكان هذا إيذاناً بانطلاق المعركة في مجالها المُقدّر لها بين الشيطان والإنسان إلىٰ آخر الزمان. ونهض آدم من عثرته، بما رُكّب في فطرته، وأدركته رحمة ربه التي تُدركه دائماً عندما يثوب إليها، ويلوذ بها ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٣٧﴾ [البقرة]. وتمّت كلمة الله الأخيرة، وعهده الدائم مع آدم وذريته. عهد الاستخلاف في هذه الأرض، وشرط الفلاح فيها أو البوار. ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًاۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٣٨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا

---

(١) «التفسير الكبير»: الفخر الرازي.

خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ [البقرة]. وانتقلت المعركة الخالدة إلىٰ ميدانها الأصيل، وانطلقت من عقالها، ما تهدأ لحظةً وما تفتر. وعرف الإنسان في فجر البشرية كيف ينتصر إذا شاء الانتصار، وكيف ينكسر إذا أراد الخسار.

وبعد، فلا بُدّ من عودةٍ إلىٰ مطالع القصة. قصة البشرية الأولىٰ.

لقد قال الله تعالىٰ للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]. وإذن فآدم مخلوق لهذه الأرض منذ اللحظة الأولىٰ.

لعلّني ألمح أن هذه التجربة كانت تربيةً لهذا الخليفة وإعداداً. كانت إيقاظاً للقوىٰ المذخورة في كيانه. كانت تدريباً له علىٰ تلقّي الغواية، وتذوّق العاقبة، وتجرّع الندامة، ومعرفة العدوّ، والالتجاء بعد ذلك إلىٰ الملاذ الأمين.

إن قصة الشجرة المحرّمة، ووسوسة الشيطان باللذّة، ونسيان العهد بالمعصية، والصحوة من بعد السكرة، والندم وطلب المغفرة... إنها هي، هي تجربة البشرية المتجدّدة المكرورة.

لقد اقتضت رحمة الله بهذا المخلوق أن يهبط إلىٰ مقرّ خلافته مُزوّداً بهذه التجربة التي سيتعرّض لمثلها طويلاً استعداداً للمعركة الدائبة موعظةً وتحذيراً[(١)].

وقالوا: لا مانع ـ بل هو الواقع ـ أن الجنّة التي أسكنها آدم كانت مرتفعةً عن سائر بقاع الأرض، ذات أشجارٍ وثمارٍ وظلالٍ ونعيمٍ ونضرةٍ وسرورٍ، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾﴾ [طه]، أي: لا يذلّ باطنك بالجوع ولا ظاهرك بالعري. ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾ [طه]، أي: لا يمسّ باطنك حرّ الظمأ ولا ظاهرك حرّ الشمس، ولهذا قرن بين هذا وهذا، وبين هذا وهذا، لما بينهما من الملاءمة. فلما كان منه ما كان من أكله من الشجرة التي نُهي عنها، أُهبط

---

(١) «في ظلال القرآن»: سيد قطب.

إلىٰ أرض الشقاء والتعب والنصب والكَدَر والسعي والنكد، والابتلاء والاختبار والامتحان، واختلاف السكان ديناً وأخلاقاً وأعمالاً، وقصوراً وإرادات، وأقوالاً وأفعالاً، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾ [البقرة]. ولا يلزم من هذا أنهم كانوا في السماء كما قال تعالىٰ: ﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الإسراء](١).

ولعله ليس من المستحسن ذكر الحادثة التي نُهيا عنها والتي رُمز إليها بـ(الشجرة) لعدم الرغبة في ذِكرها ألا وهي جماع الزوجين وأُشير إليها بظهور سوأتيهما، وأُشير إلىٰ ظهور الخلف وخلوده ما دامت الحياة علىٰ هذه الأرض. ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأعراف].

وقوله تعالىٰ: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا﴾ أي: عن الجنّة. ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة: ٣٦] أي: من النعيم والنضرة والسرور إلىٰ دار التعب والكدّ والنكد، وذلك بما وسوس لهما وزيّنه في صدورهما، كما قال تعالىٰ: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾

(١) «قصص الأنبياء»: ابن كثير.

[الأعراف]. يقول: ما نهاكما عن أكل هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين، أو تكونا من الخالدين، أي: لو أكلتما منها لصرتما كذلك. ﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾ أي: حلف لهما علىٰ ذلك ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾ [الأعراف]. كما قال في الآية الأخرىٰ: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾ [طه]. أي: هل أدلك علىٰ الشجرة التي إذا أكلت منها حصل لك الخلد فيما أنت فيه من النعيم، واستمررت في ملكٍ لا يبيد ولا ينقضي؟ وهذا التغرير والتزوير والإخبار بخلاف الواقع[1].

ورویٰ الحافظ ابن عساكر عن مجاهد، قال: أمر الله ملَكين أن يُخرجا آدم وحواء من جواره، فنزع جبريل التاج عن رأسه، وحلّ ميكائيل الإكليل عن جبينه، وتعلّق به غصن، فظنّ آدم أنه قد عوجل بالعقوبة، فنكس رأسه يقول: العفو، العفو. فقال الله: أفراراً مني؟ قال: بل حياءً منك يا سيدي!

وقال الأوزاعي عن حسان ـ وهو ابن عطية ـ: مكث آدم في الجنّة مائة عامٍ، وفي رواية: ستين عاماً، وبكىٰ علىٰ الجنّة سبعين عاماً، وعلىٰ خطيئته سبعين عاماً، وعلىٰ ولده حين قُتل أربعين عاماً. رواه ابن عساكر.

وقال ابن أبي حاتم: حدّثنا أبو زرعة، حدّثنا ابن أبي شيبة، حدّثنا جرير، عن سعيد، عن ابن عباس قال: أُهبط آدم، عليه السلام، إلىٰ أرضٍ يقال لها: (دحنا) بين مكة والطائف. وعن الحسن قال: أُهبط آدم بالهند، وحوّاء بجدة، وإبليس بـ(دستميان) من البصرة علىٰ أميالٍ، وأُهبطت الحيّة[2] بـ(أصبهان). رواه ابن أبي حاتم أيضاً.

وقال السدي: نزل آدم بالهند ونزل معه بالحجر الأسود وبقبضةٍ من

---

(١) «قصص الأنبياء»: ابن كثير.

(٢) الحيّة هي التي دلت حوّاء على الأكل من الشجرة.

ورق الجنّة، فبثّه في الهند فنبتت شجرة الطيب هناك. وعن ابن عمر قال: أُهبط آدم بالصفا، وحوّاء بالمروة. ورواه ابن أبي حاتم أيضاً[١].

وفي «صحيح مسلم» من حديث الزهري عن الأعرج، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله، صلىٰ الله عليه وسلم: «خير يومٍ طلعت فيه الشمس يوم الجمعة، فيه خُلق آدم، وفيه أُدخل الجنّة، وفيه أُخرج منها، وفيه تقوم الساعة».

وروىٰ البخاري قال: حدّثنا عبد العزيز بن عبد الله، حدّثنا إبراهيم بن سعد، عن ابن شهاب، عن حميد بن عبد الرحمٰن؛ أن أبا هريرة قال: قال رسول الله، صلىٰ الله عليه وسلم: «احتجّ آدم وموسىٰ، فقال له موسىٰ: أنت آدم الذي أخرجتك خطيئتك من الجنّة. فقال له آدم: أنت موسىٰ الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه ثم تلومني علىٰ أمرٍ قُدّر عليّ قبل أن أُخلق؟ فقال رسول الله، صلىٰ الله عليه وسلم: «فحجّ آدم موسىٰ مرتين»[٢].

○ أبناء آدم، عليه السلام[٣]:

وُلد لآدم، عليه السلام، أبناء كثيرون ذكوراً وإناثاً، وقد عُرف منهم: قابيل وهابيل وشيث إذ ذُكروا، ولم تُذكر أية أُنثىٰ.

قال السديّ عن ابن عباس وعن ابن مسعود: إنه كان لا يُولد لآدم مولود إلا ومعه جارية، فكان يُزوِّج غلام هذا البطن جارية هذا البطن الآخر، ويُزوِّج جارية هذا البطن غلام هذا البطن الآخر، حتىٰ وُلد له ابنان يقال لهما: هابيل وقابيل، وكان قابيل صاحب زرعٍ، وكان هابيل صاحب ضرعٍ، وكان قابيل أكبرهما، وكان له أخت أحسن من أخت

---

(١) «قصص الأنبياء»: ابن كثير.

(٢) «صحيح البخاري»: (٣٤٠٩).

(٣) انظر المصور رقم (١)، الصفحة (٢٤٧).

هابيل، وأن هابيل طلب أن ينكح أخت قابيل، فأبىٰ عليه، وقال: هي أختي ولدت معي، وهي أحسن من أختك، وأنا أحق أن أتزوج بها، وأنهما قرّبا قرباناً إلىٰ الله عزّ وجلّ أيهما أحق بالجارية، قرّب هابيل جذعةً سمينةً، وقرّب قابيل حزمة سنبلٍ، فوجد فيها سنبلةً عظيمةً ففركها وأكلها، فنزلت النار فأكلت قربان هابيل، وتركت قربان قابيل، فغضب، وقال: لأقتلنّك حتىٰ لا تنكح أختي، فقال هابيل: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٢٧﴾ [المائدة].

وقال ابن جرير عن عبد الله بن عمرو، قال: إن ابني آدم اللذين قرّبا قرباناً فتُقبِّل من أحدهما ولم يُتقبَّل من الآخر، كان أحدهما صاحب حرثٍ، وكان الآخر صاحب غنمٍ، وإنهما أُمرا أن يُقرّبا قرباناً، وإن صاحب الغنم قرّب أكرم غنمه وأسمنها وأحسنها طيِّبةً بها نفسه، وإن صاحب الحرث قرّب أشرّ حرثه الكوزن والزوان، غير طيِّبةٍ بها نفسه، وإن الله عزّ وجلّ تقبّل قربان صاحب الغنم، ولم يتقبّل قربان صاحب الحرث، وكان من قصتهما ما قصّ الله في كتابه، قال: وأيم الله إن كان المقتول لأشدّ الرجلين، ولكن منعه التحرّج أن يبسط يده إلىٰ أخيه.

وروىٰ محمد بن إسحاق عن بعض أهل العلم بالكتاب الأول: أن آدم أمر ابنه قابيل أن ينكح أخته توأمة هابيل، وأمر هابيل أن ينكح أخته توأمة قابيل، فسلّم لذلك هابيل ورضي، وأبىٰ ذلك قابيل وكره تكرّماً عن هابيل، ورغب بأخته عن هابيل، وقال: نحن من ولادة الجنّة، وهما من ولادة الأرض، وأنا أحق بأختي. ويقول بعض أهل العلم بالكتاب الأول: كانت أخت قابيل من أحسن الناس، فضنّ بها علىٰ أخيه وأرادها لنفسه، فقال له أبوه: يا بني، إنها لا تحل لك، فأبىٰ قابيل أن يقبل ذلك من قول أبيه، قال له أبوه: يا بنيّ، قرّب قرباناً ويُقرّب أخوك هابيل قرباناً، فأيّكما تُقبّل قربانه فهو أحق بها، وكان قابيل علىٰ بذر الأرض، وكان هابيل علىٰ رعاية الماشية، فقرّب قابيل قمحاً، وقرّب هابيل أبكاراً من

أبكار غنمه، وبعضهم يقول: قرّب بقرةً، فأرسل الله ناراً بيضاء فأكلت قربان هابيل، وتركت قربان قابيل، وبذلك كان يُقبل القربان إذا قَبِلَه. رواه ابن جرير، ثم المشهور عند الجمهور أن الذي قرّب الشاة هو هابيل، وأن الذي قرّب الطعام هو قابيل، وأنه تُقبّل من هابيل شاته حتىٰ قال ابن عباس وغيره: إنها الكبش الذي فدي به الذبيح، وهو مناسب، والله أعلم. ولم يُتقبّل من قابيل، كذلك نصّ عليه غير واحدٍ من السلف والخلف، وهو المشهور عن مجاهد أيضاً.

قال تعالىٰ: ﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [المائدة].

يقول تعالىٰ مبيّناً وخيم عاقبة البغي والحسد والظلم في خبر ابني آدم، وهما: (قابيل وهابيل)، كيف عدا أحدهما علىٰ الآخر، فقتله بغياً عليه وحسداً له، فيما وهبه الله من النعمة، وتقبّل القربان الذي أخلص فيه لله عزّ وجلّ، ففاز المقتول بوضع الآثام والدخول إلىٰ الجنّة، وخاب القاتل ورجع بالصفقة الخاسرة في الدارين، فقال تعالىٰ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: اقصص علىٰ هؤلاء البُغاة الحسدة إخوان الخنازير والقردة من اليهود وأمثالهم وأشباههم، خبر ابني آدم، وهما: (قابيل وهابيل) فيما ذكره غير واحدٍ من السلف والخلف. وقوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: علىٰ الجلية والأمر الذي لا لُبس فيه ولا كذب، ولا وهم ولا تبديل، ولا زيادة ولا نقصان، كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ وقوله تعالىٰ:

﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ﴾، وكان من خبرهما فيما ذكره غير واحدٍ من السلف والخلف، أن الله تعالىٰ شرع لآدم، عليه السلام، أن يزوّج بناته من بنيه لضرورة الحال، ولكن قالوا: كان يُولد له في كل بطنٍ ذكر وأنثىٰ، فكان يزوّج أنثىٰ هذا البطن لذكر البطن الآخر، وكانت أخت هابيل دميمةً وأخت قابيل وضيئةً، فأراد أن يستأثر بها علىٰ أخيه، فأبىٰ آدم ذلك إلا أن يُقرّبا قرباناً، فمن تُقبّل منه فهي له، فتُقبِّل من هابيل، ولم يُتقبّل من قابيل، فكان من أمرهما ما قصّه الله في كتابه[1].

ومعنىٰ قوله: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي: ممن اتقىٰ الله في فعله ذلك. وفي الحديث عن معاذ بن جبل، قال: يُحبس الناس في بقيعٍ واحدٍ يُنادي منادٍ، أين المتقون؟ فيقومون في كنف من الرحمٰن لا يحتجب الله منهم ولا يستتر، قلت: من المتقون؟ قال: قوم اتقوا الشرك وعبادة الأوثان، وأخلصوا العبادة فيمرّون إلىٰ الجنّة.

وقوله تعالىٰ: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾. يقول له أخوه: الرجل الصالح الذي تقبّل الله قربانه لتقواه، حين توعّده أخوه بالقتل عن غير ما ذنبٍ منه إليه ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ﴾ أي: لا أُقابلك علىٰ صنيعك الفاسد بمثله، فأكون أنا وأنت سواءً في الخطيئة. ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: من أن أصنع كما تريد أن تصنع بل أصبر وأحتسب. قال عبد الله بن عمرو: وأيم الله، إن كان لأشدّ الرجلين ولكن منعه التحرّج، يعني: الورع. ولهذا ثبت في «الصحيحين» عن النبي، صلىٰ الله عليه وسلم، أنه قال: «إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار» قالوا: يا رسول الله، هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: «إنه كان حريصاً علىٰ قتل صاحبه». وقال

---

(١) «مختصر تفسير ابن كثير»: تحقيق محمد علي الصابوني.

الإمام أحمد عن بُسْر بن سعيد: أن سعد بن أبي وقاص قال عند الفتنة أيام عثمان: أشهد أن رسول الله، صلىٰ الله عليه وسلم، قال: «إنها ستكون فتنة، القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي خير من الساعي»، قال: أفرأيت إن دخل عليّ بيتي فبسط يده إليّ ليقتلني؟ فقال: «كن كابن آدم». قال أيوب السختياني: إن أول من أخذ بهذه الآية من هذه الأمة ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ لعثمان بن عفان، رضي الله عنه، رواه ابن أبي حاتم.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾. قال ابن عباس ومجاهد: أي: بإثم قتلي وإثمك الذي عليك قبل ذلك، وقال آخرون: يعني بذلك: إني أريد أن تبوء بخطيئتي فتتحمّل وزرها وإثمك في قتلك إياي. وكيف أراد هابيل أن يكون علىٰ أخيه إثم قتله؟ ذلك أن هابيل أخبر عن نفسه بأنه لا يُقاتل أخاه إن قاتله، بل يكفّ عنه يده طالباً إن وقع قتل أن يكون من أخيه لا منه. وهذا الكلام متضمن موعظةً له لو اتعظ، وزجراً له لو انزجر، ولهذا قال: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾ أي: تتحمّل إثمي وإثمك ﴿فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. وقال ابن عباس: خوّفه بالنار فلم ينته ولم ينزجر.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ أي: فحسّنت وسوّلت له نفسه وشجّعته علىٰ قتل أخيه فقتله أي: بعد هذه الموعظة، وهذا الزجر، وقد تقدّم أنه قتله، بحديدةٍ في يده، وقال السديّ: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ﴾ فطلبه ليقتله، فراغ الغلام منه في رؤوس الجبال، فأتاه يوماً من الأيام، وهو يرعىٰ غنماً له، وهو نائم، فرفع صخرةً فشدخ بها رأسه فمات، فتركه بالعراء. رواه ابن جرير. وعن بعض أهل الكتاب أنه قتله خنقاً وعضّاً كما تفعل السباع. وقال ابن

جرير: لما أراد أن يقتله جعل يلوي عنقه، فأخذ إبليس دابةً ووضع رأسها علىٰ حجرٍ ثم أخذ حجراً آخر فضرب به رأسها حتىٰ قتلها، وابن آدم ينظر، ففعل بأخيه مثل ذلك، وقال عبد الله بن وهب: أخذ برأسه ليقتله فاضطجع له وجعل يغمز رأسه وعظامه ولا يدري كيف يقتله، فجاءه إبليس فقال: أتريد أن تقتله؟ قال: نعم، قال: فخذ هذه الصخرة فاطرحها علىٰ رأسه، قال: فأخذها فألقاها عليه فشدخ رأسه، ثم جاء إبليس إلىٰ حوّاء مسرعاً، فقال: يا حواء، إن قابيل قتل هابيل، فقالت له: ويحك وأي شيءٍ يكون القتل؟ قال: لا يأكل ولا يشرب ولا يتحرّك، قالت: ذلك الموت؟ قال: فهو الموت، فجعلت تصيح حتىٰ دخل عليها آدم وهي تصيح، فقال: ما لك؟ فلم تُكلّمه فرجع إليها مرتين فلم تُكلّمه، فقال: عليك الصيحة وعلىٰ بناتك، وأنا وبني منها براء. رواه ابن أبي حاتم. وقوله: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ أي: في الدنيا والآخرة، وأيّ خسارةٍ أعظم من هذه. عن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله، صلىٰ الله عليه وسلم: «لا تُقتل نفس ظلماً إلا كان علىٰ ابن آدم الأول كِفْل من دمها، لأنه كان أول من سنّ القتل» وقد أخرجه الجماعة سوىٰ أبي داود.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّـٰدِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [المائدة]. قال السدّي: لما مات الغلام تركه بالعراء ولا يعلم كيف يدفن، فبعث الله غرابين أخوين، فاقتتلا فقتل أحدهما صاحبه، فحفر له، ثم حثا عليه التراب، فلما رآه قال: ﴿يَـٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ﴾. وقال ابن عباس: جاء غراب إلىٰ غرابٍ ميتٍ فحثا عليه من التراب حتى واراه، فقال الذي قتل أخاه: ﴿يَـٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ﴾. وقال الضحاك عن ابن عباس: مكث يحمل أخاه في جرابٍ علىٰ عاتقه سنةً حتىٰ بعث الله الغرابين فرآهما يبحثان فقال: ﴿أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـٰذَا ٱلْغُرَابِ﴾

فدفن أخاه. وزعم أهل التوراة أن قابيل لما قتل أخاه هابيل قال له عزّ وجلّ: يا قابيل، أين أخوك هابيل؟ قال: ما أدري ما كنت عليه رقيباً؟ فقال الله: إن صوت دم أخيك ليناديني من الأرض الآن، أنت ملعون من الأرض التي فتحت فاها، فتلقّت دم أخيك من يدك، فإن أنت عملت في الأرض فإنها لا تعود تعطيك حرثها، حتىٰ تكون فزعاً تائهاً في الأرض.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّـٰدِمِينَ﴾ قال الحسن البصري: علاه الله بندامةٍ بعد خسران. فهذه أقوال المفسّرين في هذه القصة، وكلهم مُتّفقون علىٰ أن هذين ابنا آدم لصُلبه كما هو ظاهر القرآن، وكما نطق به الحديث في قوله: «إلا كان علىٰ ابنِ آدم الأول كِفْل من دمها لأنه كان أول من سنّ القتل»، وهذا ظاهر جليّ. وقال رسول الله، صلىٰ الله عليه وسلم: «إن الله ضرب لكم ابني آدم مثلاً فخذوا من خيرهم ودعوا شرّهم»[1]. والظاهر أن قابيل عوجل بالعقوبة، كما ذكره مجاهد وابن جبير: أنه علقت ساقه بفخذه يوم قتله، وجعل الله وجهه إلىٰ الشمس حيث دارت عقوبةً له وتنكيلاً به. وقد ورد في الحديث أن النبي، صلىٰ الله عليه وسلم، قال: «ما من ذنبٍ أجدر أن يُعجّل الله عقوبته في الدنيا مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم»، وقد اجتمع في فعل قابيل هذا وهذا، فإنا لله وإنا إليه راجعون[2].

﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [المائدة] يقول تعالىٰ: من أجل قتل ابن آدم أخاه ظلماً وعدواناً ﴿كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أيّ: شرعنا لهم وأعلمناهم ﴿أَنَّهُۥ

(١) أخرجه ابن جرير عن الحسن البصري مرفوعاً.
(٢) «مختصر تفسير ابن كثير»: محمد علي الصابوني.

مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۚ﴾ أي: من قتل نفساً بغير سببٍ من قصاصٍ أو فساد في الأرض، واستحلّ قتلها بلا سببٍ ولا جنايةٍ، فكأنما قتل الناس جميعاً، لأنه لا فرق عنده بين نفسٍ ونفسٍ، ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ أي: حرّم قتلها واعتقد ذلك فقد سلم الناس كلهم منه بهذا الاعتبار، ولهذا قال: ﴿فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۚ﴾. وقال الأعمش عن أبي هريرة قال: دخلت علىٰ عثمان يوم الدار فقلت: جئت لأنصرك، وقد طاب الضرب يا أمير المؤمنين، فقال: يا أبا هريرة! أيسرّك أن تقتل الناس جميعاً وإياي معهم؟ قلت: لا، قال: فإنك إن قتلت رجلاً واحداً فكأنما قتلت الناس جميعاً، فانصرف مأذوناً لك، مأجوراً غير مأزور، قال: فانصرفتُ ولم أُقاتل. وقال ابن عباس: هو كما قال الله تعالىٰ: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۚ﴾ وإحياؤها ألا يقتل نفساً حرّمها الله فذلك الذي أحيا الناس جميعاً، يعني: أنه من حرّم قتلها إلا بحقٍ حيي الناس منه، وهكذا قال مجاهد، ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ أي: كفّ عن قتلها. وقال العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ يقول: من قتل نفساً واحدةً حرّمها الله فهو مثل من قتل الناس جميعاً. وقال سعيد بن جبير: من استحلّ دم مسلمٍ فكأنما استحلّ دماء الناس جميعاً، ومن حرّم دم مسلمٍ فكأنما حرّم دماء الناس جميعاً، هذا قول، وهو الأظهر. وقال مجاهد في روايةٍ أخرىٰ عنه: من قتل نفساً بغير نفسٍ فكأنما قتل الناس جميعاً وذلك لأن من قتل النفس فله النار فهو كما لو قتل الناس كلهم. وقال مجاهد في رواية: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ أي: أنجاها من غرقٍ أو حرقٍ أو هلكة. وقال الحسن وقتادة في قوله: ﴿أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ هذا تعظيم لتعاطي القتل. قال قتادة: عظيم والله وزرها، وعظيم والله أجرها. وقال ابن المبارك عن سليمان الربعي

قال: قلت للحسن: هذه الآية لنا يا أبا سعيد كما كانت لبني إسرائيل؟ فقال: أي والذي لا إلٰه غيره كما كانت لبني إسرائيل، وما جعل دماء بني إسرائيل أكرم علىٰ الله من دمائنا. وقال الإمام أحمد: جاء حمزة بن عبد المطلب إلىٰ رسول الله، صلىٰ الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله! اجعلني علىٰ شيء أعيش به، فقال رسول الله، صلىٰ الله عليه وسلم: «يا حمزة! نفس تُحييها أحبّ إليك أم نفس تميتها» قال: بل نفس أُحييها، قال: «عليك بنفسك»، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالحجج والبراهين والدلائل الواضحة ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ وهذا تقريع لهم وتوبيخ علىٰ ارتكابهم المحارم بعد علمهم بها، كما كانت (بنو قريظة) و(بنو النضير) يقاتلون مع الأوس والخزرج إذا وقعت الحرب بينهم في الجاهلية، ثم إذا وضعت الحرب أوزارها فدوا من أسروه وودّوا من قاتلوه، وقد أنكر الله عليهم ذلك في سورة البقرة حيث يقول: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [البقرة: ٨٥][(١)].

ويقول ابن كثير: (والذي رأيته في الكتاب الذي بأيدي أهل الكتاب الذين يزعمون أنه التوراة: أن الله عزّ وجلّ أجّل قابيل وأنظره، وأنه سكن في أرض (نود) في شرقي عدن، وهم يسمّونه (قنين) وأنه وُلد له (خنوخ)، ولخنوخ (عندر)، ولعندر (محوايل)، ولمحوايل (متوشيل)، ولمتوشيل (لامك)، وتزوج هذا (لامك) امرأتين: (عدا) و(صلا). فولدت (عدا) ولداً اسمه (إبل) وهو أول من سكن القباب واقتنىٰ المال، وولدت أيضاً (نوبل)، وهو أول من أخذ في ضرب الوَنَج[(٢)] والصَّنج[(٣)]. وولدت (صلا) ولداً اسمه

(١) «مختصر تفسير ابن كثير»: تحقيق محمد علي الصابوني.

(٢) الوَنج: ضرب من المعازف.

(٣) الصنج: صفيحة مدورة من صغر يُضرب بالواحدة علىٰ الأخرىٰ، وصفائح صفر مستديرة تثبت في أطراف الدف أو في أصابع الراقصة.

(توبلقين)، وهو أول من صنع النحاس والحديد، وبنتاً اسمها (نُعمىٰ).

وفي هذا الكتاب أيضاً: أن آدم طاف علىٰ امرأته فولدت غلاماً، ودعت اسمه (شيث) ومعناه (هبة الله)، وقالت: من أجل أنه وُهب لي خلف بعد هابيل الذي قتله قابيل، ووُلد لشيث (أنوش).

قالوا: كان عمر آدم يوم وُلد (شيث) مائةً وثلاثين سنةً، وعاش بعد ذلك ثمانمائة سنة. وكان عمر شيث يوم ولد له أنوش مائة وخمساً وستين سنةً، وعاش بعد ذلك ثمانمائة سنة وسبع سنين، ووُلد له بنون وبنات غير أنوش.

وولد لأنوش (قينان) وله من العمر تسعون سنةً، وعاش بعد ذلك ثمانمائة وخمس عشرة سنةً، ووُلد له بنون وبنات.

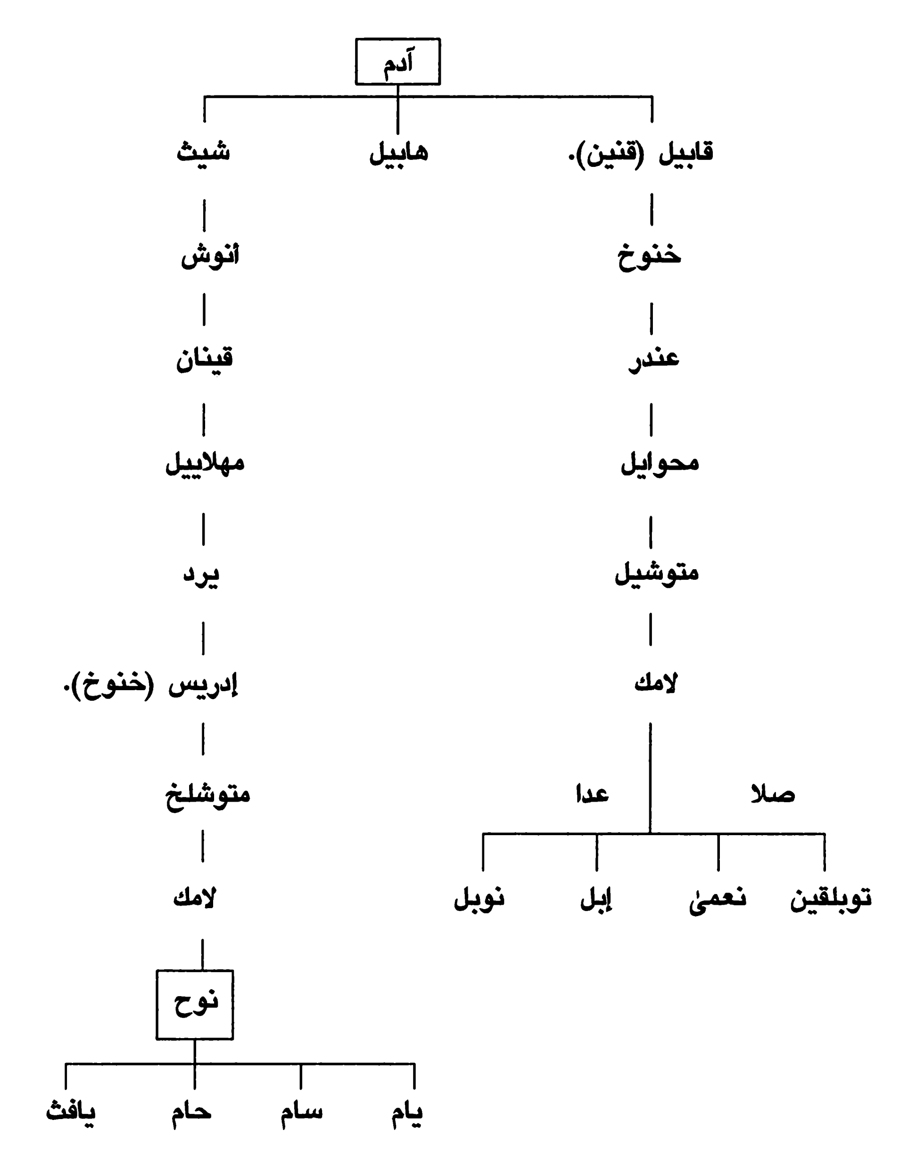
فلما كان عمر قينان سبعين سنةً وُلد له (مهلاييل)، وعاش بعد ذلك ثمانمائة وأربعين سنةً، فلما كان لمهلاييل من العمر خمس وستون سنةً وُلد له (يرد)، وعاش بعد ذلك ثمانمائة سنة، ووُلد له بنون وبنات.

فلما كان ليرد مائة واثنتان وستون سنة وُلد له خنوخ (إدريس)، وعاش بعد ذلك ثمانمائة سنةٍ، ووُلد له بنون وبنات.

فلما كان لخنوخ خمس وستون سنةً وُلد له (متوشلخ)، وعاش بعد ذلك ثمانمائة سنةٍ، ووُلد له بنون وبنات، فلما كان لمتوشلخ مائة وسبع وثمانون سنةً وُلد له (لامك)، وعاش بعد ذلك سبعمائة واثنين وثمانين سنةً، ووُلد له بنون وبنات.

فلما كان للامك من العمر مائة واثنتان وثمانون سنةً وُلد له (نوح)، وعاش بعد ذلك خمسمائة وخمساً وتسعين سنةً، ووُلد له بنون وبنات.

فلما كان لنوح خمسمائة سنة وُلد له بنون: سام، وحام، ويافث).



وقد ذكر الإمام أبو جعفر في «تاريخه» عن بعضهم: أن حوّاء ولدت لآدم أربعين ولداً في عشرين بطناً، قاله ابن إسحاق وسمّاهم. والله تعالىٰ أعلم. وقيل: مائة وعشرون بطناً في كل واحدٍ ذكر وأُنثىٰ، أولهم: قابيل وأخته قليما، وآخرهم: عبد المغيث وأخته أم المغيث[1].

(١) «قصص الأنبياء»: أبو الفداء إسماعيل بن كثير.

○ وفاة آدم، عليه السلام:

لما حضرت آدم الوفاة عهد إلىٰ ابنه (شيث) وعلّمه ساعات الليل والنهار، وعلّمه عبادات تلك الساعات، وأعلمه بوقوع الطوفان بعد ذلك.

وإن أنساب بني آدم اليوم تنتهي كلها إلىٰ شيث، وسائر أولاد آدم غيره انقرضوا وبادوا ـ والله أعلم ـ.

ولما توفي آدم، عليه السلام، وكان ذلك يوم الجمعة، جاءته الملائكة بحنوطٍ وكفنٍ من الجنّة بأمر الله عزّ وجلّ، وعزّوا فيه ابنه ووصيّه شيثاً، عليه السلام، قال ابن إسحاق: وكسفت الشمس والقمر سبعة أيامٍ بلياليهن.

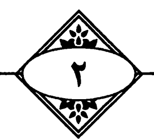
وروىٰ ابن عساكر من طريق شيبان بن فروخ، عن محمد بن زياد، عن ميمون بن مهران، عن ابن عباس؛ أن رسول الله، صلىٰ الله عليه وسلم، قال: «كبّرت الملائكة علىٰ آدم أربعاً» وكبّر أبو بكر علىٰ فاطمة أربعاً، وكبّر عمر علىٰ أبي بكر أربعاً، وكبّر صهيب علىٰ عمر أربعاً.

واختلفوا في موضع دفن آدم: فالمشهور أنه دُفن عند الجبل الذي أُهبط عليه في الهند، وقيل: بجبل أبي قبيس بمكة. ويقال: إن نوحاً، عليه السلام، لما كان زمن الطوفان حمله هو وحوّاء في تابوت فدفنهما ببيت المقدس. حكىٰ ذلك ابن جرير.

وروىٰ ابن عساكر عن بعضهم أنه قال: رأسه عند مسجد إبراهيم ورجلاه عند صخرة بيت المقدس، وقد ماتت حوّاء بعده بسنةٍ واحدةٍ.

واختُلف في مقدار عمره، عليه السلام، فعن ابن عباس، وأبي هريرة مرفوعاً: «أن عمره اكتُتب في اللوح المحفوظ ألف سنةٍ».

لما مات آدم، عليه السلام، قام بأعباء الأمر بعده ولده شيث، عليه السلام، وكان نبيّاً بنص الحديث الذي رواه ابن حبان في «صحيحه»، عن أبي ذرْ مرفوعاً «أُنزل عليه خمسون صحيفةً».

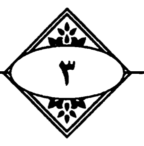


إدريس، عليه السلام

لما حضرت وفاة (يرد) أوصىٰ إلىٰ ولده خنوخ، وهو إدريس، عليه السلام، وقد أثنىٰ عليه الله سبحانه في القرآن الكريم، فقال: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ٥٦ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ٥٧﴾ [مريم]. فوصفه بالنبوة والصديقية.

كان إدريس، عليه السلام، أول من أُعطي النبوة بعد آدم وشيث، عليهما السلام. وثبت في «الصحيحين» في حديث الإسراء: أن رسول الله، صلىٰ الله عليه وسلم، مرّ به وهو في السماء الرابعة.

وذكر ابن إسحاق أن أول من خطّ بالقلم هو إدريس، عليه السلام، وقد أدرك من حياة آدم ثلاثمائة سنةٍ وثماني سنين.



نوح، عليه السلام

نوح[1] بن لامك بن متوشلخ بن إدريس، كان مولده بعد وفاة آدم بمائةٍ وستٍ وعشرين سنةً. وفي «صحيح البخاري» عن ابن عباس قال: كان بين آدم ونوح عشرة قرون، والقرن هنا يعني: الجيل، يقول تعالىٰ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍۢ﴾ [الإسراء: ١٧]، ويقول: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾﴾ [المؤمنون]. ويقول: ﴿وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٨]. ويقول: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ [مريم: ٧٤]. وكقوله، صلىٰ الله عليه وسلم: «خير القرون قرني.......».

وبُعث نوح، عليه السلام، لما عُبدت الأصنام بالأرض، وظهرت الطواغيت، وشرع الناس بالضلالة والكفر، فبعثه الله رحمةً للعباد. فكان أول رسولٍ بُعث إلىٰ أهل الأرض. يقول تعالىٰ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأعراف].

وكان قومه يُقال لهم: بنو راسب، وهم من البابليين الذين يقيمون في جنوبي بلاد العراق بين نهري دجلة والفرات، وكان أحد أجداده وهو (مهلاييل) بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم قد بنىٰ مدينة بابل.

إن أول رسولٍ بعثه الله إلىٰ أهل الأرض بعد آدم هو نوح، عليه السلام، قال محمد بن إسحاق: ولم يلق نبيّ من قومه من الأذىٰ مثل نوح إلا نبيّ قُتل.

---

(١) انظر المصور رقم (١) في الصفحة (٢٤٧).

وقد كان بين آدم إلىٰ زمن نوح، عليهما السلام، عشرة قرونٍ كلهم علىٰ الإسلام.

قال عبد الله بن عباس، رضي الله عنهما، وغير واحدٍ من علماء التفسير: وكان أول ما عُبدت الأصنام أن قوماً صالحين ماتوا فبنىٰ قومهم عليهم مساجد، وصوّروا صور أولئك فيها ليتذكّروا حالهم وعبادتهم فيثبتوا بهم، فلما طال الزمان جعلوا أجساداً من موادٍ علىٰ شكل الصور، فلما تمادىٰ الزمان عبدوا تلك الأصنام، وسمّوها بإسماء أولئك الصالحين (ودّ، سواع، يعوق، يغوث، نسر). فلما تفاقم الأمر بعث الله سبحانه وتعالىٰ ـ وله الحمد والمنّة ـ رسوله نوحاً فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، فقال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [الأعراف].

﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي: من عذاب يوم القيامة إذا لقيتم الله وأنتم مشركون به.

قال الملأ من قومه أي: الجمهور من السادة والقادة والكبراء: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: في دعوتك إيانا إلىٰ ترك عبادة هذه الأصنام التي وجدنا عليها آباءنا. وهكذا حال الفُجّار إنما يرون الأبرار في ضلالةٍ.

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

قال نوح، عليه السلام، لقومه: لا تعجبوا من هذا، فهذا ليس بعجبٍ أن يوحي الله إلىٰ رجل منكم رحمةً بكم ولطفاً وإحساناً إليكم ليُنذركم ولتتقوا نقمة الله، ولا تُشركوا به فلعله يرحمكم، فتمادوا علىٰ تكذيبه ومخالفته، وما آمن معه منهم إلا قليل.

﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ [نوح]. وقد روىٰ البخاري من حديث ابن جريج عن عطاء، عن ابن عباس عند تفسير هذه الآية: أن هذه الأسماء أسماء رجالٍ صالحين من قوم نوحٍ، فلما هلكوا أوحىٰ الشيطان إلىٰ قومهم أن انصبوا في مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسمّوها بأسمائهم، ففعلوا فلم تُعبد، حتىٰ إذا هلك أولئك وانتسخ العلم عُبدت.

قال ابن عباس: وصارت هذه الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب. وهكذا قال عكرمة والضحّاك وقتادة ومحمد بن إسحاق.

وقال ابن جرير في «تفسيره»: حدّثنا ابن حميد، حدّثنا مهران، عن سفيان، عن موسىٰ، عن محمد بن قيس قال: كانوا قوماً صالحين بين آدم ونوح، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صوّرناهم كانوا أشوق لنا إلىٰ العبادة إذا ذكرناهم، فصوّروهم، فلما ماتوا وجاء آخرون دبّ إليهم إبليس فقال: إنما كانوا يعبدونهم وبهم يُسقون المطر. فعبدوهم.

وروىٰ ابن أبىٰ حاتم عن عروة بن الزبير أنه قال: ودّ، ويغوث، ويعوق، وسواع، ونسر، أولاد آدم، وكان ودّ أكبرهم وأبرّهم بأبيه.

قال ابن أبي حاتم: حدّثنا أحمد بن منصور، حدّثنا الحسن بن موسىٰ، حدّثنا يعقوب بن أبي المطهر، قال: ذكروا عند أبي جعفر ـ محمد الباقر ـ وهو قائم يصلي يزيد بن المهلب، قال: فلما انفتل[١] من صلاته قال: ذكرتم يزيد بن المهلب، أما إنه قُتل في أول أرض عُبد فيها غير الله تعالىٰ. قال ذكر ودّاً، قال: كان رجلاً صالحاً، وكان محبباً في قومه، فلما مات عكفوا حول قبره في أرض بابل، وجزعوا عليه، فلما رأىٰ إبليس جزعهم عليه تشبّه في صورة إنسانٍ ثم قال: إني أرىٰ جزعكم علىٰ هذا الرجل، فهل لكم أن

---

(١) انفتل: انصرف.

أصوّر لكم مثله فيكون في ناديكم فتذكرونه به؟ قالوا: نعم، فصوّر لهم مثله، قال: فوضعوه في ناديهم، وجعلوا يذكرونه، فلما رأىٰ ما بهم من ذكره، قال: هل لكم أن أجعل في منزل كل واحدٍ منكم تمثالاً مثله ليكون له في بيته فتذكرونه؟ قالوا: نعم، قال: فمثّل لكل أهل بيتٍ تمثالاً مثله، فأقبلوا فجعلوا يذكرونه به، قال: وأدرك أبناؤهم فجعلوا يرون ما يصنعون به، قال: وتناسلوا ودُرس أمر ذكرهم إياه حتىٰ اتخذوه إلٰهاً يعبدونه من دون الله أولاد أولادهم، فكان أول ما عُبد غير الله (ودّ) الصنم الذي سمّوه ودّاً.

ومقتضىٰ هذا السياق أن كل صنمٍ من هذه عبده طائفة من الناس. وقد ذكر أنه لما تطاولت العهود والأزمان، جعلوا تلك الصور تماثيل مجسدة ليكون أثبت لهم، ثم عُبدت بعد ذلك من دون الله عزّ وجلّ. ولهم في عبادتها مسالك كثيرة جداً[1].

وقد ثبت في «الصحيحين» عن رسول الله، صلىٰ الله عليه وسلم: أنه لما ذَكرت عنده أم سلمة وأم حبيبة تلك الكنيسة التي رأينها بأرض الحبشة، ويقال لها: (مارية)، وذكرتا من حسنها وتصاوير فيها، قال: «أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا علىٰ قبره مسجداً، ثم صوّروا فيه تلك الصورة، أولئك شرار الخلق عند الله عزّ وجلّ».

لما بعث الله نوحاً، عليه السلام، دعا قومه إلىٰ إفراد عبادة الله وحده لا شريك له، وألا يعبدوا معه صنماً ولا تمثالاً ولا طاغوتاً، وأن يعترفوا بوحدانية الله، وأنه لا إلٰه غيره، ولا ربّ سواه، كما أمر الله تعالىٰ من بعده من الرسل الذين هم كلهم من ذريته، كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الصافات]. كما قال فيه وفي إبراهيم: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [الحديد: ٢٦]. أي: كل نبيٍّ من بعد نوح فمن ذريته وكذلك إبراهيم.

---

(١) «مختصر تفسير ابن كثير»: تحقيق محمد علي الصابوني.

وإن نوحاً، عليه السلام، قد دعا قومه إلىٰ عبادة الله بالأساليب كلها في الليل وفي النهار، في السرّ وفي العلن، بالترغيب وبالترهيب ومع هذا فلم يُجدِ معهم ولم ينجح فيهم. قال تعالىٰ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ۝ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ۝ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ۝ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ۝ أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۝ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ۝ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ۝ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ۝ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ۝ لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ۝ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ۝ وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا ۝ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ۝ وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ۝﴾ [نوح].

استمرّ أكثر أفراد قوم نوح بالضلالة والطغيان وعبادة الأصنام والأوثان. ونصبوا له العداوة في كل وقتٍ وأوانٍ، وتنقّصوا من شأنه وشأن من آمن معه، وتوعّدوهم بالرجم والإخراج من الديار، ونالوا منهم وبالغوا في أمرهم.

وقال كفار قوم نوح له ولمن آمن معه: ليس لكم مزية علينا ولم تظهر لكم صفة بعد أن أخذتم بالإيمان فلماذا هذا الترفّع علينا والتعالي ـ حسب زعمهم ـ؟. فأجابهم نوح، عليه السلام: إنكم لم تفهموا النبوة والرسالة ولم تستوعبوها، فلم تهتدوا إليها، أنُلزمكم بها ونُجبركم عليها، وترفّق معهم بالخطاب، وتواضع معهم بالكلام، وقال لهم: لا أريد منكم أجراً علىٰ إبلاغي ما ينفعكم في دنياكم وآخرتكم، وإنما أجري علىٰ الله، وهو ذخر لي في الآخرة، وأُنال بذلك خيراً كثيراً وأجراً كبيراً.

طلب كفار قوم نوح منه أن يطرد الذين آمنوا معه، وأظهروا له أنه إذا طرد أولئك الأراذل ـ حسب زعمهم ـ فإنهم ـ هم الأعيان ـ سيجتمعون معه، فأبىٰ عليهم ذلك، وقال لهم: ﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ فهو يُحاسبهم ويجزيهم علىٰ أعمالهم التي قاموا بها، وإني أراكم يا أيها الذين تدّعون السيادة أنكم قوم تجهلون. فمن ينصرني من الله إن طردتهم وقد آمنوا به ويعبدونه، ولا يجعلون له شريكاً ولا نداً. وهو ربي وربهم وربكم، وإنه خالقنا جميعاً وهو الذي سيحاسبنا علىٰ ما فعلنا وقمنا به. ﴿وَمَآ أَنَاْ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [هود].

وحاول كفار قومه أن يظهروا له مكانه الرفيع، ومركزه السامي، وإمكاناته المالية إن سمع منهم وأطاعهم في طرد المؤمنين، يقول تعالىٰ: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًاۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [هود].

وطال الحوار بين نوحٍ، عليه السلام، وقومه، وزاد الجدال، فهو يدعوهم إلىٰ الحق ويريد لهم الخير في الدنيا والآخرة، وهم يأبون الإيمان، ويرفضون الخير، ويمتنعون عن قبول الحق. كان الأب إذا بلغ ولده وعقل عنه كلامه وصّاه فيما بينهما ألا يؤمن بما يقول نوح أبداً ما عاش ودائماً ما بقي، فكانت طباعهم سيئةً، وسجاياهم فاجرةً، وأخلاقهم غير طيبةٍ.

وأخيراً قالوا لنوح: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [هود]. أي: أرادوا قطع خيط الحوار فيما بينهم إذ يُهزمون بعد كل جدالٍ، ولا يجدون مخرجاً لهم من كلامهم، وفي الوقت نفسه أرادوا إحراجه ـ حسب ظنّهم ـ فإن حدث شيء قالوا: إن نوحاً لا يريد الخير لنا، وإن تظاهر بذلك فها هو ما

فعل، إذ ظنّوا أن ما يحدث أمراً بسيطاً. فأجابهم: ليس لي من الأمر شيء، فالأمر كله بيد الله، ولستم أنتم ومن في الأرض جميعاً بمعجزين إن أراد أمراً، قال تعالىٰ: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ۝٣٣﴾ [هود] أي: إنما يقدر علىٰ ذلك وحده إذ لا يعجزه شيء، بل هو الذي يقول للشيء: كن، فيكون. ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٣٤﴾ [هود] أي: فمن يرد الله فتنته فلن يملك أحد في الخلق هدايته، هو الذي يهدي من يشاء ويُضلّ من يشاء، وهو العزيز الحكيم الفعّال لما يريد، العليم بمن يستحق الهداية ومن يستحق الغواية، وله الأمر كله، كما له الحكمة البالغة والحجة الدامغة.

﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ۝٣٦﴾ [هود].

وهذا إعلام لنوحٍ، عليه السلام، وفي الوقت نفسه تسلية فإن الحوار قد انتهىٰ والجدال لا يُجدي نفعاً، فإنه لن يُؤمن بعد الآن أحد غير الذين سبق لهم أن آمنوا، فلا تبتئس عما حدث منهم فإنهم لن يهتدوا ولن تصل إليهم رحمة؛ بل سينالهم عذاب ويكون نصر الله قريباً للذين آمنوا.

﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ۝٣٧﴾ [هود].

طُلب من نوح، عليه السلام، الاستعداد لتحقيق النصر بصنع فلكٍ يركب به المؤمنون، ثم يغرق الباقون الذين رفضوا الإيمان، وكذّبوا الدعاة، وسخروا من المؤمنين.

﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ۝٣٨ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ۝٣٩﴾ [هود].

بدأ نوح، عليه السلام، يصنع الفلك، وكان فُلكاً كبيراً فكان إذا مرّ

أحد أو جماعة من قومه الذين لم يُؤمنوا، سخروا من العمل ومن سعة الفُلك، ويقولون فيما بينهم: أي نهرٍ يتسع لهذا الفلك، فالأنهار هنا هي: دجلة والفرات، ونعرف أنها لا تتسع لهذا وها هي أمامنا، فلماذا هذا التبذير، والتفكير البعيد للأمور؟ إذ لم يتوقّعوا حدوث الطوفان وإغراقهم مع أمثالهم، ولا يسلم من هذا الطوفان إلا المؤمنين الذين صدّقوا نوحاً ومشوا معه واقتدوا به.

قال الثوري: وأمره أن يجعل طولها ثمانين ذراعاً، وأن يطلي ظاهرها وباطنها بالقار، وأن يجعل لها جؤجؤاً[١] أزور يشقّ الماء.

وقال قتادة: كان طولها ثلاثمائة ذراعٍ في عرض خمسين ذراعاً. وهذا الذي في التوراة علىٰ ما رأيته. وقال الحسن البصري: ستمائةٍ في عرض ثلاثمائةٍ، وعن ابن عباس: ألف ومائتا ذراعٍ في عرض ستمائة ذراعٍ. وقيل: كان طولها ألفي ذراعٍ، وعرضها مائة ذراعٍ.

وقالوا كلهم: وكان ارتفاعها ثلاثين ذراعاً، وكانت ثلاث طبقاتٍ كل واحدةٍ منها عشرة أذرعٍ، فالسفلىٰ للدوابّ والوحوش، والوسطىٰ للناس، والعليا للطيور. وكان بابها في عرضها، ولها غطاء من فوقها مُطبق عليها[٢].

وجاء الأمر الإلـٰهي أن يحمل في هذه السفينة من كلٍّ زوجين اثنين من الحيوانات، وسائر ما فيه روح من الحيوانات التي يُتغذّىٰ بلحمها لبقاء نسلها، وأن يحمل معه أهل بيته إلا من سبق عليه القول منهم، أي: إلا من كان كافراً، فإنه قد نفذت فيه الدعوة التي لا تُردّ، ووجب عليه حلول البأس الذي لا يُردّ. وأمره أن لا يُراجعه فيهم إذا حلّ بهم ما يُعانون من العذاب العظيم الذي قد حتّمه عليهم الفعّال لما يريد. فلا تأخذه العاطفة عليهم ولا الأسىٰ والحزن، فقد نفذت فيهم الدعوة.

---

(١) الجؤجؤ: صدر السفينة.

(٢) «قصص الأنبياء»: ابن كثير. الوحوش الكلاب، والطيور الدجاج وغيره للغذاء.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ٤٠﴾ [هود].

والمراد بـ(التنور) وجه الأرض أي: نبعت الأرض من سائر جهاتها حتىٰ نبعت التنانير التي هي محالّ النار في المخابز[1]. وعن ابن عباس: التنور عين في الهند، وعن الشعبي: عين بالكوفة، وعن قتادة: عين بالجزيرة. وقال علي بن أبي طالب، رضي الله عنه: المراد بـ(التنور) فلق الصبح وإنارة الفجر، أي: إشراقه وضياؤه. أي عند ذلك احمل فيها من كلٍّ زوجين اثنين.

واسلك في الفُلك أيضاً أهلك إلا الذين لم يُؤمنوا وبقوا علىٰ كفرهم، وكان منهم ابنه (يام) الذي غرق. ﴿وَمَنۡ ءَامَنَۚ﴾ واسلك في الفلك من آمن بك وبدعوتك من قومك. ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ﴾ ورغم طول مدة دعوة نوحٍ، عليه السلام، في قومه لم يؤمن معه إلا قليل.

وقد اختلف العلماء في عدد الذين كانوا في الفلك. فعن ابن عباس، رضي الله عنهما: كانوا ثمانين رجلاً معهم نساؤهم. وعن كعب الأحبار: كانوا اثنين وسبعين رجلاً. وقيل: كانوا عشرة. وقيل: إنما كانوا نوحاً وبنيه الثلاثة: سام، حام، يافث، وزوجات بنيه الأربع: أي زوجات: سام، وحام، ويام، ويافث. وكان (يام) قد انخذل واعتزل عن أهله، ثم تسلّل وارتقىٰ جبلاً أملاً بالنجاة، فوصل إليه الماء وغرق، ويُسمّيه أهل الكتاب (كنعان).

وأما امرأة نوح وهي أم أولاده كلهم: سام، وحام، ويافث، ويام، وعابر وهي فتاة، وقد ماتت قبل الطوفان، وقيل: إنها غرقت مع من غرق، وكانت مما سبق عليها القول لكفرها ـ والعياذ بالله ـ.

---

(١) يُسمّي الفلاحون بالشام الموقد الذي تُشعل النار فيه داخل المخبز بـ(التنور)، وتُلصق رقائق الخبز فيه لتصير خبزاً.

قال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [المؤمنون].

أمر الله سبحانه وتعالىٰ عبده نوحاً أن يحمد ربّه علىٰ ما سخّر له من هذه السفينة فنجّاه بها، وأقرّ عينه بمن كذّبه وخالفه، فامتثل نوح، عليه السلام، بهذه الوصية، وقال: ﴿۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ [هود].

﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [هود].

وذلك أن الله سبحانه وتعالىٰ أرسل من السماء مطراً لم تعهده الأرض من قبل ولن تمطره من بعد، إذ كان ينهمر كأفواه القِرب، وتفجّرت الينابيع من الأرض من الفجاج جميعها، ومن أنحائها كلها، والتقت مياه السماء ومياه الأرض فغطّت وجه اليابسة وارتفعت هذه المياه فكان الطوفان الذي عمّ ما كان معروفاً وطغىٰ علىٰ المرتفعات حتىٰ غدت الأرض كأنها بحراً واسع الأرجاء بعيد الأعماق.

وذكر ابن جرير وغيره: أن الطوفان كان في الثالث عشر من شهر آب حسب التقويم الشمسي أي: في أوج الصيف وقت توقّف الأمطار في بلاد جنوبي العراق حيث كان يُقيم قوم نوحٍ، وربما لو كان ذلك في فصل الشتاء حيث موسم الأمطار لقالوا: انهمرت الأمطار بغزارةٍ وجاءت السيول مما هطل علىٰ المرتفعات، ونبعت المياه من الأرض مما تسرّب لباطنها.

ولمح نوح ابنه (يام) قبل الطوفان، وكان في معزلٍ فناداه الوالد، وقال: آمن واركب معنا قبل أن يُغيّبك الماء وقد أخذه الحنان وغلبت

عليه العاطفة، فبدت الكبرياء علىٰ يام، وظهر عليه العناد، وطغىٰ عليه الكفر، وأبدىٰ عدم الاهتمام بالمياه فقال: ﴿سَآوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ﴾ فقال له أبوه نوح، عليه السلام: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ﴾. ويحك آمن ولكن لم يُجدِ الكلام ﴿وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ﴾. وكذلك أُغرق كل من لم يُؤمن من قوم نوحٍ، وانتهىٰ المشهد إذ نجا المؤمنون ـ بإذن الله ـ وأُغرق الكافرون بأمر الله.

وجاء أمر الله سبحانه وتعالىٰ إلىٰ مخلوقاته إذ أمر الأرض أن تبلع ماءها، وأمر السماء أن تُمسك عن المطر فجفّ الماء، وصحت السماء، وانتهىٰ الوضع، وعادت الحال إلىٰ ما كانت عليه قبل الطوفان. قال تعالىٰ: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [هود].

رست السفينة علىٰ جبل (الجودي) في شرقي تركيا اليوم، وتُدعىٰ الآن جبال (أرارات) عند الحدود التركية الإيرانية الأرمنية، ويصل ارتفاعه إلىٰ ٥١٦٥م عن سطح البحر.

﴿وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: بُعداً لهم من الرحمة والمغفرة، فأُغرقوا جميعاً ولم يبق من الكافرين ديّاراً إذ كذّبوا بآيات الله وكانوا عنها عمين.

ولما نضب الماء عن وجه الأرض، وأمكن السعي فيها والاستقرار عليها جاء الأمر لنوحٍ، عليه السلام، من ربّ العالمين أن يهبط من السفينة التي استقرّت علىٰ مرتفع جبل الجودي سالماً مباركاً عليه، وعلىٰ أممٍ ممن سيولد فيما بعد من أولادك. فإن الله لم يجعل لأحدٍ ممن كان معه من المؤمنين نسلاً سوىٰ نوح، عليه السلام، قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلۡبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾. فإن كل من هو علىٰ وجه الأرض اليوم من سائر أجناس بني آدم إنما ينتسبون إلىٰ أولاد نوح الثلاثة، وهم: سام أبو العرب، وحام أبو الحبش، ويافث أبو الروم.

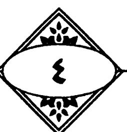
وروىٰ علباء بن أحمر، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: كان مع نوحٍ في السفينة ثمانون رجلاً معهم أهلوهم، وأنهم كانوا في السفينة مائةً وخمسين يوماً و.....

وقال قتادة وغيره: ركبوا في السفينة في اليوم العاشر من شهر رجب، فساروا مائةً وخمسين يوماً، واستقرّت بهم علىٰ جبل الجودي شهراً، وكان خروجهم من السفينة في يوم عاشوراء (العاشر من شهر المحرم). وقد روىٰ ابن جرير خبراً مرفوعاً يوافق هذا، وأنهم صاموا يومهم ذلك.

وعاد نوح، عليه السلام، إلىٰ مكان قومه بعد نهاية الطوفان، ثم اتجه ولده سام إلىٰ جزيرة العرب وكان من ذريته (طسم وجديس) في اليمامة، وقوم عادٍ في الأحقاف، وقد أُرسل إليهم النبيّ (هود)، عليه السلام، وقوم ثمودٍ في وادي القرىٰ إلىٰ الشمال الغربي من المدينة المنورة، وقد أُرسل إليهم النبيّ (صالح)، عليه السلام، ثم (قحطان) في اليمن.

وأما حام بن نوحٍ فقد تابع السير إلىٰ إفريقية، واجتاز البحر الأحمر، وكانت ذريته في إفريقية. وأما يافث بن نوحٍ فقد سار إلىٰ أواسط آسيا، ثم عاد فاتجه إلىٰ أوربا وكان في ذريته الأتراك في آسيا وما تفرّع من عرقهم، والروم في أوربا وما تفرّع منهم.

بُعث نوح، عليه السلام، وله أربعمائة وثمانون سنةً.	**٤٨٠ سنة.**
وبقي يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنةً.	**٩٥٠ سنة.**
وعاش بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين سنةً.	**٣٥٠ سنة.**
فيكون قد عاش ألف سنة وسبعمائة وثمانين سنةً.	**١٧٨٠ سنة.**



هود، عليه السلام

هو هود[١] بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح، عليه السلام.

كان من قوم (عاد) وهو: عاد بن عوص بن سام بن نوح، عليه السلام. وكان أبناء هذا القوم يُقيمون بالأحقاف، وهي مرتفعات من الرمل، وتُطلّ على بحر العرب بأرض يُقال لها: الشِّحر، ووادِيهم يُقال له: مغيث. ويُقيم قوم عادٍ بخيامٍ ذات أعمدةٍ ضخمةٍ، كما قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝﴾ [الفجر].

ويقال: إن هوداً، عليه السلام، أول من تكلّم بالعربية، كما قيل: أبوه. ومعلوم أن الأنبياء من العرب هم أربعة، وهم: هود، صالح، شعيب، محمد صلوات الله عليهم جميعاً.

وسكن قوم عادٍ منطقة الأحقاف. ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝﴾ [الأحقاف].

وإن قوم عاد كانوا أول من عبد الأصنام بعد الطوفان. وكانت لهم ثلاثة أصنامٍ، وهي: صدا، صمودا، هرا.

وقد زادهم بصطةً في الخلقة، وكانوا أشداء سيئي الطباع بطّاشين، عُتاةً أجلافاً، عبدة أصنامٍ كافرين قال تعالىٰ: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ

(١) انظر المصور رقم (١) الصفحة (٢٤٧)، والمصور رقم (٤) الصفحة (٢٥٠).

﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأعراف].

لم يستجب قوم عادٍ لرسولهم وما يدعوهم إليه من عبادة لله وحده، وترك عبادة الأصنام، ويُذكّرهم بالموعظة مما جرىٰ لمن سبقهم من الأقوام، وهم قوم نوح. قال تعالىٰ: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأعراف].

والبلاغ يسلتزم عدم الكذب في أصل المُبلِّغ، وعدم الزيادة فيه وعدم النقص منه، كما يستلزم الأداء بعبارةٍ فصيحةٍ وأسلوبٍ وجيزٍ جامعٍ مانعٍ لا لبس فيه ولا غموض، وبيان لا اختلاف فيه ولا اضطراب.

وقد كان هذا البلاغ علىٰ هذه الصفة من هودٍ، عليه السلام، وإضافةً إلىٰ ذلك فقد تحلّىٰ بغاية النصح لقومه والشفقة عليهم، والحرص علىٰ هدايتهم، وهو لا يبتغي منهم أجراً بل هو مُخلص لله عزّ وجل بالدعوة لما أُمر له، والتبليغ بما طُلب منه، والنصح لخلق الله، يرجو ثواب ربه، فإن خير الدنيا والآخرة كله بيد الله، وأمره إليه قال تعالىٰ: ﴿يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ [هود]. أي: أما لكم عقل تُميّزون به وتفهمون أني دعوتكم إلىٰ الحق المبين الذي تشهد به فطرتكم التي خُلقتم عليها، وهو دين الحق الذي بعث الله به نوحاً، وهلك من خالفه من قومه فاعتبروا يا أولي الألباب، أما لكم عقول تُميّزون بها وتعرفون أني قد دعوتكم إلىٰ الحق المبين الذي تعرفونه بفطرتكم التي جُبلتم عليها.

فأجاب قوم هودٍ كما جاء به كتاب الله «القرآن الكريم»: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ

بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ [هود].

فتحدّىٰ هود، عليه السلام، بعد إجابتهم التي فيها بُعد عن الإيمان، وإصرار علىٰ الكفر، فقال: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود].

كان تحدي هودٍ، عليه السلام، في التبرّؤ من آلهتهم الأصنام، والإنقاص من نظرتهم إليها، وبيان أنها لا تنفع شيئاً ولا يمكنها الإضرار بشيءٍ، وأن شأنها شأن الجماد ومنه القاذورات وعملها لا يزيد علىٰ عمل تلك الأوساخ التي هي من الجمادات في شيءٍ، فإن كانت كما تزعمون تنفع أو تضرّ وأنها تنصر أتباعها علىٰ من يُخالفهم وتُؤذي من يسخر منها، فها أنا أُعلن براءتي منها، وألعنها، وأسخر منكم ومنها، وأعدّ عبادتكم لها ضَعفاً في عقولكم وقصوراً في تفكيركم، فإن كان باستطاعتها عمل شيءٍ وأنتم معها أيضاً، فأجمعوا أمركم وافعلوا ما تسطيعون ولا تُؤخّروني ساعةً واحدةً؛ بل ولا طرفة عينٍ فإني لا أُبالي بكم، ولا أُفكّر فيكم، ولا أنظر إليكم، ولا أهتمّ بأمركم، فقد توكّلت علىٰ الله وأنا مُطّمئن لتأييده وواثق من نصره، وأنه لا يُضيّع من توكّل عليه، ولست أُبالي بمن سواه، ولن أتوكّل إلا عليه، ولا أعبد إلا إياه، ولا أرجع إلىٰ غيره، فافعلوا ما بدا لكم وتصرّفوا كما يحلو لأنفسكم، وأُعلمكم أنكم لن تستطيعوا عمل شيءٍ، والله قد خلقكم، وهو القادر وحده عليكم، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلبٍ ينقلبون.

استبعد الكفار من قوم عادٍ أن يبعث الله بشراً رسولاً كما استبعد ذلك الكفار من بقية الأقوام، كما كذّبوا بالآخرة وعودة الحياة بعد الممات. وظنّوا أن هدف هودٍ، عليه السلام، إنما هو إبعادهم عن آلهتهم ودعوتهم لتركها وترك عبادتها. ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأحقاف].

○ عذاب الكافرين:

كان أوّل ما أصاب قوم عادٍ من العذاب أن انقطع عنهم الغيث مدة ثلاث سنواتٍ، فأصابهم القحط والجدب حتىٰ حلّ بهم الجهد ونزل الشقاء وصاروا بأشد الحاجة إلىٰ الطعام والشراب، وجهدهم الأمر، فطلبوا السقيا فرأوا عارضاً في السماء فظنّوه سُقيا رحمةٍ فإذا هو سُقيا عــذابٍ. ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَـٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأحقاف].

كان أول من أبصر ما في هذه السحابة وعرف أنها ريح فيما يذكرون امرأة من قوم عادٍ يُقال لها: (مهد)، فلما تبيّنت ما فيها صاحت، ثم صُعقت، فلما أفاقت، قالوا: ما رأيتِ يا مهد؟ قالت: رأيت ريحاً فيها شبه النار، أمامها رجال يقودونها.

سخّر الله، سبحانه وتعالىٰ، هذه الريح علىٰ قوم عادٍ سبع ليالٍ وثمانية أيامٍ حسوماً (دائمة) فلم تدع من عادٍ أحداً إلا هلك. أما هود، عليه السلام، ومن معه من المؤمنين فقد اعتزلوا في غرفةٍ واسعةٍ فكان لا يُصيبهم إلا ما تقرّ به الأعين وتلذّ له الأنفس، وأما قومهم فكانت تمرّ عليهم الريح وترمي عليهم الحجارة حتىٰ أصبحوا كأعجاز النخل الخاوية التي لا رؤوس لها، وذلك لأن الريح كانت تأتي إلىٰ أحدهم فتحمله فترفعه في الهواء، ثم تُنكسه علىٰ أُمّ رأسه فتُلقيه علىٰ الأرض فتطيح بالرأس فيبقىٰ جُثّةً دون رأسٍ، فاستمرت علىٰ ذلك سبع ليالٍ وثمانية أيامٍ حسوماً أي: مستمرةً، قيل: كان أولها يوم الجمعة، وقيل: الأربعاء. ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾﴾ [القمر]. وقال تعالىٰ أيضاً: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [فصلت]. وبعض من قال: إن أول هذه الأيام

هو يوم الأربعاء، قال: إن يوم الأربعاء هو يوم نحسٍ مستمر فتشاءم منه، وقد أخطأ بذلك إذ نظر إلىٰ آيةٍ واحدةٍ، ونسي قول الله، سبحانه وتعالىٰ: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ . . . نَّحِسَاتٍ﴾ فالأيام كلها نحسات، وهذا غير صحيح، ولا يقوله أحد، ويقصد بـ(نحسات) مستمرة عليهم.

ويُعرف قوم عادٍ الذين أرسل إليهم النبيّ هود، عليه السلام، باسم عاد الأولىٰ. أما عاد الثانية أو الأخرىٰ فهم بقايا قوم عادٍ في مكة المكرمة.

عن ابن عباس، رضي الله عنهما: أن النبي، صلىٰ الله عليه وسلم، قال: «نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور»[1].

وروىٰ مسلم في «صحيحه»، قال: حدّثنا أبو بكر الطاهر، حدّثنا ابن وهب، قال: سمعت ابن جريج، حدّثنا عن عطاء بن أبي رباح، عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: كان رسول الله، صلىٰ الله عليه وسلم، إذا عصفت الريح، قال: «اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أُرسلت به، وأعوذ بك من شرّها وشرّ ما فيها وشرّ ما أُرسلت به». قالت: وإذا غيّبت السماء تغيّر لونه، وخرج ودخل، وأقبل وأدبر. فإذا أمطرت سُرّي عنه، فعرفت ذلك عائشة، رضي الله عنها، فسألته، فقال: «لعله يا عائشة كما قال قوم عادٍ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾». رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه.

قال الإمام أحمد: حدّثنا هارون بن معروف، أنبأنا عبد الله بن وهب، أنبأنا عمرو ـ وهو ابن الحارث ـ أن أبا النضر حدّثه عن سليمان بن يسار، عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: ما رأيت رسول الله، صلىٰ الله عليه وسلم، مستجمعاً ضاحكاً قط حتىٰ أرىٰ منه

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٠٣٥)، ومسلم (٩٠٠). الصبا: الريح الشرقية، والدبور: الريح الغربية.

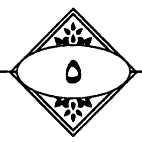
لهاته، إنما كان يبتسم، وقالت: كان إذا رأىٰ غيماً أو ريحاً عُرف ذلك في وجهه، قالت: يا رسول الله! إن الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عُرف في وجهك الكراهية؟ فقال: «يا عائشة! ما يُؤمّنني أن يكون فيه عذاب؟ قد عُذّب قوم بالريح، وقد رأىٰ قوم العذاب فقالوا: هذا عارض ممطرنا»[1].

روي أن قبر هودٍ، عليه السلام، في بلاد اليمن. وذكر آخرون أنه بدمشق، وبجامعها مكان في حائطه القبلي. والله أعلم.

وصحراء الربع الخالي في جنوبي جزيرة العرب من آثار تلك الريح التي أهلكت قوم عاد، وتُعدّ هذه المنطقة من المناطق الجافة في العالم.

---

(١) رواه البخاري: (٤٨٢٩).



صالح، عليه السلام

نبيّ الله صالح[1]، عليه السلام، هو: صالح بن عبيد بن ماسح بن عبيد بن حادر بن ثمود بن عاثر بن إرم بن سام بن نوح، عليه السلام. وهو من قبيلة عُرفت باسم (ثمود) نسبةً إلىٰ جدهم الأعلىٰ ثمود أخي (جديس) رأس قبيلة جديس في اليمامة، وثمود وجديس ابنا عاثر بن إرم بن سام بن نوح، عليه السلام.

كانت قبيلة ثمود تسكن في وادي القرىٰ إلىٰ شمال غربي المدينة المنورة، وعلىٰ بُعد ثمانمائة كيلٍ منها. وتعود إلىٰ سام بن نوحٍ، عليه السلام.

كان قوم ثمودٍ بعد أبناء عمومتهم قوم عادٍ بالأحقاف، وكانوا مثلهم يعبدون الأصنام.

بعث الله، سبحانه وتعالىٰ، إلىٰ قوم ثمودٍ رجلاً منهم هو: صالح، عليه السلام، فدعاهم إلىٰ ترك عبادة الأصنام، وعبادة الله وحده لا شريك له فهو خالقهم وخالق السماوات والأرض، وبيده نواصيهم وملكوت السماوات والأرض، وإليه مرجعهم وحسابهم، وهو الفعّال لما يريد، فآمن فريق منهم وقبِل دعوة نبيّه، وكفر أكثرهم، وبقي علىٰ شركه وكفره ورفض دعوة نبيّه بل وهمّ بقتله، وعقر الناقة التي جعلها الله حُجّةً عليهم، فأخذهم الله أخذ عزيزٍ مقتدرٍ.

قال تعالىٰ: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً

---

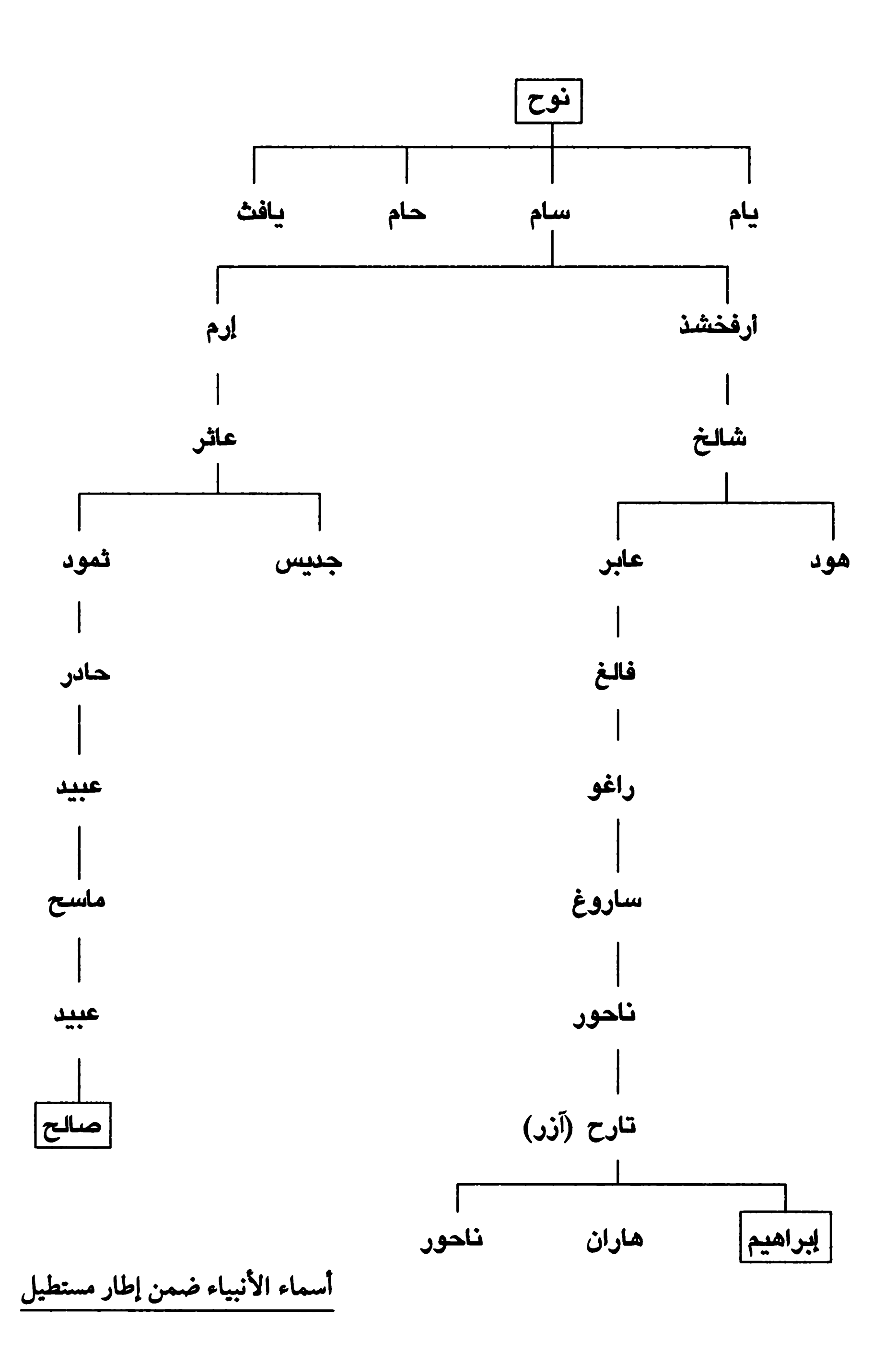
(١) انظر المصور رقم (١) الصفحة (٢٤٧)، والمصور رقم (٤) الصفحة (٢٥٠).

فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟
إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا
قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ
﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ
أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾
قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟
عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾
فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ
أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأعراف].

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا
هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا
تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ
عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى
ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا
شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا
يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ
يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [النمل].

وكثيراً ما يقرن الله في كتابه القرآن بين ذكر قوم عاد وقوم ثمود، وقد أخبر موسىٰ، عليه السلام، بني إسرائيل عن هذين القومين يقول تعالىٰ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ
﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ
بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [إبراهيم].

كانت عاد وثمود من العرب. وكانت أخبار عادٍ معروفة عند ثمودٍ ولكن لم يعتبروا.



<u>أسماء الأنبياء ضمن إطار مستطيل</u>

ذكر المفسّرون أن قوم ثمودٍ اجتمعوا يوماً في ناديهم، فجاء إليهم رسول الله صالح، عليه السلام، فدعاهم إلىٰ الله، وذكّرهم وحذّرهم ووعظهم وأمرهم، فقالوا له: إن أنت أخرجت لنا من هذه الصخرة ـ وأشاروا إلىٰ صخرةٍ هناك ـ ناقةً، من صفتها كذا وكذا، وذكروا أوصافاً سمّوها ونعتوها، وتعنّتوا فيها، وأن تكون عشراء طويلةً، من صفتها كيت وكيت، فقال لهم النبي صالح، عليه السلام: أرأيتم إن أجبتكم إلىٰ ما سألتم، علىٰ الوجه الذي طلبتم، أتؤمنون بما جئتكم به وتُصدّقوني فيما أُرسلت به؟ قالوا: نعم. فأخذ عهودهم ومواثيقهم علىٰ ذلك.

ثم قام إلىٰ مصلّاه، فصلّىٰ لله عزّ وجلّ ما قُدّر له، ثم دعا ربّه عزّ وجلّ أن يُجيبهم إلىٰ ما طلبوا، فأمر الله عزّ وجلّ تلك الصخرة أن تنفطر عن ناقةٍ عظيمةٍ عشراء، علىٰ الوجه المطلوب الذي طلبوا، أو علىٰ الصفة التي نعتوا.

فلما عاينوها كذلك، رأوا أمراً عظيماً، ومنظراً هائلاً، وقدرةً باهرةً، ودليلاً قاطعاً، وبرهاناً ساطعاً، فآمن كثير منهم، واستمرّ أكثرهم علىٰ كفرهم وضلالهم وعنادهم. ولم يتّبعوا الحق بعد أن رأوا القدرة الخارقة.

كان رئيس الذين آمنوا: جندع بن عمرو بن محلاة بن لبيد بن جواس، وكان من رؤسائهم، وهمّ بقية الأشراف بالإسلام. فصدّهم ذؤاب بن عمرو بن لبيد، والحباب صاحب أوثانهم، ورباب بن صعر بن جلمس.

دعا جندع ابن عمه شهاب بن خليفة، وكان من أشرافهم، فهمّ بالإسلام فنهاه أولئك، فمال إليهم. فقال في ذلك رجل من الذين آمنوا يقال له: مهرش بن غنمة بن الذميل، رحمه الله:

وكانت عصبة من آل عمروٍ ... إلىٰ دين النبيّ دعوا شهابا
عزيز ثمودٍ كلهم جميعاً ... فهمّ بأن يُجيب ولو أجابا
لأصبح صالح فينا عزيزاً ... وما عدلوا بصاحبهم ذؤابا
ولكنّ الغُواة من آل حجرٍ ... تولّوا بعد رشدهم ربابا

ولهذا قال لهم النبي صالح، عليه السلام: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ أضافها لله سبحانه وتعالىٰ إضافة تشريفٍ وتعظيمٍ، كقوله: بيت الله، عبد الله. ﴿لَكُمْ ءَايَةً﴾ أي: دليلاً علىٰ صدق ما جئتكم به ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ [هود: ٦٤].

فاتفق الحال علىٰ أن تبقىٰ هذه الناقة بين أظهرهم ترعىٰ حيث شاءت من أرضهم، وترد الماء يوماً بعد يومٍ، وكانت إذا وردت الماء تشرب ماء البئر يومها ذاك، وترد الماء يوماً ولا ترده في اليوم التالي، فكان السكان يرفعون حاجتهم من الماء في يومهم لغدهم، قال تعالىٰ: ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾﴾ [الشعراء].

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾﴾ [القمر]. فما كانت هذه الناقة إلا اختباراً لهم فهل يُؤمنون أم يستمرّون علىٰ كفرهم وعنادهم؟ والله أعلم بما يفعلون، فانتظر يا نبيّ الله ما يكون من أمرهم، واصطبر علىٰ أذاهم فسيأتيك الخبر جلياً بيّناً.

فلما طالت عليهم الحال، اجتمع أمرهم واتفق رأيهم علىٰ أن يعقروا هذه الناقة ليرتاحوا منها ومن أخذها الماء، وزيّن لهم الشيطان أعمالهم فعقروا الناقة، وقالوا: يا صالح، افعل ما بدا لك، وائتنا بما تعدنا إن كنت كما تدعي أنك مرسل من الله. قال تعالىٰ: ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟[1] عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأعراف].

وكان الذي تولّىٰ قتل الناقة منهم رئيسهم: قدار بن سالف بن جندع، وكان أحمر أزرق أصهب. وكان يقال: إنه ولد زانيةٍ، ولد علىٰ فراش سالف بن جندع، وهو من رجلٍ يُقال له: صيبان. وكان فعله ذلك باتفاق جميعهم، فلهذا نُسب الفعل إليهم كلهم.

---

(١) عتوا: استكبروا وتجاوزوا حدودهم.

وذكر ابن جرير الطبري وغيره من المفسرين: أن امرأتين من ثمود، اسم إحداهما: صدوقة بنت المحيا بن زهير بن المختار. وكانت ذات حسبٍ ومالٍ، وكانت تحت رجلٍ ممن أسلم ففارقته، فدعت ابن عمٍّ لها يقال له: مصرع بن مهرج بن المحيا، وعرضت عليه نفسها إن هو عقر الناقة. واسم الأخرىٰ: عنيزة بنت غنيم بن مجلز، وتُكنىٰ أم عثمان، وكانت عجوزاً كافرةً، لها بنات من زوجها ذؤاب بن عمرو بن لبيد أحد الرؤساء، فعرضت بناتها الأربع علىٰ قدار بن سالف، إن هو عقر الناقة فله أيّ بناتها شاء، فانتُدب هذان الشابان لعقرها، وسعوا في قومهم لذلك، فاستجاب لهم سبعة آخرون فصاروا تسعةً، وهم المراد بهم في قوله تعالىٰ: ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [النمل]. وسعوا في بقية المدينة وحسّنوا لهم عقرها، فأجابوهم إلىٰ ذلك وطاوعوهم في ذلك. فانطلقوا يرصدون الناقة، فلما صدرت من وِردها، كمن لها مصرع فرماها بسهمٍ فانتظم عظم ساقها، وجاء النساء يذمرن القبيلة في قتلها، وحسرن عن وجوههن ترغيباً لهم في ذلك فابتدرهن (قدار بن سالف)، فشدّ عليها بالسيف فكشف عن عرقوبها، فخرّت ساقطةً إلىٰ الأرض، ورغت رغاةً واحدةً عظيمةً تحذر ولدها، ثم طعن في لُبّتها فنحرها، وانطلق سقبها ـ وهو فصيلها ـ فصعد جبلاً منيعاً ورغا ثلاثاً.

وروىٰ عبد الرزاق، عن معمر، عمن سمع الحسن أنه قال: يا ربّ! أين أمي؟ ثم دخل في صخرةٍ فغاب فيها. ويقال: بل اتّبعوه فعقروه أيضاً.

وقال محمد بن إسحاق: حدثني يزيد بن محمد بن خيثم، عن محمد بن كعب، عن محمد بن خيثم بن يزيد، عن عمار بن ياسر، قال: قال رسول الله، صلىٰ الله عليه وسلم، لعليّ: «ألا أُحدّثك بأشقىٰ الناس؟» قال: بلىٰ. قال: «رجلان، أحدهما: أحيمر ثمود الذي عقر الناقة، والذي يضربك يا عليّ علىٰ هذا ـ يعني: قرنه ـ حتىٰ تبتل منه هذه ـ يعني: لحيته ـ».

وذكروا أنهم لما عقروا الناقة كان أول من سطا عليها قدار بن سالف، لعنه الله، فعرقبها فسقطت إلىٰ الأرض، ثم ابتدروها بأسيافهم يقطعونها، فلما عاين ذلك سقبها ـ وهو ولدها ـ شرد عنهم فعلا أعلىٰ الجبل هناك، ورغا ثلاث مراتٍ.

﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾ [هود]. أي: غير يومهم ذلك، فلم يُصدّقوه أيضاً في هذا الوعد الأكيد، بل عندما أمسوا همّوا بقتله، وأرادوا ـ فيما يزعمون ـ أن يُلحقوه بالناقة. ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [النمل]. أي: لنكبسنّه في داره مع أهله، ثم لنجحدنّ قتله، ولننكرنّ ذلك إن طالبنا أولياؤه بدمه.

وقال الله تعالىٰ: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [النمل].

وذلك أن الله تعالىٰ أرسل علىٰ أولئك النفر الذين قصدوا قتل النبي صالح، عليه السلام، حجارةً رضختهم فأهلكهم سلفاً وتعجيلاً قبل قومهم، وأصبحت ثمود يوم الخميس ـ وهو اليوم الأول من أيام المتاع الثلاثة ـ ووجوههم مصفّرة، كما أنذرهم النبيّ صالح، عليه السلام، فلما أمسوا نادوا بأجمعهم: ألا قد مضىٰ يوم من الأجل، ثم أصبحوا في اليوم الثاني من أيام التأجيل ـ وهو يوم الجمعة ـ ووجوههم محمّرة، فلما أمسوا نادوا: ألا قد مضىٰ يومان من الأجل. ثم أصبحوا في اليوم الثالث من أيام المتاع ـ وهو يوم السبت ـ ووجوههم مسودّة، فلما أمسوا نادوا: ألا قد مضىٰ الأجل.

فلما كان صبيحة يوم الأحد تأهّبوا وقعدوا ينتظرون ماذا يحلّ بهم من العذاب والنكال، لا يدرون ما يُفعل بهم ولا كيف يتمّ ذلك؟ ولا من أيّ جهةٍ يأتيهم العذاب.

فلما أشرقت الشمس جاءتهم صيحة من السماء من فوقهم، ورجفة من أسفل منهم، ففاضت الأرواح وزهقت النفوس، وسكنت الحركات، وخشعت الأصوات، وحقّت الحقائق فأصبحوا في دارهم جاثمين، جثثاً لا أرواح فيها ولا حراك بها. قالوا: ولم يبق منهم أحد إلا جارية كانت مقعدةً واسمها (كلبة بنت السلق) ـ ويقال لها: الذريعة ـ وكانت شديدة الكفر والعداوة للنبيّ صالح، عليه السلام، فلما رأت العذاب أطلقت رجلاها، فقامت تسعىٰ كأسرع شيءٍ، فأتت حيّاً من العرب، فأخبرتهم بما رأت وما حلّ بقومها واستسقتهم ماءً، فلما شربت ماتت.

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، حدثنا عبد الله بن عثمان بن خُثيم، عن أبي الزبير، عن جابر قال: لما مرّ رسول الله، صلىٰ الله عليه وسلم بالحجر قال: «لا تسألوا الآيات فقد سألها قوم صالح فكانت ـ يعني: الناقة ـ ترد من هذا الفجّ وتصدر من هذا الفجّ، فعتوا عن أمر ربهم فعقروها. وكانت تشرب ماءهم يوماً ويشربون لبنها يوماً، فعقروها، فأخذتهم صيحة أهمد الله بها مَن تحت أديم السماء منهم إلا رجلاً واحداً كان في حرم الله». فقالوا: من هو يا رسول الله؟ قال: «هو أبو رغال، فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه».

وهذا الحديث علىٰ شرط مسلم وليس هو في شيء من الكتب الستة. والله تعالىٰ أعلم.

وقد قال عبد الرزاق أيضاً: قال معمر: أخبرني إسماعيل بن أمية، أن النبيّ، صلىٰ الله عليه وسلم، مرّ بقبر أبي رغال، فقال: «أتدرون من هذا؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «هذا قبر أبي رغالٍ، رجل من ثمود، كان في حرم الله فمنعه حرم الله عذاب الله، فلما خرج أصابه ما أصاب قومه فدُفن هاهنا، ودُفن معه غصن من ذهب»، فنزل القوم فابتدروه بأسيافهم، فبحثوا عنه، فاستخرجوا الغصن. قال عبد الرزاق: قال معمر: قال الزهري: أبو رغال أبو ثقيف. . . . هذا مرسل من هذا الوجه.

وقد جاء من وجهٍ آخر متصلاً كما ذكر محمد بن إسحاق في «السيرة» عن إسماعيل بن أمية، عن بجير بن أبي بجير، قال: سمعت عبد الله بن عمر يقول: سمعت رسول الله، صلىٰ الله عليه وسلم، حين خرجنا معه إلىٰ الطائف، فمررنا بقبرٍ، فقال: «إن هذا قبر أبي رغال، وهو أبو ثقيف، وكان من ثمود، وكان بهذا الحرم يدفع عنه، فلما خرج منه أصابته النقمة التي أصابت قومه بهذا المكان فدفن فيه، وآية ذلك أنه دفن معه غصن من ذهبٍ، إن أنتم نبشتم عنه أصبتموه معه». فابتدره الناس، فاستخرجوا منه الغصن.

وخاطب النبي صالح، عليه السلام، قومه بعد هلاكهم، وغادر محلهم إلىٰ غيره: لقد جهدت في هدايتكم بإمكاناتي كلها، وحرصت علىٰ ذلك بقولي وفعلي ونيّتي، ولكنكم لم تقبلوا ذلك، فلهذا صرتم إلىٰ ما أنتم عليه من العذاب الأليم الذي ستبقون عليه إلىٰ الأبد، وليس لكم فيه حيلة، ولا أستطيع دفعه عنكم. والذي وجب عليّ من أداء الرسالة والنصح لكم قد فعلته وبذلته لكم، ولكن الله يفعل ما يريد.

ويقال: إن النبيّ صالحاً، عليه السلام، انتقل إلىٰ حرم الله فأقام به حتىٰ مات.

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا صخر بن جويرية، عن نافع، عن ابن عمر قال: لما سار رسول الله، صلىٰ الله عليه وسلم، بالناس إلىٰ تبوك، نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود، فاستقىٰ الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود، فعجنوا منها ونصبوا القدور، فأمرهم رسول الله، صلىٰ الله عليه وسلم، فأهرقوا القدور، وعلفوا العجين الإبل، ثم ارتحل بهم، حتىٰ نزل بهم علىٰ البئر التي كانت تشرب منها الناقة، ونهاهم أن يدخلوا علىٰ القوم الذين عُذّبوا، فقال: «إني أخشىٰ أن يُصيبكم مثل ما أصابهم، فلا تدخلوا عليهم».

وقال أحمد أيضاً: حدثنا عفان، حدثنا عبد العزيز بن مسلم، حدثنا

عبد الله بن دينار، عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله، صلىٰ الله عليه وسلم، وهو بالحجر: «لا تدخلوا علىٰ هؤلاء المعذّبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم، خشية أن يصيبكم مثل ما أصابهم»[1].

وفي بعض الروايات: أن رسول الله، صلىٰ الله عليه وسلم، لما مرّ بمنازلهم قنع رأسه، وأسرع راحلته، ونهىٰ عن دخول منازلهم، إلا أن يكونوا باكين. وفي روايةٍ: «فإن لم تبكوا، فتباكوا خشية أن يصيبكم مثل ما أصابهم».

وقد ذُكر أن قوم صالح كانت أعمارهم طويلةً.

(١) أخرجاه في «الصحيحين».



إبراهيم، عليه السلام

إبراهيم، عليه السلام، ابن تارح بن ناحور بن ساروغ بن راغو بن فالغ بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح، عليه السلام.

وكانت أعمار الخلق في تلك الأيام تُعدّ طويلةً بالنسبة إلىٰ أعمارهم في هذه الأيام. فمثلاً:

عاش نوح، عليه السلام.	**١٧٨٠ سنة.**
سام	**٦٠٠ سنة.**
أرفخشذ	**٤٣٨ سنة.**
شالخ	**٤٣٣ سنة.**
عابر	**٤٦٤ سنة.**
فالغ	**٤٣٩ سنة.**
راغو	**٢٣٩ سنة.**
ساروغ	**٢٣٠ سنة.**
ناحور	**١٤٨ سنة.**
تارح (آزر)	**٢٥٠ سنة.**
إبراهيم، عليه السلام.	**١٧٥ سنة.**

ذكر ابن عساكر في ترجمة إبراهيم الخليل أن اسم أم إبراهيم (أميلة). وقال الكلبي: اسمها (بونا)، بنت كربتا بن كرثي، من بني أرفخشذ بن سام بن نوح، عليه السلام.

كان عمر (تارح) والد إبراهيم خمساً وسبعين سنةً عندما أنجب الأبناء. وهم: هاران، وإبراهيم، وناحور، وكان إبراهيم، عليه السلام،

هو الولد الأوسط له، وقد مات (هاران) في حياة أبيه، وقد أنجب (لوطاً) عليه السلام.

وُلد إبراهيم، عليه السلام، في بلاد الكلدانيين في جنوبي العراق، وهي أرض بابل، وكان يكنىٰ، عليه السلام، أبا الضيفان. واتخذه الله خليلاً في كبره بعد حمله الرسالة، وعمله بدعوة قومه إلىٰ عبادة الله، فعُرف بعدها باسم (الخليل).

تزوج إبراهيم، عليه السلام، (سارة) ابنة عمه (هاران) الذي كان يحكم جزءاً من الجزيرة الفراتية باسم ملك بابل من الكلدانيين، ويقيم في مدينة حرّان التي نُسبت إليه (هاران)، وتقع هذه المدينة علىٰ نهر البليخ أحد روافد نهر الفرات، ويرفده قرب مدينة (الرقة) السورية، أما حرّان فتقع في جنوبي تركيا اليوم. و(هاران) اسم يحمله عمّ إبراهيم، وأخو إبراهيم. وكانت (سارة) زوجة إبراهيم عاقراً، أي: لا تُنجب.

كان الكلدانيون يعبدون الكواكب والأصنام وكذا المناطق التي تخضع لسلطانهم وتتبعهم، ومنها مدينة حرّان.

وكان تارح (آزر) والد إبراهيم الخليل، عليه السلام، ممن يعبد الأصنام، وينحتها أحياناً، فلما بعث الله رسولاً هو إبراهيم ولد آزر ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الأنبياء].

فكان إبراهيم، عليه السلام، أول الذين دعاهم إلىٰ الإيمان هو أبوه آزر لأنه أولىٰ الناس به وبدعوته إلىٰ الخير والحقّ. ﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾ [الأنعام] ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى

مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾ [مريم]. دعا إبراهيم، عليه السلام، أباه بكلامٍ لطيفٍ وأسلوبٍ رقيقٍ مبيّناً أن هذه الأصنام لا تسمع دعاء الذين يُكلّمونها، ولا ترىٰ ما يُحيط بها، ولا تحسّ بما يقع عليها فكيف يمكنها أن تُغني شيئاً عن الذين يعبدونها أو تدفع عنهم أمراً، أو تُحقّق لهم نصراً، أو تجلب لهم نفعاً، كما يوضح لأبيه أنه وإن كان صغيراً أمام أقران أبيه وسادة القوم، وأقلّ خبرةً منهم، ولكن الله قد وهبه العلم النافع والهدىٰ الواضح، وهذا لم يُعطه لغيره، لذا يطلب منه أن يتبعه فإن وافق علىٰ ذلك نال الخير في الدنيا والآخرة. ولكن الأب لم يقبل هذه الدعوة بل لم يأبه بها وإنما تهدّده وتوعّده ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَۖ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾﴾ أي: لأقتلنك أو سر في طريقك فإني لا أُريد أن أراك بعد الآن. فأجاب إبراهيم، عليه السلام، أباه: إنه لن يصلك مكروه مني، ولن ينالك أذىً من جهتي بل سأعمل جاهداً لترىٰ مني خيراً، إذ سأطلب من ربي أن يغفر لك فيما أقدمت عليه، فإن ربي لطيف بي إذ هداني لعبادته والإخلاص له في تلك العبادة ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾ [مريم]. وسأعتزلكم، وأعتزل تلك الأصنام التي تدعونها وتعبدونها من دون الله، وسأدعو ربي وأخلص الدعوة لربي وأخصّه بالعبادة وأرجو ألا أكون مُقصّراً بعبادته، فهو الذي خلقني وهداني للحق، وأرشدني إلىٰ الطريق المستقيم.

وقد استغفر إبراهيم، عليه السلام، لأبيه كما وعده، ولكن ظهر له أن أباه عدوّ لله إذ يُشرك به فيعبد الأصنام ويعمل في صنعها، فلما ظهر له ذلك، وأن الإحسان لم يصلح له، وأن الدعاء لم ينفعه تبرّأ عندها منه. قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة].

وقال البخاري: حدّثنا إسماعيل بن عبد الله، حدّثني أخي عبد الحميد، عن ابن أبي ذئب، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة، عن النبيّ، صلىٰ الله عليه وسلم، قال: «يلقىٰ إبراهيم أباه آزر يوم القيامة، وعلىٰ وجه آزر قترة[1] وغبرة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصني؟ فيقول له أبوه: فاليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم: يا رب، إنك وعدتني أن لا تخزيني يوم يبعثون، فأيّ خزيٍّ أخزىٰ من أبي الأبعد؟ فيقول الله: إني حرّمت الجنّة علىٰ الكافرين، ثم يقال: يا إبراهيم انظر ما تحت رجليك؟ فينظر، فإذا هو بذبحٍ متلطخٍ، فيؤخذ بقوائمه فيُلقىٰ في النار».

وعاد إبراهيم الخليل، عليه السلام، لحوار قومه وجدالهم، وبيّن لهم ما هم عليه من الضلال المبين، قال الله تعالىٰ: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنبياء].

---

(١) قترة: شبه دخان يغشى الوجه من همٍّ أو خوفٍ عظيم.

وقال تعالىٰ: ﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الصافات].

بعد أن أنكر إبراهيم الخليل، عليه السلام، عبادة الأصنام وأظهرها لهم أنها حقيرة صغيرة لا وزن لها ولا قيمة إذ لا تنفع ولا تضرّ، ولا تنصر ولا تدفع شراً، وأنكم بأيديكم تصنعونها، فما هي أمام خالق السماوات والأرض، فكان جوابهم وكانت حجتهم أن هذا صنيع الآباء والأجداد، وقد رأيناهم علىٰ ذلك، وما تماثيلنا سوىٰ شبيهةٍ بتماثيل الآباء والأجداد، وعبادتنا كعبادتهم.

رأىٰ إبراهيم الخليل، عليه السلام، أن الحوار لا يُجدي والجدال لا يُفيد، ولا بدّ من دروسٍ عمليةٍ وتوضيحاتٍ تطبيقيةٍ. فانتظر حتىٰ جاء عيد لهم حيث يخرجون إلىٰ البرّ ويقومون ببعض الألعاب ويُقدّمون بعض الاستعراضات. وكانوا في اجتماعٍ لهم وهو وأبوه معهم فسألهم: ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون؟ قالوا: وجدنا آباءنا لها عابدين. قال: لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلالٍ مُبينٍ. وقرّر أن يُحطّم أصنامهم أثناء غيابهم ليبرهن لهم عملياً أن هذه التماثيل التي يعبدونها لا يمكنها أن تدفع عن نفسها شراً يُراد بها، فهي إذن لا تنفعهم ولا تضرّهم، وبالتالي لا يمكنها أن تدفع عنهم شرّاً يُراد بهم. ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾﴾ كعادتهم عندما يريدون أمراً حيث يعبدون الكواكب ﴿فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ ليبرّر لنفسه الغياب عن حضور العيد معهم، فلما سمعوا منه أنه سقيم، تركوه، وانصرفوا عنه متجهين إلىٰ مكان عيدهم، فابتعدوا عن أصنامهم فخلا الجو

لإبراهيم الخليل، عليه السلام، فأخذ فأساً وسار إلىٰ موضع عرض التماثيل، وأخذ بتكسير تلك التماثيل حتىٰ جعلها جُذاذاً ـ قطعاً صغيرة ـ ولكن ترك أكبرها لم يُحطّمه بل تركه كما هو، بل وعلّق الفأس علىٰ رقبة ذلك التمثال، ورجع إبراهيم إلىٰ منزله.

انتهىٰ الكفار من عيدهم ولهوهم، وعادوا إلىٰ منازلهم آيبين، فمرّوا في طريقهم علىٰ آلهتهم من الأصنام يتقرّبون إليها ويتمسّحون، ويُسرون بمنظرها ويفرحون فإذا هي جذاذ ملقاة علىٰ الأرض لا أصنام ولا أحجار؛ إلا الصنم الكبير لا يزال منصوباً وعلىٰ رقبته فأسٌ مُعلّق بها، فأخذهم الهلع، وأصابهم الجزع ﴿قَالُواْ مَن فَعَلَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾﴾، وشردوا بأذهانهم يُفكّرون عن أعداء لهم، ويبحثون عن كائدين لهم، فلم تُرشدهم عقولهم إلىٰ عدوٍّ معروفٍ، ثم توقّف بعضهم شارداً وكأنه قد وقف ذهنه علىٰ خصمٍ، ووصل إلىٰ العدوّ، وعرف الفاعل. ﴿قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ فما أن سمع الكفار اسم إبراهيم حتىٰ توقّفوا عن التفكير وصرخ كبارهم ﴿قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾﴾. فتعالت صيحات من أكثرهم: نعم هو الظالم، هو العدوّ، هو..... وأسرع الكبار نحو بيت إبراهيم الخليل، عليه السلام، وأسرع الأتباع، وهرول الناقمون الذين سمعوا دعوة الخليل و.... فوجدوه في بيته فساروا به إلىٰ موضع الأصنام فلما وصلوا به هدأت الأصوات، وسكنت الأقدام، وترقّبت الأسماع، واتجهت الأنظار إلىٰ إبراهيم الخليل، عليه السلام، وقال كبير القوم مخاطباً: ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾. تكلّم الخليل بثقةٍ، وتابع أما ترون الفأس لا يزال معه؟ لماذا لم يبق إلا هو؟ أليس هو الفاعل؟ ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾. تكلّم إبراهيم قول حقٍ، وأنتم تظلمونه. ﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَـٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾﴾ أرخوا رؤوسهم مُفكّرين،

ثم قالوا لأنفسهم: كيف نسألهم وهم لا يتكلّمون؟ كيف يقتلهم كبيرهم ويستعمل الفأس وهو لا يتحرّك أبداً؟ ما عرفنا منهم نطقاً ولا حركةً فكيف نسألهم ونتهمهم بالحركة؟ وإن سألناهم فإننا نكون قد كذبنا علىٰ أنفسنا وضحكنا عليها، وفي الوقت نكون قد صدّقنا كلام إبراهيم، ونحن نُكذّبه بكل ما يقول، ولا نُؤمن بشيءٍ ينطق به، فما هي إلا حيلة علينا وضحك!!!! كما أننا كنا ظالمين لهذه الآلهة بتركها دون حراسةٍ وحمايةٍ، فصدر كلام مجموعة منهم وكأنهم يتكلمون جميعاً فقالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾. شعر إبراهيم الخليل، عليه السلام، أنه قد خطا خطوةً جيدةً في طريق الدعوة ما دام قومه قد وصلوا إلىٰ أن هذه الأصنام لا تنطق وما دامت لا تنطق ولا تتحرّك فهي لا تنفع ولا تضرّ، ولا تُقدّم أي خيرٍ لهؤلاء الجهلة العابدين لها. ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾. فأخذتهم الكبرياء، ووقع الحسد في نفوسهم، وتذكّروا عبادتهم لأصنامهم، وكراهيتهم لإبراهيم الخليل، عليه السلام، فاشتعلت نار الأحقاد الماضية ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾﴾. وأخذوا في جمع الحطب، وبقوا مدةً في الجمع ليكون الحطب كثيراً ولتتأجّج النار فلا تترك أثراً مما في جوفها من حطبٍ أو مخلوقاتٍ إذا أُلقيت فيها، وشارك بجمع الحطب أكثر القوم إذ عدّوا ذلك واجباً لنصرة آلهتهم ودعم ساداتهم حتىٰ أن المرأة منهم كانت إذا مرضت تنذر لئن عوفيت لتحملنّ حطباً لإحراق إبراهيم. ثم عمدوا إلىٰ حفرةٍ واسعةٍ فجمعوا فيها ذلك الحطب، وأشعلوا فيه النار، فاضطربت وتأجّجت والتهبت فارتفع اللهب وعلا لها شرر لم يُر مثله قط فيما عُرف من نيران.

صنع للكلدانيين رجل يقال له: (هيزن) وهو من شمالي العراق اليوم صنع لهم منجنيقاً، ويقال عن هذا الرجل: إنه أول من صنع المنجنيق. وكان عاقبته فيما ذُكر أن خسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلىٰ يوم القيامة.

أما إبراهيم الخليل، عليه السلام، فقد أُخذ وقُيّد، فكان يقول ـ وهم يُقيّدونه ـ: لا إلٰه إلا أنت سبحانك ربّ العالمين، لك الحمد ولك الملك، لا شريك لك. ووُضع بعد أن قُيّد في كفة المنجنيق وأُلقي في النار من بعيدٍ، إذ يصعُب الاقتراب منها لشدّة حرارتها وقوة لهبها، فقال عليه السلام: حسبنا الله ونعم الوكيل. كما روىٰ البخاري عن ابن عباس، رضي الله عنهما.

ويروىٰ عن ابن عباس، وسعيد بن جبير أنه قال: جعل مَلَك المطر يقول: متىٰ أؤمر فأُرسل المطر؟ فكان أمر الله أسرع ﴿قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنبياء]. أي: لا تُؤذيه، فلم تحرق النار شيئاً ما يتعلّق بإبراهيم، عليه السلام، سوىٰ وثاقه إذ غدا حُرّاً بعد أن كان مُقيّداً، وشعر براحةٍ وسعادةٍ مع أن النار كانت تحيط به ولكن لم تُؤذِ منه شيئاً.

وعن المنهال بن عمرو أنه قال: أُخبرت أن إبراهيم مكث هناك إما أربعين وإما خمسين يوماً، وأنه قال: ما كنت أياماً وليالي أطيب عيشاً إذ كنت فيها، وودت أن عيشي وحياتي كلها مثلما كنت فيها.

وعن أبي هريرة أنه قال: أحسن كلمةٍ قالها أبو إبراهيم، إذ قال لما رأىٰ ولده علىٰ تلك الحال: نِعْمَ الربّ ربّك يا إبراهيم.

أراد الكفار أن ينتصروا فخُذلوا، وأرادوا أن يرتفعوا فجُعلوا وضيعين، وأرادوا أن يغلبوا فغُلبوا.

قال تعالىٰ: ﴿وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنبياء]. وفي آيةٍ أخرىٰ: ﴿فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الصافات]. فجاءتهم الخسارة ونالوا الصَّغار في الحياة الدنيا، وأما في الآخرة فلهم عذاب مهين، وهم في جهنم خالدين وليس لهم من مخرج.

قال البخاري: حدثنا عبيد الله بن موسىٰ ـ أو ابن سلام عنه ـ أخبرنا ابن جريج عن عبد الحميد بن جبير عن سعيد بن المسيب عن أم شريك، رضي الله عنها: (أن رسول الله، صلىٰ الله عليه وسلم، أمر بقتل

الوَزَغ، وقال: كان ينفخ علىٰ إبراهيم، عليه السلام)[1].

ورواه مسلم من حديث ابن جريج. وأخرجه النسائي وابن ماجه من حديث سفيان بن عيينة، كلاهما عن عبد الحميد بن جبير بن شيبة.

وقال أحمد: حدثنا محمد بن بكر، حدثنا ابن جريج، أخبرني عبد الله بن عبد الرحمٰن بن أبي أمية، أن نافعاً مولىٰ عبد الله بن عمر أخبره أن عائشة، رضي الله عنها، أخبرته، أن رسول الله، صلىٰ الله عليه وسلم، قال: «اقتلوا الوزغ، فإنه كان ينفخ النار علىٰ إبراهيم». قال: فكانت عائشة، رضي الله عنها، تقتلهن.

وقال أحمد أيضاً: حدثنا إسماعيل، حدثنا أيوب، عن نافع، أن امرأةً دخلت علىٰ عائشة، رضي الله عنها، فإذا رمح منصوب، فقالت: ما هذا الرمح المنصوب؟ فقالت: نقتل به الأوزاغ، ثم حدّثت عن رسول الله، صلىٰ الله عليه وسلم: «أن إبراهيم لما أُلقي في النار جعلت الدوابّ كلها تُطفئ عنه إلا الوَزَغ، فإنه جعل ينفخها عليه».

تفرّد به الإمام أحمد من هذين الوجهين.

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدّثنا عفان، حدّثنا جرير، حدّثنا نافع، حدّثتني سمامة مولاة الفاكه بن المغيرة، قالت: دخلت علىٰ عائشة، رضي الله عنها، فرأيت في بيتها رمحاً موضوعاً، فقلت: يا أم المؤمنين! ما تصنعين بهذا الرمح؟ قالت: هذا لهذه الأوزاغ نقتلهنّ به، فإن رسول الله، صلىٰ الله عليه وسلم، حدّثنا: «أن إبراهيم، عليه السلام، حين أُلقي في النار لم يكن في الأرض دابّة إلا تُطفئ عنه النار، غير الوزغ فكان ينفخ عليه» فأمرنا رسول الله، صلىٰ الله عليه وسلم، بقتله. ورواه ابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن يونس بن محمد، عن جرير بن حازم.

كان ملك بابل أيام إبراهيم الخليل، عليه السلام، يُدعىٰ (النمرود)

---

(١) البخاري: (٣٣٥٩). الوزغ: حشرة سامة برصاء (برصوص. أبو بريص).

وله السيطرة والتسلّط علىٰ مناطق واسعةٍ، واسمه: النمرود بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح، عليه السلام، قاله مجاهد. وقال غيره: نمرود بن فالح بن عابر بن صالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح، عليه السلام. وقيل: إنه استمرّ في ملكه أربعمائة سنةٍ. وكان قد طغىٰ وبغىٰ، وتجبّر وعتا، وآثر الحياة الدنيا[1].

○ مناظرة إبراهيم الخليل، عليه السلام، للنمرود ملك بابل:

دعا إبراهيم الخليل النمرود إلىٰ عبادة الله، وحده لا شريك، وبيّن له أن الله يُحيي ويميت وهو خالق السماوات والأراضي وما فيهن، فأخذت العزّة النمرود واستعلىٰ وتجبّر ووضع نفسه في موضع الربوبية وقال: أنا أُحيي وأُميت، ويعني أنه لو أُتي إليه باثنين من المجرمين فيمكنه أن يعفو عن أحدهما فيبقىٰ علىٰ قيد الحياة، ويأمر بقتل الآخر فيورده مورد الهلاك وبذا ـ حسب زعمه ـ ادّعىٰ الألوهية إذ بيد الله الحياة والموت لذا قال: ﴿أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ﴾، فحاجّه الخليل، عليه السلام، إن كنت تدّعي هذا الادّعاء فافعل بما يخالف إرادة الله المعروفة للخلق جميعاً، فقال ما ذكر الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ﴾. أي: هذه الشمس مسخرةً تطلُع كل يومٍ من المشرق كما سخّرها خالقها ومسيّرها، وهو الذي لا إلٰه إلا هو خالق كل شيءٍ، فإن كنت كما زعمت تُحيي وتميت فأتِ بهذه الشمس من المغرب، فإن الذي يُحيي ويُميت هو الذي يفعل ما يشاء، ولا يُمانع ولا يُغالب، بل قهر كل شيءٍ ودان له كل شيءٍ، فإن كنت كما تزعم فافعل هذا، فإن لم تفعل فلست كما زعمت. وأنت تعلم وكل إنسانٍ يعلم أنك لا تقدر علىٰ شيءٍ من هذا، بل أنت أعجز وأضعف من أن تخلق بعوضةً بل إن البعوضة إن سلبت منك شيئاً لا تستطيع أن تُنقذه منها، ضعُف الطالب والمطلوب.

---

(١) «قصص الأنبياء»: ابن كثير.

لم يبق للنمرود كلام يُجيب به فسكت، وظهر ضلاله وجهله وكذبه فيما يدّعي، وبطلانه فيما يتبجّح به عند جهلة قومه، قال تعالىٰ: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

○ هجرة الخليل[1]:

لم يكن قد آمن مع الخليل، عليه السلام، سوىٰ زوجته (سارة) وكانت عاقراً، ولوط ابن أخيه هاران بن تارح (آزر)، لذا لم يكن هناك من قوةٍ له تحميه وتُدافع عنه، وقد خاف تارح (آزر) علىٰ ولده إبراهيم الخليل، عليه السلام، رغم خلافه معه حيث لم يُؤمن، ولكن وُجد أثر لعاطفة الأبوة وخاصة بعد أن أُلقي ولده في النار ونجا منها وبعد أن ناظر النمرود وحاجّه فخشي (تارح) أن يعمل النمرود علىٰ قتل إبراهيم، ثم كان هلاك النمرود، فخاف تارح أن يعمل الكلدانيون قوم النمرود علىٰ الانتقام من إبراهيم الخليل، لذا رحل (تارح) مع ولده إبراهيم، ومعهما سارة زوجة إبراهيم، ولوط بن هاران بن تارح، وولده الآخر (ناحور) ومعه زوجته (ملكا)، واتجهوا نحو مدينة حرّان في الجزيرة الفراتية حيث هناك هاران والد (سارة)، وهو في الوقت نفسه أخو تارح، وعمّ إبراهيم، ووالد لوط، كما أنه حاكم تلك الديار، وتتبع النمرود ملك بابل.

وصل الركب إلىٰ حرّان، ونزلوا عند حاكمها (هاران) أخي تارح، ولم يلبث أن توفي (تارح) هناك. وأهل حرّان كأهل بابل يعبدون الأصنام والكواكب.

ناظر إبراهيم أهل حرّان في الكواكب وأنها لا تصلح أن تُعبد ما دامت تظهر أحياناً وتغيب أحياناً أخرىٰ، لذا فلا يمكن أن تكون آلهةً لأن الإلٰه لا يغيب عنه شيء ولا تخفىٰ عليه خافية، بل الله هو الدائم دون زوالٍ، الباقي دون غيابٍ، لا إلٰه إلا هو ولا ربّ سواه.

---

(١) انظر المصور رقم (٢)، الصفحة (٢٤٨).

قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنعام].

بيّن إبراهيم الخليل، عليه السلام، لقومه أن هذه الكواكب النيّرة لا تصلح أن تكون آلهةً، ولا أن تُعبد مع الله ولا من دونه إذ تظهر وتختفي. فبيّن لهم أولاً عدم صلاحية الكوكب كالزُّهرة وهي الكوكب الذي كان أول ما رآه، ثم انتقل إلىٰ القمر الذي هو أكثر إضاءةً من الزهرة، كما أنه أكثر منها بهاءً، ثم ارتقىٰ إلىٰ الشمس التي هي أكثر الأجرام السماوية بهاءً وحسناً وضياءً بل إن الكواكب الأخرىٰ تأخذ نورها من الشمس ومع ذلك فهي من خلق الله، وتجري بأمره، وكانت سراجاً بعلمه. فكل ما يُعبد من دون الله لا ينفع شيئاً ولا يضرّ، ولا ينصر، ولا يدفع شيئاً عن عابده أو عن غيره، وهذه كلها لا تسمع ولا تعقل، وبذا فإن إبراهيم، عليه السلام، قد أظهر بطلان عبادة هذه الكواكب، وأفقدها مكانتها أمام عابديها.

بعد مناظرة إبراهيم، عليه السلام، لأهل حرّان، وبرهانه لبطلان عبادة الكواكب، لم تبق إمكانية لبقائه هناك فارتحل نحو الجنوب إلىٰ

الشام فمرّ علىٰ بحيرة حمص (قطّينة)، ثم علىٰ بلدة (برزة) شمال شرقي دمشق بأربعة أميال فأقام هناك قليلاً، ولا يزال مكان إقامته هناك معروفاً، ويُسمّىٰ (مقام إبراهيم). ثم تابع سيره حتىٰ وصل إلىٰ أرض بيت المقدس، وكان هناك قد عمّ القحط فساد الجوع، وارتفع ثمن الأشياء، فتابع السير إلىٰ مصر، وكان ملكها طاغيةً يقتل الرجل إن كانت له زوجة حسناء. فلما دخل إبراهيم الخليل، عليه السلام، ومن معه مصر. فقيل للملك: إن هاهنا رجل معه امرأة من أحسن الناس، فأرسل إليه وسأله عنها، فقال: من هذه؟ قال إبراهيم: أختي. فأتىٰ إبراهيم سارة فقال لها: يا سارة، سألني الملك عنك فأخبرته أنك أختي فلا تكذبيني.

أرسل ملك مصر إلىٰ سارة، فأتت إليه، فسألها عن إبراهيم، فأجابته أنه أخوها. فأمر بإخراجها وإعطائها (هاجر) لتخدمها، فلما رجعت سارة إلىٰ إبراهيم قالت له: أشعرت أن الله ردّ كيد الكافرين وأخدمني وليدة.

وقال الإمام أحمد: حدّثنا عليّ بن حفص، عن ورقاء ـ هو أبو عمر اليشكري ـ عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله، صلىٰ الله عليه وسلم: «لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات: قوله حين دُعي لآلهتهم، فقال: إني سقيم، وقوله: بل فعله كبيرهم هذا، وقوله عن سارة: إنها أختي».

وقال ابن أبي حاتم: حدّثنا أبي، حدّثنا سفيان، عن عليّ بن زيد بن جدعان، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله، صلىٰ الله عليه وسلم، في كلمات إبراهيم الثلاث التي قال: «ما منها كلمة إلا ما حلّ بها عن دين الله، فقال: إني سقيم، وقال: بل فعله كبيرهم هذا، وقال للملك حين أراد امرأته: هي أختي».

فقوله في الحديث: «هي أختي» أي: في دين الله. وقوله لها: «إنه ليس علىٰ وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك» يعني: زوجين مؤمنين غيري وغيرك. ويتعيّن حمله علىٰ هذا لأن لوطاً، عليه السلام، كان معهم، وهو نبيّ.

رجع إبراهيم الخليل، عليه السلام، من بلاد مصر إلىٰ الأرض المقدسة التي كان فيها، ومعه أنعام وعبيد ومال جزيل، وصحبتهم (هاجر) القبطية المصرية.

ثم إن لوطاً، عليه السلام، نزح بما له من الأموال الجزيلة بأمر إبراهيم الخليل له في ذلك، إلىٰ أرض الغور، المعروف بـ(غور زغر) فنزل بمدينة (سدوم) وهي أم تلك البلاد في ذلك الزمان. وكان أهلها أشراراً كفاراً فجّاراً.

ثم إن طائفةً من الجبّارين تسلّطوا علىٰ لوطٍ، عليه السلام، فأسروه وأخذوا أمواله واستاقوا أنعامه، فلما بلغ الخبر إبراهيم الخليل سار إليهم في ثلاثمائة وثمانية عشر رجلاً فاستنقذ لوطاً، عليه السلام، واسترجع أمواله، وقتل من أعداء الله ورسوله خلقاً كثيراً وهزمهم، وساق في آثارهم حتىٰ وصل إلىٰ شمالي دمشق وعسكر بظاهرها عند بلدة (برزة). ومقام إبراهيم إنما سُمّي بذلك لأنه كان موقف جيش الخليل، والله أعلم.

ورجع إبراهيم الخليل إلىٰ بلاده مُؤيّداً منصوراً، وتلقّاه ملوك بيت المقدس مُعظّمين له مُكرّمين خاضعين، فاستقرّ هناك ببلاد المقدس.

○ مولد إسماعيل، عليه السلام:

بعد أن أمضىٰ إبراهيم الخليل، عليه السلام، عشرين سنةً في بلاد المقدس، قالت سارة لزوجها إبراهيم، عليه السلام: إن الربّ قد حرمني الولد، فادخُل علىٰ أَمتي هذه (هاجر) لعل الله يرزقني منها ولداً. فلما وهبتها له دخل بها إبراهيم، عليه السلام، فلما دخل بها حملت منه.

لما حملت هاجر تعالت علىٰ سيدتها سارة، فغارت سارة وشكتها إلىٰ إبراهيم الخليل، عليه السلام، فقال لها: افعلي بها ما شئت، فخافت هاجر فهربت ونزلت عند عينٍ هناك، فجاءها الأمر بعدم الخوف والعودة، والبشرىٰ بالخير في هذا المولود الذي ستضعه، وأنها ستسميه (إسماعيل)،

فشكرت الله عزّ وجلّ علىٰ هذه البشرىٰ. ورجعت هاجر إلىٰ منزلها في مقرّ إبراهيم، عليه السلام.

ولما رجعت هاجر وضعت إسماعيل، عليه السلام. وكان عُمر إبراهيم، عليه السلام، عند ولادة إسماعيل ستاً وثمانين سنةً، وقبل ولادة إسحاق، عليه السلام، بثلاث عشرة سنةً.

لما ولدت هاجر إسماعيل اشتدت الغيرة عند سارة، وبدا عليها الألم النفسي والأذىٰ؛ فطلبت من إبراهيم الخليل، عليه السلام، أن يُغيّب وجه هاجر عنها مع وليدها.

أخذ إبراهيم الخليل، عليه السلام، هاجر مع ولدها إسماعيل الذي لا يزال رضيعاً، وسار بهما حتىٰ وضعهما في موقع مكة اليوم. وكانت جبال تلك المنطقة تُعرف باسم جبال (فاران).

جلس إبراهيم الخليل، عليه السلام، مع هاجر وولده إسماعيل قليلاً، ثم قام وولّىٰ ظهره آيباً إلىٰ ديار بيت المقدس حيث كان يُقيم وتُقيم زوجه سارة، فقامت إليه هاجر وتعلّقت بثيابه، وقالت له: يا إبراهيم، أين تذهب وتدعنا وليس معنا ما يكفينا؟ فلم يُجبها، فلما ألحّت عليه وهو لا يُجيبها، قالت له: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذن لا يُضيّعنا.

وضع إبراهيم الخليل، عليه السلام، هاجر وولدها إسماعيل عند دوحةٍ فوق زمزم في أعلىٰ المسجد، وليس بمكة يومئذٍ أحد، وليس بها ماء، فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جراباً فيه تمر، وسقاءً فيه ماء.

انطلق إبراهيم الخليل، عليه السلام، آيباً، حتىٰ إذا كان عند الثنية عاد ورجع فوقف في مكانٍ لا يريانه، فاستقبل بوجهه البيت، ثم رفع يديه ودعا: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ [إبراهيم].

جعلت هاجر أم إسماعيل تُرضع ولدها إسماعيل وتشرب من سقاء الماء الذي تركه لهما إبراهيم الخليل، عليه السلام، حتىٰ إذا نفد ما في السقاء عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوّىٰ، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب مرتفعٍ في الأرض يليها، فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترىٰ أحداً؟ فلم تر أحداً. فهبطت من الصفا حتىٰ إذا بلغت بطن الوادي رفعت طرف درعها، ثم سعت سعي الإنسان المجهود. حتىٰ جاوزت الوادي، ثم أتت المروة فقامت عليها، ونظرت هل ترىٰ أحداً؟ فلم تر أحداً، فعلت ذلك سبع مراتٍ.

قال ابن عباس: قال النبي، صلىٰ الله عليه وسلم: «فلذلك سعىٰ الناس بينهما».

فلما أشرفت علىٰ المروة سمعت صوتاً، فقالت: صه، تريد نفسها، ثم تسمّعت فسمعت أيضاً، فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غوث، فإذا هي بالمَلَك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه ـ أو قال: بجناحه ـ حتىٰ ظهر الماء، فجلعت تحوضه وتقول بيدها هكذا. وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعدما تغرف.

قال ابن عباس: قال النبي، صلىٰ الله عليه وسلم: «يرحم الله أم إسماعيل! لو تركت زمزم ـ أو قال: لو لم تغرف من الماء ـ لكانت زمزم عيناً معيناً». قال: «فشربت وأرضعت ولدها. فقال لها المَلَك: لا تخافي الضيعة، فإن هاهنا بيتاً لله يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله».

وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية، تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله، فكانت كذلك حتىٰ مرت بهم رفقة من قبيلة جُرْهُم، أو أهل بيتٍ من جُرْهُم مقبلين من طريق كداء، فنزلوا في أسفل مكة فرأوا طائراً عائفاً ـ حائماً علىٰ الشيء يريد الوقوع عليه ـ، فقالوا: إن هذا الطائر ليدور علىٰ ماءٍ، لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء، فأرسلوا راجلاً أو راجلين فإذا هم بالماء، فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا.

قال: وهاجر أم إسماعيل عند الماء، فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ قالت: نعم، ولكن لا حق لكم في الماء عندنا. قالوا: نعم.

قال عبد الله بن عباس: قال النبيّ، صلىٰ الله عليه وسلم: «فألفىٰ ذلك أم إسماعيل وهي تحبّ الأُنس»، فنزلوا وأرسلوا إلىٰ أهليهم فنزلوا معهم حتىٰ إذا كان أهل أبياتٍ منهم.

وشبّ الغلام إسماعيل، وتعلّم العربية منهم، وقد أعجبهم حين شبّ، فلما أدرك زوّجوه امرأةً منهم.

وماتت أم إسماعيل هاجر، فجاء إبراهيم الخليل، عليه السلام، بعدما تزوج إسماعيل يتفقّد تركته فلم يجد ولده إسماعيل، فسأل امرأته عنه، فقالت: يبتغي لنا، ثم سألها عن عيشهم ووضعهم، فقالت: نحن بشر، نحن في ضيقٍ وشدةٍ، وشكت إليه، قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام، وقولي له يُغيّر عتبة بيته.

فلما جاء إسماعيل كأنه أَنِس شيئاً، فقال: هل جاءكم من أحدٍ؟ فقالت: نعم، جاءنا شيخ كذا وكذا، فسألني عنك فأخبرته، وسألني: كيف عيشنا؟ فأخبرته أننا في جهدٍ وشدةٍ، قال: فهل أوصاك بشيءٍ؟ قالت: نعم، أمرني أن أقرأ عليك السلام، ويقول لك: غيّر عتبة بابك. قال: ذاك أبي، وقد أمرني أن أُفارقك فالحقي بأهلك، وطلّقها وتزوّج بامرأةٍ أخرىٰ منهم.

ولبث عنهم إبراهيم ما شاء الله، ثم أتاهم بعد فلم يجده، فدخل إلىٰ البيت وسأل زوجته عنه، فقالت: خرج يبتغي لنا، قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم ووضعهم، فقالت: نحن بخيرٍ وسعةٍ، وأثنت علىٰ الله عزّ وجلّ، فقال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم. قال: فما شرابكم؟ قالت: الماء، قال: اللهم بارك لهم في اللحم والماء. قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام، ومُريه يُثبت عتبة بابه. فلما جاء إسماعيل، قال: هل أتاكم من إحدٍ؟ قالت: نعم، أتانا شيخ حسن الهيئة، وأثنت عليه، فسألني

عنك فأخبرته، فسألني: كيف عيشنا؟ فأخبرته أننا بخيرٍ، قال: فأوصاك بشيءٍ؟ قالت: نعم، هو يقرأ عليك السلام، ويأمرك أن تُثبت عتبة بابك. قال: ذاك أبي، وأنت العتبة، أمرني أن أمسكك.

ثم لبث عنهم ما شاء الله، ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبري نبلاً له تحت دوحةٍ قريباً من زمزم، فلما رآه قام إليه، فصنعا كما يصنع الوالد بالولد، والولد بالوالد، ثم قال: يا إسماعيل، إن الله أمرني بأمرٍ، قال: فاصنع ما أمرك به ربك، قال: وتُعينني؟ قال: وأعينك، قال: فإن الله أمرني أن أبني هاهنا بيتاً، وأشار إلىٰ أكمةٍ مرتفعةٍ علىٰ ما حولها.

قال: فعند ذلك رفعا القواعد من البيت، فكان إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني، حتىٰ إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له. فقام عليه يبني وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ [البقرة].

وأمر الله إبراهيم بأن يختن ولده إسماعيل وكل من عنده من العبيد وغيرهم فختنهم، وذلك بعد مضي تسعٍ وتسعين سنةً من عمر إبراهيم، عليه السلام، وكان عمر إسماعيل، عليه السلام، ثلاث عشرة سنةً. وهذا يدلّ علىٰ أن ختان الذكور واجب.

روىٰ البخاري قال: حدّثنا قتيبة بن سعيد، حدّثنا المغيرة بن عبد الرحمٰن القرشي، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة قال: قال النبي، صلىٰ الله عليه وسلم: «اختتن إبراهيم، عليه السلام، بعد ثمانين سنة، واختتن بالقدوم»(١).

○ قصة الذبيح:

بعد أن هاجر إبراهيم الخليل، عليه السلام، من ديار قومه في بابل

---

(١) رواه البخاري: (٦٢٩٨). والقدوم: آلة تستعمل لتقطيع الأخشاب والعيدان.

جنوبي العراق سأل ربه أن يهب له ولداً صالحاً، وكانت معه زوجه ابنة عمه سارة، ولكنها كانت عقيماً، فبشّره ربّه بغلامٍ حليمٍ، وهو إسماعيل، عليه السلام، حيث كان أول ولده، وبينه وبين الولد الثاني وهو إسحاق ثلاث عشرة سنةً. فلما شبّ إسماعيل، عليه السلام، وصار يسعىٰ في مصالحه كأبيه، دخل أبوه إبراهيم الخليل، عليه السلام، في مرحلة الابتلاء بولده إسماعيل، عليه السلام، إذ رأىٰ إبراهيم في المنام أنه يُؤمر بذبح ولده إسماعيل. وكان هذا اختبار من الله عزّ وجلّ لخليله في أن يذبح ولده الوحيد العزيز الذي رُزق به علىٰ كبر، وقد طعن هو في السنّ، بعدما أُمر بأن يُسكنه هو وأمه في بلادٍ قفرٍ وواد غير ذي زرع فلا زرع فيه ولا ضرع كما لا أنيس فيه ولا قريب، فامتثل أمر الله في ذلك، وتركهما هناك ثقةً بالله وتوكلاً عليه، فجعل الله لهما فرجاً ومخرجاً، ورزقهما من حيث لا يحتسبان إذ ظهرت لهما مياه زمزم ليشربا منها، ثم جاءت إليهما جماعة من قبيلة جُرْهُم وأقامت بجوارهما، وأحبتهما وخاصةً إسماعيل، وزوجته إحدىٰ بناتها، ثم طلّقها حسب وصية أبيه عندما زارهما، فزوجته جُرْهم فتاةً غيرها، وكانت هاجر أم إسماعيل قد توفيت بعد الزواج الأول لولدها.

ثم جاء الأمر إلىٰ إبراهيم بذبح ولده إسماعيل، فأجاب ربه وامتثل أمره، وسارع إلىٰ طاعته. ثم عرض ذلك علىٰ ولده ليكون أطيب لقلبه وأهون عليه من أن يأخذه قسراً ويذبحه قهراً. ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾ [الصافات: ١٠٢]. فأجاب إسماعيل مسرعاً ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢﴾ [الصافات]. فكان الجواب في غاية السداد والطاعة للوالد ولرب العباد.

استسلم الوالد والولد لأمر الله وعزما علىٰ تنفيذ الأمر ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ١٠٣﴾ [الصافات]. فعندما استسلما للأمر ألقىٰ إبراهيم ولده إسماعيل علىٰ وجهه إذ أراد أن يذبحه من قفاه لئلا ينظر إليه في حالة

ذبحه، وقيل: بل ألقاه كما تُلقىٰ الذبائح وبقي جانب من جبينه ملصقاً بالأرض. وسمّىٰ إبراهيم وكبّر، وتشهّد إسماعيل استقبالاً للموت. وقال السّدي وغيره: مرّر إبراهيم السكين علىٰ حلق إسماعيل فلم تقطع شيئاً، ويقال: جُعل بين السكين وحلق إسماعيل صفيحة من نحاسٍ، والله أعلم.

وجاء نداء من الله عزّ وجلّ لخليله: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾﴾ [الصافات]. أي: قد صدقت وأطعت، وبادرت إلىٰ تنفيذ أمر ربك وبذلت ولدك للقربان، وهذا الاختبار ظاهر بيّن لذا جعلنا فداء ذبح ولدك ما يسّره الله تعالىٰ له من العوض عنه. وكان هذا العوض كبشاً أبيض أعين أقرن، عليه صوف أحمر. وهو الكبش الذي قرّبه هابيل بن آدم قرباناً فتُقبّل منه، ولم يُتقبّل وقتذاك قربان أخيه قابيل، وكان أن قتل قابيل هابيل. وقد ذبح إبراهيم الكبش الذي فُدي به إسماعيل بمنىٰ.

فالذبيح هو إسماعيل، عليه السلام، وليس بإسحاق، عليه السلام، من قوله تعالىٰ: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾ [هود]. كما يزعم بعض أهل الكتاب، إذ كيف تكون البشارة بإسحاق وأنه سيولد له يعقوب، ثم يؤمر بذبحه وهو صغير قبل أن يُولد له.

○ مولد إسحاق، عليه السلام:

كان لوط، عليه السلام، وهو ابن هاران أخي إبراهيم. وكان يُقيم في مدينة (سدوم) في الغور، جنوب بحيرة لوط (البحر الميت)، وكان قومه يعملون السيئات فجاءت الملائكة لتجعلهم عظةً للخلق ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾

﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾ [هود]. فمرّ الملائكة
علىٰ إبراهيم وسارة وبشّروهما بإسحاق. قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ
إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا
رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ
إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ
يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ
﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ
مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ
إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ
ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا
وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ
ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ
أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ
مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا
رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ
إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾
فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ
﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾ [هود].

○ بناء البيت الحرام:

إن أول بيتٍ وُضع بالأرض لعبادة الله إنما هو البيت الحرام الذي بمكة المكرمة، وقد قام ببنائه إبراهيم الخليل وولده إسماعيل، عليهما السلام.

وقد أرشد الله سبحانه وتعالىٰ إلىٰ مكانه الخليل إبراهيم، عليه السلام، يقول الله: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى

شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾ [الحج]. بوّأنا: (أرشدنا ودللنا).

وقال سبحانه وتعالىٰ: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران].

عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: قال النبيّ، صلىٰ الله عليه وسلم، يوم فتح مكة: «لا هجرة ولكن جهاد ونيّة، وإذا استُنْفِرتم فانفروا، فإن هذا بلد حرّمه الله يوم خلق السماوات والأرض، وهو حرام بحرمة الله إلىٰ يوم القيامة، وإن لم يحلّ القتال فيه لأحدٍ قبلي، ولم يحلّ لي إلا ساعةً من نهارٍ، فهو حرام بحرمة الله إلىٰ يوم القيامة، لا يُعضد شوكه، ولا يُنفّر صيده، ولا يلتقط لُقطته إلّا من عرّفها، ولا يختلىٰ خلاها». قال العباس: يا رسول الله، إلا الإذخِر، فإنه لقيْنهم ولبيوتهم، قال: قال: «إلا الإذخِر»[1].

ومقام إبراهيم: هو الحجر الذي كان يقف عليه إبراهيم عندما ارتفع البناء عن قامته، فوضع له ولده إسماعيل هذا الحجر المشهور، ليرتفع عليه لما ارتفع البناء وعظم الفناء. وقد كان هذا الحجر ملتصقاً بحائط الكعبة علىٰ ما كان عليه من القديم إلىٰ أيام عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، فأبعده عن البيت قليلاً لئلا يُشغل المصلين عنده الطائفين بالبيت. وقد كانت آثار قدمي الخليل باقيةً في الصخرة إلىٰ أول الإسلام. وإن رِجل إبراهيم الكريمة نزلت قليلاً في الصخرة فصارت علىٰ قدر قدمه حافيةً لا مُنتعلةً.

ولما بلغ إبراهيم وإسماعيل، عليهما السلام، القواعد وبنيا

(١) متفق عليه. البخاري (١٨٣٤)، ومسلم (١٣٥٣).

الركن، قال إبراهيم لإسماعيل: يا بنيّ، اطلب لي حجراً حسناً أضعه هاهنا. قال: يا أبتِ، إني كسلان تعب، قال: علىٰ ذلك. فانطلق، وجاء جبريل بالحجر الأسود من الهند، وكان أبيض كأنه ياقوتة بيضاء مثل الثغامة[1]. وكان آدم هبط به من الجنّة فاسود من خطايا الناس. فجاءه إسماعيل بحجرٍ، فوجد الحجر الأسود عند الركن. فقال: يا أبت، من جاءك بهذا؟ قال: جاء به من هو أنشط منك. وبنىٰ إبراهيم وإسماعيل البناء وهما يدعوان الله: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ [البقرة].

بقيت الكعبة علىٰ البناء الذي أقامه إبراهيم الخليل وابنه إسماعيل مدةً طويلةً من الزمن، ثم بنتها بعد ذلك قريش في السنة الخامسة قبل البعثة، وقد شارك رسول الله، صلىٰ الله عليه وسلم، بذلك، وكان عمره خمساً وثلاثين سنةً. وقصرت قريش في البناء عن قواعد إبراهيم من جهة الشمال مما يلي الشام علىٰ ما هي عليه اليوم.

روىٰ البخاري ومسلم، عن عائشة، رضي الله عنها، أن رسول الله، صلىٰ الله عليه وسلم، قال لها: «ألم تري أن قومك لما بنوا الكعبة قصّروا عن قواعد إبراهيم». فقلت: يا رسول الله، ألا تردّها علىٰ قواعد إبراهيم، قال: «لولا حِدْثان قومك بالكفر لفعلت»[2].

وفي أيام عبد الله بن الزبير، رضي الله عنهما، بناها علىٰ ما أشار عليه رسول الله، صلىٰ الله عليه وسلم، حسبما أخبرته به خالته أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها، فلما قتله الحجاج سنة ثلاثٍ وسبعين من الهجرة كتب إلىٰ عبد الملك بن مروان الخليفة بدمشق إذ ذاك، فاعتقدوا أن عبد الله بن الزبير، رضي الله عنهما، إنما فعل ذلك اجتهاداً من نفسه، فأمر

---

(١) الثغامة: شجرة بيضاء الثمر والزهر، تنبت في قمة الجبل وإذا يبست زاد بياضها.

(٢) رواه البخاري ومسلم: البخاري (١٥٨٣)، ومسلم (١٣٣٣).

بردّها إلىٰ ما كانت عليه، فنقضوا الحائط الشامي وأخرجوا منها الحِجر، ثم سدّوا الحائط وردموا الأحجار في جوف الكعبة، فارتفع بابها الشرقي وسدّوا الغربي تماماً، بالوضع الذي نراه اليوم.

ثم بلغهم أن عبد الله بن الزبير، رضي الله عنهما، إنما فعل ذلك لمّا أخبرته خالته أمّ المؤمنين عائشة، رضي الله عنها، فندموا علىٰ ما فعلوا، وتمنّوا لو تركوه.

وفي العصر العباسي أيام محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور استشار الإمام مالك بن أنس في ردّها علىٰ الوضع الذي بناها عليه عبد الله بن الزبير، رضي الله عنهما، فقال له: إني أخشىٰ أن يتخذها الملوك لعبةً ـ أي كلما جاء وليُّ أمرٍ بناها علىٰ الصفة التي يريد ـ. فبقيت علىٰ ما هي عليه اليوم.

○ الثناء علىٰ إبراهيم، عليه السلام:

قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [البقرة]. وذلك لما وفىٰ ما أمره به ربّه من التكاليف العظيمة. جعله إماماً للناس يقتدون به، ويأتمّون بهديه. فسأل ربه أن تكون هذه الإمامة متصلةً بسببه، وباقيةً في نسبه، وخالدةً في عقبه فأُجيب إلىٰ ما سأل، وسُلّمت إليه الإمامة واستُثني من نيلها الظالمون.

وقال الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [البقرة].

وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام].

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ [النحل].

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النساء].

○ وفاة إبراهيم الخليل، عليه السلام[1]:

ولد إبراهيم الخليل في بابل في بني راسب الذي بُعث إليهم نوح، عليه السلام، ﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾﴾ [الصافات]. وهاجر من بابل إلىٰ حران، ثم إلىٰ أرض الشام، وأقام ببلاد بيت المقدس (إيليا)، ووُلد له إسماعيل وإسحاق، وماتت زوجه سارة في بلدة الخليل (حبرون) التابعة للكنعانيين قبله، ولها من العمر مائة وسبع وعشرون سنةً، فحزن عليها إبراهيم، عليه السلام، ورثاها رحمها الله، واشترىٰ مغارةً بأربعمائة مثقالٍ، من رجل من بني حثّ يقال له: عفرون بن صخر. ودفن إبراهيم زوجه سارة في تلك المغارة في الخليل.

وخطب إبراهيم، عليه السلام، لولده إسحاق وزوّجه رفقا بنت بتوئيل بن ناحور بن تارح.

ثم تزوج إبراهيم الخليل قنطورا بنت يقطن الكنعانية، فولدت له ستة أولادٍ، هم: زمران، يقشان، مادان، مدين، نشق، شوح.

ثم تزوج بعدها حجون بنت أمين، فولدت له خمسة أولادٍ، هم: كيسان، سورج، أميم، لوطان، نافس.

ثم مرض إبراهيم الخليل، عليه السلام، ومات عن مائةٍ وخمسٍ وسبعين سنةً، ودُفن في المغارة التي دفنت فيها زوجه سارة ببلدة الخليل.

---

(١) انظر المصور رقم (٣) الصفحة (٢٤٩)، والمصور رقم (٦) الصفحة (٢٥٢).

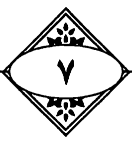
وتولّىٰ دفنه ولداه إسماعيل وإسحاق، صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً.

○ أولاد الخليل إبراهيم، عليه السلام:

تزوّج الخليل أربع زوجاتٍ هنّ: سارة، هاجر، قنطورا، حجون.

وأولاده منهن كما يلي:

سارة	هاجر	قنطورا	حجون
إسحاق.	إسماعيل.	زمران.	كيسان.
		يقشان.	سورج.
		مادان.	أميم.
		مدين.	لوطان.
		نشق.	نافس.
		شوح.	



إسماعيل، عليه السلام

ذكرنا أبناء إبراهيم الخليل، عليه السلام، وكان أشهرهم إسماعيل وإسحاق، عليهما السلام، وهما من أنبياء الله.

إسماعيل[1]، عليه السلام، وهو أكبر أبناء الخليل، وأمه هاجر القبطية المصرية، وهو الذبيح على القول الصحيح.

وُلد إسماعيل في أرض بيت المقدس في مدينة الخليل، وكان أبوه إبراهيم قد بلغ من العمر السادسة والثمانين من السنين.

هاجر إبراهيم الخليل بابنه إسماعيل ومعه أمه هاجر، وكان إسماعيل صغيراً رضيعاً، فوضعهما في أحد أودية جبال (فاران) وهي الجبال التي حول مكة، وتركهما هناك وليس معهما من المؤونة من زادٍ وماءٍ إلا القليل متوكلاً علىٰ الله، مطمئناً لرعاية الله، فحاطهما الله تعالىٰ بالعناية فهو نعم المولىٰ ونعم الوكيل.

قال تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾ [مريم].

وأثنىٰ عليه الله سبحانه وتعالىٰ في عددٍ من المواضع في القرآن الكريم.

ووافق أباه علىٰ أن يذبحه ووعده أن يكون من الصابرين. ففُدي بذبحٍ عظيمٍ وأنجاه الله. وبنىٰ مع أبيه البيت ـ كما مرّ معنا ـ.

---

(١) انظر المصور رقم (٤)، الصفحة (٢٥٠).

وإسماعيل، عليه السلام، أول من تكلم باللغة العربية الفصحىٰ البليغة، وقد تعلّمها من العرب العاربة الذين نزلوا عندهم بمكة من جُرْهُم والعمالقة وأهل اليمن. ورُوي أن رسول الله، صلىٰ الله عليه وسلم، قال: «أول من فتق لسانه بالعربية البيّنة إسماعيل وهو ابن أربع عشرة سنة».

وهو أول من ركب الخيل، وكانت قبل ذلك وحوشاً فأنسها وركبها. وروي عن رسول الله، صلىٰ الله عليه وسلم، أنه قال: «اتخذوا الخيل واعتقبوها؛ فإنها ميراث أبيكم إسماعيل».

تزوّج إسماعيل، عليه السلام، عندما شبّ امرأةً من العمالقة، وأن أباه إبراهيم الخليل، عليه السلام، عندما زاره في مكة ولم يجده أمره بفراقها ففارقها. قيل هي: عمارة بنت سعد بن أسامة بن أكيل العماليقي.

وتزوّج إسماعيل، عليه السلام، ثانيةً، هي: سيدة بنت مضاض بن عمرو الجرهمي، وقد زاره أبوه إبراهيم الخليل، ولم يجده، وأمره أن يستمرّ معها فاستمرّ فولدت له اثني عشر ولداً ذكراً، وهم: نابت، قيذار، إزبل، ميشي، مسمع، ماش، دوصا، أرر، يطور، نبش، طيما، قيذما. حسبما ذكرهم محمد بن إسحاق.

وإلىٰ نابت بن إسماعيل ينتسب رسول الله، صلىٰ الله عليه وسلم، محمد بن عبد الله العربي الهاشمي القرشي. بُعث إسماعيل، عليه السلام، نبياً إلىٰ أهل تلك النواحي بجهات مكة المكرمة وما يتبعها من قبائل جُرْهُم والعمالقة.

وينتسب عرب الحجاز إلىٰ ولديه: نابت، وقيذار.

زوّج ابنته (نسمة) من ابن أخيه (العيص) بن إسحاق. وإلىٰ أحفادهم ينتسب الروم، واليونان، والإسبان.

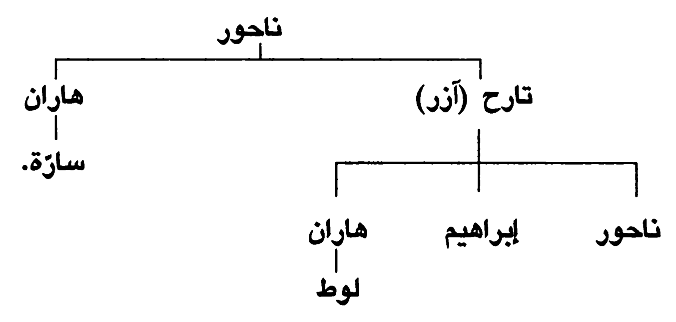
عاش إسماعيل، عليه السلام، مائةً وسبعاً وثلاثين سنةً. عندما حضرته الوفاة أوصىٰ إلىٰ أخيه إسحاق. ودُفن بـ(الحجر) مع أمه هاجر.



٨ و٩

إسحاق ويعقوب، عليهما السلام

إسحاق[١] بن إبراهيم الخليل، عليهما السلام. أمه (سارّة)، وهي ابنة عمّ أبيه إبراهيم الخليل، عليه السلام، فهي سارّة بنت هاران بن ناحور. وقد تزوّجها إبراهيم الخليل في بابل.



وآمنتْ بالله، وتبعت زوجها بدعوته، وهاجرت معه إلىٰ حرّان، ثم إلىٰ الشام. وسارت معه إلىٰ مصر، وقدّم لها فرعون مصر أَمَةً هي (هاجر). وكانت سارّة عقيماً، وكانت وزوجها إبراهيم، عليه السلام، يُحبّان الأبناء ويرغبان بالإنجاب، ولما يئست من النسل، وتعرف رغبة زوجها، قدّمت له جاريتها (هاجر) القبطية المصرية، وطلبت منه أن يدخل بها، فدخل بها، وحملت منه، وأنجبت إسماعيل، عليه السلام، كما مرّ معنا.

بُشِّرت سارّة بمولودٍ يُسمّىٰ إسحاق ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [الصافات]. ووضعت إسحاق وكان عمرها يوم ولادته تسعين سنةً، وكان عمر أبيه إبراهيم مائة سنةٍ، وكان إسماعيل قد بلغ من العمر أربع عشرة سنةً.

(١) انظر المصور رقم (٦)، الصفحة (٢٥٢).

وشبّ إسحاق وتزوج (رفقا) بنت بتوابيل، وكان عمره أربعين سنةً، وذلك في حياة أبيه، وكانت عاقراً، فدعا الله لها فحملت، ووضعت غلامين «توأمين» اسم أحدهما (العيص) وكانت تغلب عليه الصفرة، وهو والد بني الأصفر (الروم)، وخرج الثاني من جوف أمه معلقاً بعقب أخيه فسُمّي (يعقوب).

كان إسحاق، عليه السلام، يحبّ (العيص) أكثر من أخيه يعقوب، وكانت أمهما (رفقا) تحبّ (يعقوب) أكثر.

سمعت (رفقا) أن ولدها (العيص) يتواعد أخاه (يعقوب)، فأمرت ولدها (يعقوب) أن يذهب إلىٰ أخيها (ليان) في مدينة حرّان وأن يُقيم عنده حتىٰ يسكن غضب أخيه العيص، وأن يطلب من خاله (ليان) أن يزوّجه إحدىٰ بناته، وقالت لزوجها إسحاق أن يأمر ولده يعقوب بذلك ويوصيه ويدعو له، ففعل.

خرج يعقوب، عليه السلام، من دار أهله بالخليل مساء ذلك اليوم، فأدركه ظلام الليل في موضعٍ فنام فيه فرأىٰ في منامه مركباً بين السماء والأرض والملائكة تصعد فيه وتنزل، وخالق السماء والأرض يخاطبه ويبارك له ولذريته في الأرض. فلما صحا من نومه فرح بما رأىٰ، ونذر لله إن رجع إلىٰ أهله سالماً ليبنينّ في الموضع الذي نام فيه ورأىٰ رؤيته معبداً لله عزّ وجلّ، وسيكون عشر ما يُرزق به في سبيل الله. وجعل علامةً له لذلك الموضع حتىٰ لا يضيع عنه، وسمّىٰ ذلك الموضع باسم بيت الله.

وصل يعقوب، عليه السلام، إلىٰ حرّان وذهب إلىٰ خاله، فإذا له ابنتان: تُسمّىٰ الكبرىٰ (ليا)، وتسمّىٰ الصغرىٰ (راحيل) وكانت أحسنهما وأجملهما.

خطب يعقوب، عليه السلام، من خاله ابنته الصغرىٰ راحيل فأجابه علىٰ شرط أن يرعىٰ له غنمه سبع سنواتٍ، فوافق، وعمل راعياً لغنم خاله، فلما انقضت السنوات السبع، صنع خاله (ليان) طعاماً وجمع الناس

عليه، وزفّ إليه ابنته الكبرىٰ (ليا)، فلما أصبح يعقوب إذا هو مع (ليا)، فقال لخاله: لمَ غدرت بي؟ فإنما أنا خطبت إليك راحيل. فقال له خاله: إنه ليس من عادتنا أن نُزوّج الصغرىٰ قبل الكبرىٰ. فإن أحببت الصغرىٰ فاعمل راعياً سبع سنواتٍ أخرىٰ وأزوجكها.

عمل يعقوب، عليه السلام، راعياً سبع سنواتٍ أخرىٰ، وتمّ الاتفاق الذي كان، ولم يكن محرّماً الجمع بين الأختين، ولكن حُرّم بعد ذلك، ويعقوب نبيّ فهو معصوم ولا يمكن أن يقع بمحرّم. أنجبت (ليا) من الأولاد ليعقوب: روبين، شمعون، لاوي، يهوذا، يساخر، زبالون. أصابت الغيرة راحيل فوهبت جارية لها اسمها (بلهىٰ) إلىٰ يعقوب، عليه السلام، فحملت الجارية منه، وولدت له غلامين، دان، ونفتالي. فعمدت عند ذلك (ليا) فوهبت جاريتها (زلفىٰ) ليعقوب، عليه السلام، فحملت منه أيضاً، وولدت له غلامين هما: جاد، وأشير.

ثم حملت (ليا) ووضعت بنتاً أسمتها (دينا).

ولم تحمل (راحيل) هذه المدة كلها، فالتجأت إلىٰ الله، جلّ وعلا، ودعته وسألته أن يرزقها غلاماً من يعقوب، عليه السلام، فاستجاب الله، جلّت قدرته، دعاء راحيل فحملت من يعقوب، عليه السلام، وولدت له غلاماً أسمته (يوسف).

تمّ هذا كله في حرّان عند (ليان) خال يعقوب، عليه السلام. وكان قد أقام يعقوب، عليه السلام، مدة عشرين سنةً، وهو يرعىٰ غنم خاله بعد أن تزوّج ابنتيه ليا، وراحيل.

طلب يعقوب، عليه السلام، من خاله ليان يسمح له بالعودة إلىٰ أهله، فأجابه خاله: إنه قد بورك لي بسببك فسلني من مالي ما شئت. فقال: تعطيني كل حَمَل أبقع (أبرص) يولد من غنمك هذه السنة، وكل حَمَلٍ أجلح (من غير قرون)، وكل حَمَلٍ أملح (يخالط بياضه بسواد)، فوافق ليان غير أن أبناءه لم يكونوا راضين فأبعدوا كباش الأغنام التي

تحمل صفات ما ذكر يعقوب لئلا تحمل النعاج من هذه الكباش، وساروا بها بعيداً عن غنم أبيهم مسيرة ثلاثة أيامٍ. ولكن حملت النعاج، وولدت كثيراً من الحملان بالصفة التي ذكرها يعقوب، عليه السلام. فصار ليعقوب، عليه السلام، أغنام كثيرة ودوابّ وعبيد. وتغيّر عليه خاله وبنوه.

أوحىٰ الله سبحانه وتعالىٰ إلىٰ يعقوب أن يعود إلىٰ أرض أبيه، وقومه، فعرض ذلك علىٰ أهله من نسائه وبنيه فوافقوا علىٰ الرحيل معه، فرحل بأهله وماله، وسرقت زوجه راحيل أصنام أبيها (ليان).

لما تجاوز يعقوب، عليه السلام، أرض خاله (ليان) في حرّان لحقهم خاله وعدد من قومه، فلما لحق بهم، واجتمع بيعقوب، عليه السلام، عاتبه علىٰ خروجه دون علمه، ولو أعلمه لودّعهم بأفراح، وودّع بناته وأولادهن. ثم طلب منه وأوصاه ألا يهين بناته ولا يتزوّج عليهنّ. وعملا طعاماً وأكل القوم معهم، وتوادعوا وكل عاد إلىٰ بلده.

أرسل يعقوب، عليه السلام، رسلاً إلىٰ أخيه (العيص) يترفق له ويتواضع، فعادت الرسل تخبر يعقوب، عليه السلام، تخبره أن أخاه العيص قد ركب إليه في أربعمائة رجلٍ.

خشي يعقوب، عليه السلام، من أخيه العيص فدعا الله وتضرّع إليه، وسأله أن يكفّ شرّ أخيه عنه، وأعدّ لأخيه هديةً ذات قيمةٍ، وهي: مائتا شاةٍ، وعشرون كبشاً، وثلاثون ناقةً حلوب، وأربعون بقرةً، وعشرة من الثيران، وعشرون أتاناً[1]، وعشرة من الحمير، وأمر عبيده أن يسوقوا هذه الدواب، وكل صنفٍ وحده، وبين القطيع والآخر مسافة.

لقي العيص السائق للقطيع الأول فسأله: لمن أنت؟ ولمن هذه التي معك؟ فأجابه: لعبدك يعقوب، أهداها لسيدي العيص، وكذا أجاب سائق كل قطيعٍ، ويضيف وهو قادم بعدنا.

---

(١) الأتان: أنثى الحمار.

وتأخّر يعقوب، عليه السلام، بزوجتيه وجاريتيه وبنيه الأحد عشر بعد الجميع ليلتين، وكان يسير فيهما ليلاً ويكمن نهاراً. وبعد تلكما الليلتين نظر يعقوب فإذا أخوه العيص قادم إليه بأربعمائة رجلٍ، فلما وصل إليه خضع له فأقبل إليه العيص واحتضنه وبكىٰ، ونظر إلىٰ أهل أخيه من نساء وولدان، فقال له: من أين لك هؤلاء؟ فأجابه: هبة من الله. وعرض عليه أن يقبل هديته وألحّ عليه فقبلها.

رجع العيص، وتقدّم أخاه، ولحقه يعقوب، عليه السلام، بأهله وعبيده وأنعامه قاصدين جبل طابور قرب الناصرة اليوم.

مرّ يعقوب، عليه السلام، بـ(ساحور) موقع نابلس اليوم، وبنىٰ له بيتاً هناك، ثم مرّ على أورشليم ونزل في قرية شخيم التي تُنسب إلىٰ صاحبها شخيم بن جمور، واشترىٰ مزرعةً من شخيم نفسه بمائة نعجةٍ، وضرب فسطاطه هناك. وابتنىٰ موقعاً يذكر الله فيه، وهو بيت المقدس اليوم، الذي جدّد بناءه بعد ذلك سليمان بن داود، عليهما السلام. وهو مكان الحجر الذي علّمه بوضع الدهان عليه قبل ذلك في المكان الذي نام به، وهو في ذهابه إلىٰ حرّان.

وفي قرية شخيم، اعتدىٰ شخيم بن جمور علىٰ دينا بنت يعقوب وأدخلها منزله، ثم خطبها من أبيها وإخوتها. فقال إخوتها: إذا اختتنتم كلكم نصاهركم وتصاهرونا، فإنا لا نصاهر قوماً غلفاً، فأجابوهم إلىٰ ذلك، واختتنوا فعلاً. فلما كان اليوم الثالث اشتدّ وجعهم من ألم الختان فمال عليهم بنو يعقوب فقتلوهم عن آخرهم، وقتلوا شخيماً وأباه جمور لقبيح ما صنعوا إليهم إضافةً إلىٰ كفرهم وعبادتهم الأصنام، فلهذا قتلهم بنو يعقوب وأخذوا أموالهم غنيمةً.

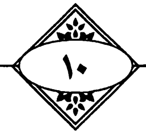
ثم حملت راحيل فولدت غلاماً هو بنيامين إلا أنها جهدت في طلقها به جهداً شديداً، وماتت إثر ذلك، ودفنها يعقوب، عليه السلام، في أفرات (بيت لحم)، ووضع علىٰ قبرها حجراً، وهي الحجارة المعروفة بقبر راحيل إلىٰ اليوم.

○ أولاد يعقوب:

كان عدد أولاد يعقوب اثني عشر غلاماً وفتاةً واحدةً، وهم من امرأتين أختين ومن جاريتين.

ليا	راحيل	زلفىٰ جارية ليا	بلهىٰ جارية راحيل
روبين	يوسف	جاد	دان
شمعون	بنيامين	أشير	نفتالي
لاوي			
يهوذا			
يساخر			
زابلون			
دينا (فتاة).			

جاء يعقوب إلىٰ أبيه إسحاق فأقام عنده في بلدة حبرون (الخليل) في أرض كنعان حيث كان يسكن إبراهيم، عليه السلام، ثم مرض إسحاق ومات عن عمرٍ يُقدّر بمائةٍ وثمانين سنةً، ودفناه ولداه العيص ويعقوب مع أبيه إبراهيم في المغارة التي اشتراها إبراهيم، عليه السلام، في بلدة الخليل، ودفن فيها زوجته سارة.



يوسف، عليه السلام

يوسف[1] بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، عليهم السلام أجمعين، وأمه راحيل بنت ليان، وهو أحد أبناء أبيه الاثني عشر الذين هم من أربع نساءٍ أختين وجاريتيهما، وهن: ليا وراحيل ابنتي ليان خال يعقوب، وجاريتاهما، وهن: زلفىٰ جارية ليا، وبلهىٰ جارية راحيل.

رأىٰ يوسف، عليه السلام، وهو صغير قبل أن يحتلم كأن أحد عشر كوكباً (إشارةً إلىٰ إخوته)، والشمس والقمر (إشارةً إلىٰ أبويه) قد سجدوا له، فهاله الأمر وفكّر بأمورٍ كثيرةٍ. وفي الصباح قصّ ذلك علىٰ أبيه يعقوب ففهم أبوه أن ولده يوسف سينال منزلةً عظيمةً حيث سيخضع له أبواه وإخوته. ويعقوب، عليه السلام، نبيّ بن نبيٍّ بن نبي، فهو نبيّ الله يعقوب بن إسحاق، بن إبراهيم الخليل، عليهم السلام جميعاً، وتوقّع عليه السلام أن هذه النبوة ستكون أيضاً في ولده يوسف.

أمر يعقوب، عليه السلام، ولده يوسف أن يكتم رؤياه عن إخوته حتىٰ لا يقع الحسد في نفوسهم عليه فيكيدوا له، ويمكروا به، ويسعون لإيقاعه في الغوائل.

ونتيجة هذه الرؤيا التي عرف يعقوب، عليه السلام، معناها مالت نفسه إلىٰ ولده يوسف، عليه السلام، وشعر أن ولده ستكون له مكانة وسيكون نبياً ـ بإذن الله ـ فهو وريث النعمة التي نالها أهله من قبل إبراهيم

(١) انظر المصور رقم (٣)، الصفحة (٢٤٩).

وإسحاق ويعقوب، وسيُعلّمه ربّه تأويل الأحاديث، لذا فإن محبته له قد زادت علىٰ محبة بقية إخوته، وكذا بدت محبته لشقيقه الصغير بنيامين التي عانت أمه ما عانت في حالة وضعه حتىٰ فارقت دنياها، وهي التي كانت تتوق نفسه إليها أكثر من أختها (ليّا) لرقّتها وعاطفتها وجمالها، وبذا ظهرت محبة يعقوب لولديه الشقيقين يوسف وبنيامين ولدي (راحيل).

قال تعالىٰ: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٥ وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦﴾ [يوسف].

شعر بقية إخوة يوسف وبنيامين وهم أبناء يعقوب من (ليّا) و(زلفىٰ) و(بلهىٰ) أن أباهم يعقوب أكثر محبةً لابني زوجته (راحيل) منهم، وأنه يُميّزهما ويُفضّلهما عليهم، وخاصةً يوسف، وأخذوا بالكيد لهما، والتشاور فيما بينهم للنيل منهما، بل والخلاص من يوسف، بقتله أو إلقائه في أرضٍ بعيدةٍ لا يمكنه الرجوع منها إلىٰ أبيه، فيكون الفراق الأبدي، وبعد القضاء علىٰ يوسف والانتهاء منه، وبقاؤهم هم دعامة أبيهم، وأمامه، فتنصرف محبته إليهم، فيُحقّقون بذلك رغبتهم، وبعدها يتوبون من ذنبهم بما اقترفته أيديهم، ويعودون صالحين، وتنصرف محبة والدهم إليهم. وذكر قائلهم بأن أباهم في خطأٍ كبيرٍ بيّنٍ واضحٍ إذ نحن جماعة فأحق بالمحبة من ولدٍ أو اثنين. قال أحدهم: أُفضّل ألا تقتلوا يوسف حتىٰ لا يكون الإثم عظيماً بل ألقوه في أحد الآبار في طريق التجار فيأخذه بعض المارّة، ويكون عبداً له، وبذا تحافظوا علىٰ حياة أخيكم وتشدّوا محبة أبيكم إليكم.

قال تعالىٰ: ﴿۞ لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ ٧ إِذۡ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٨ ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ

﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [يوسف].

أجمع رأيهم علىٰ أن يضعوه في أحد الآبار، واتفقوا فيما بينهم أن يطلبوا من أبيهم السماح له بالخروج معهم للنزهة في البرّ حتىٰ لا يكون ذهابه معهم دون إذنٍ، أي: ما يحدث يكون أمراً مبيّتاً مُسبقاً متّفقاً عليه من قبل، فطلبوا من الوالد السماح لهم بالخروج للنزهة والإذن لأخيهم بالسير معهم كنوعٍ من الأخوة والمحبة، فهم يرعون، ويتنزّهون فيلعبون ويمرحون ويرتعون ويفرحون.

قال تعالىٰ: ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [يوسف].

وما أن فاتحوا أباهم بالموضوع حتىٰ أجابهم بكلامٍ يدلّ علىٰ عدم رضاه بذهاب يوسف معهم، إذ قال لهم: يا أبنائي، إنه ليصعب عليّ أن أُفارق يوسف، وأخاف أن يُلهيكم اللعب وما أنتم فيه من السرور، فتُشغلوا عن أخيكم، فينقضّ عليه الذئب ويأكله، ولا يستطيع يوسف لصغره أن يحمي نفسه ويدفع الذئب عنه. فأجابوه: إذن لا خير فينا، إن كان الذئب يأكل أخانا من بيننا ونحن عن ذلك لاهون، وعن أخينا مشغولون، أو أننا عاجزون ونحن جماعة، فنرجو من أبينا العزيز أن يُحسن الظنّ بأبنائه، ويوسف أخونا وحياته من حياتنا. ولم يزالوا بأبيهم حتىٰ أبدىٰ الموافقة وإن كانت نفسه غير مطمئنةٍ، وعلىٰ يوسف خائفةً، خائفةً من الذئب، بل ومن أولاده علىٰ أخيهم يوسف أيضاً.

انطلق أبناء يعقوب، عليه السلام، إلىٰ المرعىٰ والنزهة، ومعهم أخوهم يوسف، وما أن ابتعدوا عن عيني أبيهم، وعن محيط البلد حتىٰ أخذوا بتقريع أخيهم يوسف وإهانته بالأقوال والأفعال، واتجهوا إلىٰ البئر

الذي قرروا إلقاءه فيه، وعندما وصلوا إليه أنزلوه فيه ووضعوه في غيابته أي: في قعره علىٰ الصخرة التي تكون في وسط القعر ليقف عليها المائح للماء، وهو الذي ينزل ليملأ الدلاء إذا قلّ الماء، والذي يرفعها بالحبل يُسمّىٰ: الماتح.

فلما أُلقي يوسف في قعر البئر، أوحىٰ الله إليه: أنه لا بُدّ لك من فرجٍ ومخرجٍ من هذه الشدّة التي وقعت فيها، ولتُخبرنّ إخوتك في وقتٍ قادمٍ بصنيعهم هذا، وأنت عزيز يومذاك، وهم بحاجةٍ إليك خائفون منك ويرجون رضاك عنهم ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يوسف].

فلما ألقوه في البئر أخذوا ثوبه (قميصه) ولطّخوه بالدم، ورجعوا إلىٰ أبيهم عشاءً يبكون علىٰ أخيهم ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ أي: تركنا يوسف عند أمتعتنا وأثناء ابتعادنا عنه في السباق جاء الذئب وأكله. وكأنه قد أرشدهم من قبل إلىٰ هذه الحيلة التي جاؤوا بها، وذلك عندما طلبوا منه السماح لأخيهم يوسف بالذهاب معهم فقال لهم: وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون.

اغرورقت عينا يعقوب، عليه السلام، بالدموع، وأجهشوا هم بالبكاء، وقالوا له، ودموعهم تنهمر، وصوت بكائهم يرتفع: وما أنت بمُصدقٍ لنا فيما أخبرناك به من أكل الذئب لأخينا يوسف، ولو كنا غير متهمين عندك، فكيف وأنت تتهمنا في هذا؟ فإنك خشيت أن يأكله الذئب، وقد ضمنا لك ألا يأكله لكثرتنا حوله، فأصبحنا غير مُصدّقين عندك، فمعذور أنت في عدم تصديقك لنا والحالة هذه.

وكانوا قد ذبحوا سخلةً ـ ابنة العنزة ـ، ووضعوا من دمها علىٰ قميصه ليُوهموا أباهم أن الذئب قد أكله، ولكن نسوا أن يُخرِّقوا القميص تأكيداً لأكل الذئب له، لذا فإن الوالد يعقوب، عليه السلام، كان في شكٍّ من ادّعائهم وفي ريبةٍ من أفعالهم وادعاءاتهم حيث يعرف حسدهم لأخيهم وعداوتهم له علىٰ محبته له من بينهم أكثر منهم. فما كان من يعقوب، عليه السلام، سوىٰ كظم الغيظ، والصبر والاستعانة بالله سبحانه وتعالىٰ: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾.

بقي يوسف، عليه السلام، في البئر ينتظر فرج الله، وجاءت قافلة من الشام في طريقها إلىٰ مصر، فمرّت من ذلك المكان، وأرسل أفرادها أحدهم ليستقي لهم من ذلك البئر، فوصل إلىٰ البئر وأدلىٰ دلوه ليأخذ الماء فتعلّق يوسف به، ورفع الساقي الدلاء فإذا به بغلامٍ متعلّقٍ بالحبل ففرح بذلك وقال: يا بشرىٰ، هذا غلام، إذ عدّه من التجارة فهو غلام يبيعونه عبداً، فسار به إلىٰ القافلة.

كان إخوة يوسف بعد أن وضعوا أخاهم في البئر، يُراقبون موضع البئر من بعيدٍ، فلما جاءت القافلة (السّيارة) انبطحوا أرضاً وبقيت أعينهم ترصد البئر، واتجه الساقي من القافلة ليستقي لجماعته ووصل إلىٰ البئر، وأدلىٰ دلاءه فخرج له يوسف، فأخذه من يده وسار به إلىٰ القافلة، فسُرّ به رجالها، وعدّوه غنماً يبيعونه في مصر.

رأىٰ إخوة يوسف كل ما جرىٰ، فانطلقوا وراء القافلة مسرعين فأدركوها، وقالوا: هذا غلامنا، وهو آبق فقد فرّ منا، ونرغب ببيعه إن أردتم فباعوه بثمنٍ بخسٍ دراهم معدودةٍ، وكانوا فيه من الزاهدين. وقد قيل: إن إخوته قد باعوه بعشرين درهماً. أما يوسف، عليه السلام، فلم يتكلّم وفضّل السكوت، فربما كان رجال القافلة أكثر رحمةً به من إخوته، وفي فرحهم ما يدلّ علىٰ ذلك، وفي تصرّف إخوته وإلقائه في البئر، وبيعه بثمنٍ بخسٍ ما يؤيد ذلك، ولو عاد مع إخوته فربما تصرّفوا بأسوإ ما صدر منهم.

قالوا: كان اسم التاجر الذي اشتراه من إخوته وباعه بمصر: مالك بن زعر بن نويب بن عفقا بن مديان بن إبراهيم الخليل ـ والله أعلم ـ.

وقيل: كان الذي اشتراه في مصر من أهل مصر، وهو وزير بها، وعزيزها إذ الخزائن بيده، واسمه: قطفير بن روحيب.

وقيل: كان ملك مصر يومذاك أحد رجال العمالقة واسمه: الريّان بن الوليد.

وقيل: كان اسم امرأة العزيز: راعيل بنت رعاييل، وقيل: كان اسمها (زليخة) والظاهر أنه لقبها. وقيل: فكا بنت ينوس ـ والله أعلم ـ.

ثم قيل: اشتراه العزيز بعشرين ديناراً، وقيل: بوزنه مسكاً، ووزنه حريراً، ووزنه ورقاً ـ فالله أعلم ـ.

قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِى مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِى ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [يوسف].

قال عزيز مصر ـ صاحب الخزائن (قطفير بن روحيب) وهو الذي اشترىٰ يوسف، عليه السلام ـ لزوجته (راعيل): أكرمي مثواه عسىٰ أن ينفعنا أو نتخذه ولداً. وهذا من لطف الله سبحانه وتعالىٰ بيوسف ورحمته وإحسانه إليه بما يريد أن يُؤهّله له، ويُعطيه من خيري الدنيا والآخرة.

ولما بلغ أشدّه ونشاطه أُوتي من فضل الله سبحانه وتعالىٰ الحكمة والعلم، وبسط له من خير الدنيا من مالٍ وجمالٍ ومكانةٍ وعملٍ وسعيٍ للخير وهمّةٍ ونشاطٍ حتىٰ لفت نظر الآخرين وأحبّه المجتمع، وكان موضع الثناء من كل من له به صلة أو معرفة، وتحدّث عنه العزيز، الوزير، الذي هو في بيته، ووصل هذا الثناء إلىٰ امرأة العزيز.

قال تعالىٰ: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾ [يوسف].

كان يوسف، عليه السلام، شاباً جميلاً نشيطاً، فأُغريت به زوجة العزيز التي يُقيم في بيتها، وهي أيضاً رائعة الجمال وفي ريعان الصبا، وصاحبة منصبٍ ومكانةٍ، وامرأة الوزير وبنت أخت ملك مصر الريّان بن الوليد، فقرّرت إغراءه والتمتّع به فازيّنت له، ولبست أفخر ثيابها، وقامت في غرفته تنتظره وهي في أحسن حليةٍ لها حتىٰ إذا دخل غلّقت الأبواب، وقالت له: ها قد هُيئت لك فأقبلْ إليّ، وحرصت علىٰ ذلك أشدّ الحرص. فرأىٰ عليه السلام أن هذا لا يليق بحاله ولا بمكانته، فأجابها: معاذ الله إن سيدي العزيز الذي هو زوجك صاحب البيت قد أكرمني وأحسن إليّ فلا يمكن أن أخونه في أهله، وأفجعه في حليلته، وأظلمه في داره إنه لا يفلح الظالمون. ولقد تحرّكت فيها الشهوة وغلبتها فثارت غرائز النفس غير أنه، عليه السلام، امتنع أشدّ الامتناع إذ عصمه ربه عن الفحشاء، وحماه من كيد النساء ومكرهن، وعصمه عن السوء، ونزهّه عن الفاحشة، وصانه منها، إذ كاد حديث النفس يأخذ دوره عنده، ويهمّ بإشغال الجوارح، ولكن رأىٰ برهان ربّه فتوقّف كل أثرٍ إذ قيل: إنه رأىٰ خيال أبيه يعقوب عاضّاً علىٰ إصبعه بفمه دلالةً علىٰ الغضب. وقيل: إنه

رأىٰ خيال سيّده صاحب البيت. وقيل: إنه رأىٰ آية من آيات الله تزجره عما كان همّ به، إذ صُرفت وساوس الشيطان عنه فهو من المجتبين الأخيار المصطفين الأطهار، صلاة الله وسلامه عليه.

فرّ يوسف، عليه السلام، نحو الباب هارباً من كيدها وفتنتها، فتبعته مسرعةً تطلبه ليرجع إلىٰ البيت، وتحول بينه وبين الباب ليبقىٰ تحت نظرها ومتناول يدها فأمسكت بقميصه فتمزّق القميص نتيجة سرعة يوسف، عليه السلام. واستمرّ يوسف ذاهباً وهي في أثره، فألفيا سيدها (زوجها) عند الباب فوقعت بالحرج العظيم وأرادت تبرئة نفسها والتنصّل من فعلها وإلقاء ذلك علىٰ غيرها واتهام يوسف، عليه السلام، بجريمتها، فقالت: ما جزاء من أراد بأهلك السوء والفاحشة إلا أن يُسجن أو عذاب أليم، فأهلك يمثّلونك أنت، وعندك إمكانية الجزاء وإنزال العقوبة علىٰ المفتري الغادر، فأجاب يوسف، عليه السلام، منتصراً بالحق ومدافعاً عن نفسه مما رمته به من السوء والفحشاء والخيانة والبلاء بالصدق البيّن فقال: هي راودتني عن نفسي، وتبعتني تشدّني إليها وتجذبني نحوها لتُعيدني إلىٰ البيت حيث التعمية عن الآخرين والتصرّف بحريةٍ وتحقيق شهوات النفس.

وسبحان الله القادر القهّار، مدبّر الأمور بحكمةٍ واقتدارٍ، مسيّر الأحوال بعلمٍ وانتظام، فقد كان شاهداً أحد أهل المفتري فنطق بالحق، وتكلّم ببيانٍ إذ رأىٰ زينة الإغراء علىٰ الغادر ودليل الافتراء وهو قطعة القميص الممزّق بيد الظالم الجاني، فالحَكم (القاضي) إذن غير متهمٍ، فهو من ناحيةٍ ابن عمّ زوجة العزيز، ومن خاصّة الملك، هذا من طرف امرأة العزيز، ومن ناحيةٍ ثانيةٍ فقد نطق بالصدق، وتكلّم بالحق، وحكم بالعدل، وهذا من طرف يوسف، عليه السلام. وقيل: إنه كان صبياً في المهد أنطقه الله بالحق لرفع تهمة السوء والفحشاء عن عبده المؤمن يوسف، عليه السلام، وهذا للبشر جميعاً ليعتبر أولو الألباب.

لما رأىٰ القادم، وهو ابن عمّ زوجة العزيز المنظر عند الباب، وكان

قادماً مع زوجها العزيز قال: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ أي في قولها: إنه هو الذي راودها عن نفسها، لأنه يكون لما دعاها وأبت عليه دفعته في صدره فقدّت قميصه فيصحّ ما قالت. ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ وذلك يكون لما هرب منها، وطلبته أمسكت بقميصه من ورائه لتمنعه من الهرب وتردّه إليها فقدّت قميصه من الخلف، وهذا ما حدث ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾ تحقّق زوجها من صدق يوسف، عليه السلام، وكذبها فيما قذفته ورمته به واتهمته، عندها قال الزوج: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ﴾ أي: إن هذه التهمة التي أردتِ إلصاقها بهذا الفتىٰ الطاهر، والبهتان الذي رغبت أن تُلطّخي عرضه به؛ إن هو إلا من كيدكن ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾. ثم التفت إلىٰ يوسف، عليه السلام، آمراً إياه بكتمان ما وقع وتحذيره من ذكر ذلك ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا﴾ ثم اتجه إلىٰ زوجته وقال لها: ﴿وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾. وقد اتخذ معها التساهل ولين العريكة إذ عذرها إذ رأت ما لا صبر لها عنه بسبب الصفات التي بها يوسف، عليه السلام، من جمالٍ وأدبٍ وحسن حديثٍ، بل كان العزيز نفسه يُحدّثها عنه أحياناً.

ولكن الخبر عند النساء لا يلبث أن يشيع وقلما يكتم وخاصةً إن كان من النوع، فشاع هذا الخبر عند نساء الكبار، وأنكرن علىٰ امرأة العزيز ذلك وألصقن العيوب فيها فهي امرأة الوزير والخزائن تحت إشرافه، ومكانته عالية، ومع ذلك فهي أحبت فتاها ووصل حبه إلىٰ شغاف قلبها، وراودته عن نفسه، ودعته إلىٰ نفسها، وما هو إلا غلام (خادم) لها، وبالغن في نقدها، وإلقاء العيب عليها.

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ فلما وصل إليها ما يقلن عنها. ذهب الحب بها، ورغبت أن يَرينه ليعذرنها ويعرفن أن هذا الفتىٰ ليس كما يظنّنّ، ولا كالغلمان الذين عندهن، كما قيل: إن تلك النسوة ما قلن إلا ليرينه، فإنها إن سمعت بما يقلن سعت في أن يرينه.

قال تعالىٰ: ﴿۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾ [يوسف].

دعت امرأة العزيز تلك النسوة اللاتي شنّعن عليها، وأنقصن من قدرها، وأشرن إليها بالعيب والذمّ بعشق غلامها فأحبت أن تُبيّن لهن عُذرها، فأرسلت إليهن فالتقين في بيتها وكانت قد أعدت لهن ضيافةً تليق بهن من أرائك، وكان الأُتْرُج من أنواع الضيافة وهو ما يُنزع قشره بالسكين، وكذا يُقطّع لتناوله، وأعطت كل واحدةٍ منهن سكيناً، وقدّمت لهن الضيافة ودعتهن إلىٰ ذلك. وفي الوقت نفسه كانت هيّأت يوسف، عليه السلام، وطلبت منه أن يلبس أفخر الثياب وقد أعدتها له، وأن يجلس في مكانٍ جهّزته له لا يظهر عليهن، فلما بدأن بتناول فاكهة الأُتْرُج نادته فخرج عليهن، فلما رأينه أخذتهن الدهشة بجماله وقطّعن أيديهن بالسكاكين، وهن يحسبن أنهن يُقطّعن حبّات الأُتْرُج، فلما وصل إليهن كلمنّه قليلاً وهو واقف، ثم طلبت منه أن يرجع ليرينه مقبلاً ومدبراً، فرجع وهن يُقطّعن في أيديهن، فلما أحسسن بالألم ارتفع صوتهن توجّعاً، وأخذن يولولن، فقالت لهن: أنتن من نظرةٍ واحدةٍ فعلتن هذا، فكيف أُلام أنا؟ ﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾. ثم قلن لها: وما نرىٰ عليك من لومٍ بعد هذا الذي رأينا. لأنهن لم يرين مثله في البشر بل ولا شبيهاً إذ أُعطي شطر الحُسن ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ تقول هذا باسم الاعتذار إليهن: إن هذا الفتىٰ حقيق أن يُحبّ لجماله وكماله ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ أي: فامتنع.

أخبرت امرأة العزيز ضيوفها النساء عن صفات يوسف الحسنة التي تخفىٰ عنهن وأولها العِفّة مع هذا الجمال، ثم قالت تتوعّده: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ وكانت هذه النساء قد كلمنه عن ضرورة السمع والطاعة لسيدته وذلك عندما وصل إليهن، فأبىٰ أشدّ الإباء وابتعد عنهن، ودعا ربه: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾. ويعني: يا رب، إن وكّلتني إلىٰ نفسي فليس لي من نفسي إلا العجز والضعف، ولا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله، فأنا ضعيف إلا ما قويتني وعصمتني وحفظتني وأحطتني بقوتك، وإن لم تصرف عني كيدهن أقع في مكرهن وينلن مني ما يرغبن وأكن من الجاهلين.

﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾ [يوسف].

❍ يوسف، عليه السلام، في السجن:

رأىٰ العزيز وامرأته أن يسجنوا يوسف إلىٰ وقتٍ، وذلك بعد أن عرفوا براءته، وتأكّدوا من عفته، وبُعده عن كل ما يمسّ الكرامة أو العِرض. وأن الخبر قد عُرف فإذا تركنا الموضوع فإن ذلك يعني أن امرأة العزيز هي التي عرضت نفسها علىٰ غلامها أما إذا سجنا الغلام فإن ذلك يعني أنه هو الذي قلّل الأدب، وراود سيدته عن نفسها فتمنّعت وأبت، ولذا فقد سُجن عقوبةً لما قام به من سوءٍ. ولقد زُجّ في السجن. وكان في هذا حكمة إذ ابتعد يوسف، عليه السلام، بذلك عن معاشرة أسرة العزيز والابتعاد عنهم بالإقامة.

ويوم دخل يوسف، عليه السلام، السجن دخله معه فتيان فرأوا في زميلهم يوسف، عليه السلام، الفتىٰ الهادئ، المتكلّم باتّزان، المتصف بالأخلاق، المنصرف إلىٰ التفكير.

قال سبحانه وتعالىٰ: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ
ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿٣٥﴾
وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ
أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ
﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا
عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾
وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ
ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٣٨﴾
يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعۡبُدُونَ مِن
دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ
إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا
يَعۡلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ
فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴿٤١﴾﴾ [يوسف].

دخل السجن أيضاً فتيان، كان أحدهما ساقي الملك واسمه (نبوا)، وثانيهما المشرف علىٰ طعام الملك، واسمه (مجلث)، وكان الملك قد اتهمهما في بعض الأمور فسجنهما، والتقيا مع يوسف، عليه السلام، بالسجن، وقد أُعجبا به بكثرة عبادته لربه، وخُلقه، وفعله، فاطمأنا إليه.

رأىٰ هذان الفتيان في ليلةٍ واحدةٍ رؤيا. رأىٰ كل واحدٍ منهما الرؤيا التي تتفق وعمله، حيث رأىٰ الساقي (نبوا) كأن ثلاثة قضبانٍ من حبله قد أورقت وأثمرت عناقيد من العنب وأينعت فأخذها واعتصرها في كأس الملك وقدّمها للملك فأخذها منه وشربها. أما المشرف علىٰ طعام الملك (مجلث) فقد رأىٰ كأن ثلاث سلالٍ من الخبز علىٰ رأسه، وتنزل الطيور الجائعة علىٰ السلّة العليا وتأكل منها.

اقترب هذان الفتيان (نبوا) و(مجلث) في السجن من يوسف، عليه السلام، وقصّا عليه ما رأيا في منامهما، وطلبا منه أن يُعبّر لهما ذلك إذ يريانه

من المحسنين، فوجدها فرصةً طيبةً ومناسبةً حسنةً يدعوهما إلىٰ الله وعبادته وحده لا شريك دون سائر ما تعارف علىٰ عبادته أولئك الذين يعيشون في ضلالٍ مبينٍ، حيث يعبدون الأصنام والتماثيل التي تُصنع وتُنحت، لا تسمع ولا تُجيب، لا تنفع ولا تضرّ، لا تنصر ولا تدفع و. . . .

قال يوسف، عليه السلام: إني عليم بتعبيرها، خبير بأمرها، ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَاۚ﴾ ويعني: مهما رأيتما من حِلمٍ فإني أُعبّره لكما قبل وقوعه فيكون كما أقول. وقيل: إني أخبركما بما يأتيكما من الطعام قبل مجيئه حلواً وحامضاً.

وقال يوسف، عليه السلام، لصاحبيه في السجن: إن هذا من تعليم الله لي لأني مؤمن به، موحّد له، متبع ملّة آبائي: إبراهيم الخليل، وإسحاق، ويعقوب. ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا﴾ بأن هدانا لهذا ﴿وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي: بأن أمرنا أن ندعوهم إليه ونُرشدهم وندلّهم عليه، وهو أمر واضح بالفطرة، ومعروف بالخلقة. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾.

ثم إن يوسف، عليه السلام، دعا صاحبيه في السجن إلىٰ عبادة الله وحده وذمّ عبادة كل ما سواه، واحتقر عبادة الأوثان، وضعّف أمرها. ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۚ﴾ أي: المتصرّف في خلقه الفعّال لما يريد، الذي يهدي من يشاء ويضلّ من يشاء، له الملك وهو علىٰ كل شيءٍ قدير ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ﴾ هو الذي يُعبد وحده لا شريك له ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ أي: ذلك الطريق المستقيم والصراط القويم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا يهتدون إليه مع وضوحه وبيانه وذلك لأنهم يعيشون في ضلالٍ وراء المنافع والشهوات والمصالح والغايات الدنيوية.

وكانت دعوة يوسف، عليه السلام، في هذه الحال في غاية

الكمال، لأن نفسيهما معظمة له، قابلة لتلقّي ما يقول بالقبول، فناسب أن يدعوهما إلىٰ ما هو خير لهما مما سألا عنه وطلبا منه. ولما أدّىٰ ما عليه من واجب الدعوة لله، وأرشد إلىٰ ما يجب أن يُرشد إليه، قال لهما: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ﴾ وسيبقىٰ مع الأحياء، وهو الساقي ﴿وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ﴾ وهو المشرف علىٰ طعام الملك. ﴿قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ﴾ فهذا أمر واقع لا محالة. وكائن علىٰ كل حالة.

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [يوسف].

قال يوسف، عليه السلام، للساقي الذي ظنّه أنه ناجٍ من السجن، وراجع إلىٰ سقاية الملك: اذكرني عند الملك، وما أنا عليه من السجن دون مخالفة أمرٍ أو ارتكاب جريمةٍ، غير أن الساقي قد نسي أن يذكر ذلك للملك، فلبث يوسف، عليه السلام، في السجن بضع سنواتٍ وهي دون العشرة. ولكن يوسف، عليه السلام، قد خرج من السجن بعد هذه السنوات، وسبب خروجه أن ملك مصر (الريان بن الوليد) قد رأىٰ في المنام: أنه كان علىٰ ضفة نهرٍ فخرجت من النهر سبع بقراتٍ سمانٍ، فجعلت ترتع في روضةٍ هناك، ثم خرجت بعدهن سبع بقراتٍ هزيلةٍ وجعلت ترتع معها ثم مالت عليها وأكلتها، ثم استيقظ مذعوراً. وعاد فنام فرأىٰ سبع سنبلاتٍ خضرٍ في نبتة قمحٍ واحدةٍ، وإذ بسبع سنبلاتٍ أخرٍ يابساتٍ قد أكلن السبع الخضر فنهض مذعوراً، لا يعرف لذلك تعبيراً.

قصّ الملك ما رأىٰ في منامه علىٰ ملأٍ من قومه، وقال لهم: فسِّروا لي ما رأيت في منامي.

قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي

رُءۡيَىٰ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٍۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ
بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ ﴿٤٥﴾
يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ
سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزۡرَعُونَ
سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ
بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ
ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يوسف].

فلما قال الملأ من الناس للملك عندما سألهم عن تفسير منامه: أضغاث أحلامٍ وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين عندها تذكّر ساقي الملك وهو (نبوا) تذكّر صديقه في السجن يوسف، عليه السلام، الذي فسّر له حلمه وحلم صديقه الآخر، وقد أحسن التفسير، وجرىٰ ما قال، كما تذكّر أن يوسف، عليه السلام، قد طلب منه أن يذكر أمره للملك وما هو فيه من السجن من غير مخالفةٍ ارتكبها أو جرمٍ أقدم عليه، فرأىٰ (نبوا) أن يقول أنا أخبركم بتأويل منام الملك فيذهب إلىٰ يوسف في السجن، ويقصّ عليه المنام، ويأتي بالجواب اليقين، ونتيجة ذلك يخرج يوسف من السجن ـ إن شاء الله ـ.

وقف (نبوا) وقال للملك ولقومه: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ﴾ أي: أرسلوني إلىٰ يوسف صديق السجن، فسمحوا له بالذهاب، فأتىٰ يوسف، عليه السلام، وقصّ عليه منام الملك وطلب منه التعبير، فعبّر له منام الملك، ودلّهم علىٰ الخير، وأرشدهم إلىٰ ما يفعلون في حالتي الخصب والجدب، وما يفعلونه من ادخار حبوب سني الخصب في السنوات السبع الأُول في سُنبله إلا ما يُؤخذ للأكل، ومن تقليل البذار في السنوات السبع الثانية إذ الغالب أنه لا يردّ البذر من الحقل، وهذا ما يدلّ علىٰ كمال العلم، وتمام الرأي والفهم. فلما سمع الملك ذلك القول السديد والرأي الرشيد قال: ائتوني به.

قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّـٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ قُلْنَ حَـٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ [يوسف].

أراد يوسف، عليه السلام، ألا يخرج من السجن حتىٰ يتبيّن لكل إنسانٍ أنه سُجن ظلماً وأنه بريء مما نُسب إليه زوراً وبهتاناً فطلب من رسول الملك أن يرجع إلىٰ سيده الملك، وأن يسأله ما بال النسوة اللاتي قطّعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم، فإن سيدي العزيز (قطفير) يعلم براءتي مما نُسب إليّ. وأرجو من الملك أن يسألهن كيف كان امتناعي عندما راودنني؟ وكيف كان إغراؤهن وحثّهنّ لي للإقبال علىٰ ذلك الأمر الكريه عليّ البغيض علىٰ نفس المؤمن؟.

سأل الملك تلك النسوة عما حدث فاعترفن بما وقع، وبالموقف الشريف الذي كان من يوسف والذي علىٰ النُّبل والخلق والشرف ﴿قُلْنَ حَـٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾.

وقالت امرأة العزيز عند ذلك، وهي: راعيل (زليخة): قد ظهر الحق وتبيّن، ووضح كل شيءٍ وانكشف ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ وإنه لبريء مما نُسب إليه، فإنه لم يُراودني عن نفسي، وقد سُجن ظلماً وعدواناً، وزوراً وبهتاناً.

فقال يوسف، عليه السلام: إنما طلبت التحقيق ليعلم العزيز (قطفير) أني لم أخنه بالغيب، فإن هذا الأمر لا يمكن أن أُقدم عليه إن شاء الله أبداً، لأنه فاحشة، هذا بالإضافة إلىٰ أن العزيز قطفير قد أكرمني وأحسن مثواي فلا يمكن أن أخونه أبداً ـ إن شاء الله ـ.

وقيل: إن هذا الكلام تتمةٌ لكلام راعيل (زليخة) أي: إنما اعترفت

بهذا ليعلم زوجي أني لم أخنه بالمواقعة، بل كانت مراودةً ولم يقع معها فعل فاحشةٍ.

﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٣﴾﴾ [يوسف]. قيل: إنه من كلام يوسف، وقيل: بل من كلام راعيل (زليخة) وهو أقوىٰ وأوضح. والله أعلم.

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [يوسف].

ولما ظهر للملك براءة يوسف ونزاهته مما نسبوه إليه، قال: ﴿ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ﴾ أي: أجعله من خاصّتي، ومن كبار رجال دولتي، ومن أعيان حاشيتي، فلما كلّمه وسمع قوله وتبيّن له حاله ﴿قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ﴾ أي: ذو مكانةٍ وأمانةٍ وثقةٍ. ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴿٥٥﴾﴾ أي: طلب يوسف من الملك أن يوليه النظر علىٰ مخازن الطعام لما يتوقّع من وقوع خللٍ فيها بعد مضي سنوات الخصب، وكان طلبه ذلك لينظر فيها بما يرضي الله في خلقه من الاحتياط لهم علىٰ الرزق والرفق بهم، وأخبر يوسف، عليه السلام، الملك أنه صاحب إمكانات علىٰ حفظ ما يوكل عليه، وأمين علىٰ ذلك، وعليم بمصالح مخازن الطعام.

وقيل: إن فرعون رفع من مكانة يوسف، عليه السلام، وجعله مشرفاً علىٰ أرض مصر كلها، وحمله علىٰ مركبه الثاني أي الذي يأتي بعد مركبه.

وكان يوسف، عليه السلام، قد بلغ الثلاثين من العمر، فزوّجه الملك امرأةً ذات مكانةٍ.

وقيل: إن الملك فرعون الريّان بن الوليد قد عزل العزيز قطفير عن

وظيفته، ونصّب يوسف مكانه مُشرفاً علىٰ الخزائن فكان وزير صدقٍ.

وقيل: إنه لما مات العزيز قطفير، زوّج الملك الريّان زوجة قطفير وهي راعيل (زليخة) إلىٰ يوسف، فوجدها عذراء، لأن زوجها كان عاجزاً عن إتيان النساء، فولدت ليوسف، عليه السلام، ولدين هما: (أفرايم) و(منسا).

وعمل يوسف، عليه السلام، بالعدل، وأعطىٰ الحقوق لأصحابها، فأحبه الناس في مصر علىٰ اختلافهم. وهكذا فإن يوسف، عليه السلام، بعد الضيق والسجن أصبح سيداً عزيزاً في مصر، مكرماً حيث حلّ ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [يوسف].

ففي الدنيا مكانة ورفعة، وعطاء ونعمة إضافةً ما يُدّخر له في الآخرة من الخير الجزيل والثواب العظيم.

○ سنوات الخير في مصر:

جاءت السنوات السبع السمان في سنابلها السبع الخضراء فعمّ الخير، وشبع الناس، وارتوىٰ المجتمع علىٰ حين كانت البلدان المجاورة قد قلّ الخير فيها، وساد القحط، وكانت السنوات فيها عجافاً جاع الناس وظمئ المجتمع، وغدت القوافل ترتحل إلىٰ مصر تشتري القمح وما يلزمها من الأغذية الثانية، والبضائع الأساسية الأخرىٰ الضرورية للحياة. وكان يوسف، عليه السلام، هو المشرف علىٰ شؤون خزائن مصر ومستودعاتها.

قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ

فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يوسف].

فلما دخل إخوة يوسف عليه عرفهم حيث لم تتغيّر ملامحهم وسماتهم كثيراً، حيث كانوا عندما فارقهم في سنّ ما بعد مرحلة النضج، أما هم فلم يعرفوه إذ كان صغيراً عندما فارقهم لذا تغيّرت سماته وملامحه كثيراً، كما أنهم لم يخطر ببالهم أخوهم يوسف، وهو يحتلّ هذه المكانة وهو غريب عن البلاد وأهلها.

سأل يوسف، عليه السلام، إخوته عن سبب قدومهم فأجابوا: إنا جئنا نمتار (نأخذ الميرة) لشعبنا الذي أصابه الجهد والجوع، وسألهم عن عددهم، فأجابوا: نحن اثنا عشر رجلاً ذهب منا واحد (يقصدونه... يوسف) وصغيرنا عند أبينا (يقصدون بنيامين).

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ أعطاهم من الحبوب ما جرت به عادته، من إعطاء كل إنسانٍ حمل بعيرٍ لا يزيد عليه. ﴿قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾. إذا قدمتم في العام المقبل ائتوني بأخيكم الذي عند أبيكم يزيد عطاؤكم حمل بعيرٍ ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ ألا ترون أنكم قد نزلتم منزلاً حسناً وأحسنت ضيافتكم؟ فرغّبهم وشجّعهم ليأتوه بشقيقه بنيامين، أخيهم الحادي عشر، وبعد هذا التشجيع خوّفهم بأنهم إن لم يأتوا بأخيهم الباقي فإنه لا يُعطيهم حبوباً، ولا ينزلهم عنده، ولا يُقدّم لهم ضيافةً ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ قالوا ليوسف، عليه السلام: سنحاول إقناع أبيه بإرساله معنا، وسنسعىٰ إلىٰ ذلك بكل وسيلةٍ، وسنُوفّق إلىٰ ذلك.

﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾. والبضاعة هي تعويض عن الحبوب (الميرة) التي يأخذونها، وبالعرف التجاري قيمة ما أخذوا من حبوب.

قيل: إنه قد صعُب عليه أن يأخذ من إخوته قيمة غذاء أهلهم.

وقيل: إنه خشي ألا يكون عندهم ما يرجعون به مرةً ثانيةً، فلا يعودون، ولا يرىٰ شقيقه بنيامين.

وقيل: أراد أن يردوها إذا وجدوها في بلادهم فيرجعون إليه ومعهم شقيقه بنيامين.

قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [يوسف].

لما رجع إخوة يوسف، عليه السلام، إلىٰ أبيهم في بلدة الخليل قالوا له: يا أبانا، إنه قد مُنع الكيل بعد عامنا هذا إن لم ترسل معنا أخانا بنيامين، فإن أرسلته معنا يُكتل لنا، ولم يُمنع عنا.

﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى﴾ أيّ شيءٍ نريد أكثر من هذا؟ بضاعتنا قد رُدَّت إلينا، ونأتي لأهلنا من الحبوب بما يكفي أهلنا مدة سنةٍ، ونحفظ أخانا، ونزداد كيل بعيرٍ بسبب زيادتنا ولداً آخراً.

كان يعقوب، عليه السلام، يخاف علىٰ ولده بنيامين بعدما حلّت به مصيبة ولده يوسف، شقيق بنيامين، وكان يعقوب، عليه السلام، يشمّ في

بنيامين رائحة شقيقه، ويتسلّىٰ به، ويتذكّر أمه راحيل التي نزل بها الموت أثناء ولادتها لبنيامين.

أخذ يعقوب، عليه السلام، علىٰ أولاده، وأكّد المواثيق عليهم، وأخذ الاحتياط لنفسه في ولده، ولكن لا يغني حَذَر من قَدَرٍ، ولولا حاجته وحاجة أهله إلىٰ الحبوب لما بعث ولده بنيامين ليزداد له حمل بعيرٍ. ثم أمر أولاده ألا يدخلوا من بابٍ واحدٍ، وإنما يدخلوا من أبوابٍ مُتفرقةٍ خوفاً عليهم من الحسد ومن العين. وربما يكون في تفرّقهم وسيلة للوصول عن خبر ولده يوسف.

انطلق الركب، واتجه إلىٰ مصر، ووصل إلىٰ هدفه، ودخل أفراده علىٰ أخيهم يوسف، عليه السلام.

قال تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ۞ قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [يوسف].

اتخذ يوسف، عليه السلام، الحيلة لإبقاء شقيقه بنيامين عنده،

فعندما دخلوا بأخيهم بنيامين علىٰ شقيقه يوسف عرفه فآواه إليه وأخبره سرّاً بعيداً عنهم أنه أخوه، وأمره بكتم ذلك عنهم، وطلب منه أن ينسىٰ ما كان من إساءةٍ منهم إليه.

ثم اتخذ يوسف، عليه السلام، الحيلة ثانيةً لأخذ شقيقه بنيامين من بينهم، فأمر فتيانه بوضع صواع الملك الذي يكيل به الحبوب والأغذية للناس في أمتعة شقيقه بنيامين، ثم أمر منادياً يُنادي بسرقة صواع الملك، وهذا الصواع هو في الوقت نفسه الوعاء الذي يشرب منه العزيز يوسف كوعاء سقايةٍ، وقد وعدهم جعالةً علىٰ ردّه وهي حمل بعيرٍ، وأنه هو الكفيل بإعطاء حمل البعير كجعالةٍ لردّ الصواع، فأقبل إخوة يوسف، عليه السلام، علىٰ من اتهمهم بالسرقة مستغربين هذه التهمة قائلين: لقد علمتم ـ والله ـ أنّا ما جئنا لنُفسد في الأرض ونسرُق؛ بل جئنا لنأخذ الحبوب والغذاء لأهلينا. فأجابوهم: هذا ادّعاؤكم الذي تدّعونه لكن ما عقوبتكم إن كنتم كاذبين؟ وما جزاء الذي يوجد صواع الملك في رحله. قالوا: الجزاء هو معروف، وهو جزاء من يوجد الصواع في رحله؟ وكان جزاء السارق أن يُؤخذ السارق عبداً لمن سُرق له، هذا هو الجزاء وكذلك نجزي الظالمين.

بدأ بتفتيش أوعية إخوة يوسف قبل تفتيش بنيامين، فذلك أبلغ في الحيلة وأبعد لتهمة بنيامين المباشرة. وما كانت عقوبة عبودية السارق تطبيقاً لشريعة الملك، ولكن اعترافاً منهم بأن هذا جزاء من وُجد الصواع في رحله، ولولا ذلك لما استطاع يوسف، عليه السلام، أخذ شقيقه وإنقاذه من بين أيديهم، ووضعه بجانبه يُعلّمه ويُرشده ويعتني به حيث كان يوسف أعلم منهم وأحسن رأياً وأقوىٰ عزماً وحزماً، وما فعل ذلك إلا عن أمر الله له في ذلك حيث يترتب علىٰ هذا الأمر مصلحة عظيمة بعد ذلك، وهم لا يعلمونها ولا يدرون عنها شيئاً، وهي قدوم أبيه يعقوب وقومه عليه ومجيئهم إليه.

وُجد صواع الملك في رحل بنيامين كما أمر يوسف، عليه السلام، فتيانه بذلك، فبدا حقد إخوته عليه ـ وهم لم يعرفوه بعد علىٰ شقيقه بنيامين ـ قالوا: إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل وكانوا يقصدون أحداثاً وقعت.

قيل: كان يوسف قد سرق صنم جده (ليان) أبي أمه فكسره ـ كرهاً للأصنام ـ.

وقيل: كانت عمته قد علقت بين ثيابه وهو صغير منطقةً كانت لإسحاق، عليه السلام، فاستخرجوها من بين ثيابه، وهو لا يشعر بما صنعت، وإنما أرادت أن يكون عندها وفي حضانتها لمحبتها له.

وقيل: كان يأخذ الطعام من البيت فيطعمه الفقراء.

فلهذا ﴿۞ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًاۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾﴾. وكانت إجابته لهم سرّاً لا جهراً، حلماً وكرماً وصفحاً وعفواً فهو العزيز صاحب العطاء لهم، وهم بحاجةٍ له، وصاحب النفوذ وهم الغرباء الضعفاء. فتلطّفوا وتعطّفوا، فقالوا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾ أي: أطلقنا السارق وأخذنا البريء وهذا ما لا نفعله ولا نسمح به فإن فعلنا ذلك إننا لظالمون. وإنما نأخذ من وجدنا متاعنا عنده لا نتعداه أبداً.

قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّاۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِىۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَاۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًاۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ

يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف].

لما استيأس إخوة من يوسف من أخذ أخيهم بنيامين وإقامة أحدهم مكانه عند العزيز (يوسف) اتجه بعضهم إلىٰ بعضٍ يتناجون فيما بينهم فقال كبيرهم، وهو روبين: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ لتأتونني به إلا أن يُحاط بكم؟ لقد أخلفتم عهده وفرّطتم بأخيكم كما فرّطتم بأخيه يوسف من قبل، فلم يبق لي وجه أُقابل به أبي ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ﴾ أي: لا أزال مقيماً بهذا المكان هاهنا ﴿حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ﴾ بالقدوم عليه ﴿أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ﴾ بأن يُعينني ويُقدّر لي أن أُعيد أخي إلىٰ أبي ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾.

﴿ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ﴾ اذكروا لأبيكم الحادثة كما جرت، ذكر رجلٍ حاضرِ الواقعة، مشاهدٍ تفاصيلها، سامعٍ للحوار الذي جرىٰ. ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقْبَلْنَا فِيهَاۖ﴾ وإن ما أخبرناك به قد شاع وعمّ في مصر، وعرفه رجال القوافل التي كنا نحن وهم هناك، ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾.

ورجع أبناء يعقوب إلىٰ أبيهم وحدّثوه بما عرفوا، وأخبروه بما شاهدوا، غير أنه لم يُصدّقهم، وقال لهم: ليس من خلق بنيامين وسجيته أن يسرق ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًاۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ﴾ وظنّ يعقوب، عليه السلام، أنهم قد صنعوا بأخيهم بنيامين كما صنعوا بأخيهم يوسف من قبل. ورجا ربه أن يُلهمه الصبر ويُعينه علىٰ ذلك، كما دعاه ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًاۚ﴾ يعني: جميع من غاب عنه وهم: يوسف، وبنيامين، وروبين.

﴿وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ ﴿٨٤﴾﴾ أعرض يعقوب عن بنيه، وذكّره ما أصابه الآن بما حلّ به أيام يوسف فتحرّكت كوامن النفس، وأصبحت عيناه بيضاء من كثرة الحزن والبكاء، كما أن أثقال الهمّ جسيمة وشوقه إلىٰ ولده يوسف كبير.

ولما رأىٰ بنوه ما يُقاسي من الحزن وما يُعاني من ألم الفراق ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾﴾. أي: لا تزال تذكر يوسف حتىٰ ينحل جسمك، وتضعف قوتك، وتوهن عزيمتك، فالأولىٰ أن ترفق بنفسك وتصبر علىٰ ما أصابك فإن ذلك من عزم الأمور.

ورأىٰ يعقوب، عليه السلام، من كلام بنيه له تحرّك عاطفة الأبناء علىٰ أبيهم، وحزنهم عليه، وتأثّرهم من حاله التي هو فيها ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾ أي: يقول لبنيه: لا أشكو إليكم ولا إلىٰ أحدٍ من الناس الحالة التي أنا فيها إنما أشكو ذلك إلىٰ الله عزّ وجلّ، وإني أعلم أن الله سيجعل لي مخرجاً وفرجاً مما أنا فيه، وأعلم أن رؤيا يوسف ستقع بإذن الله.

وشجّع يعقوب، عليه السلام، بنيه أن يسألوا عن يوسف وبنيامين، ويبحثوا عن مكانهما الآن. ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف].

رجع إخوة يوسف إلىٰ مصر، وساروا إلىٰ مقرّ وزير الخزائن، عزيز مصر، وقد تسلّم هذا المنصب يوسف، عليه السلام، وإخوته لا يعرفون ذلك. وكان قدومهم للحصول علىٰ الحبوب، والإحسان عليهم بردّ أخيهم بنيامين إليهم.

قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي

ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [يوسف].

رجع إخوة يوسف، عليه السلام، إليه، ودخلوا ورغبتهم أخذ الحبوب والتفضّل عليهم بردّ أخيهم بنيامين إليهم، فقالوا: يا أيها العزيز جاءتنا سنوات عجاف ساد فيها الجدب والقحط فضاقت علينا الحال، وجئنا ببضاعةٍ قليلة الأهمية ضعيفة الشأن لا يُقبل مثلها للحصول علىٰ ما تُقدّمون لنا من خيرٍ، ولكن أملنا في أن تتجاوز عنا. قيل: كانت دراهم قليلةً رديئةً، وقيل: كانت بعض منتجات بلادهم من صنوبرٍ وبُطْمٍ، وقيل: . . . . . . ﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾ تصدّق علينا بقبولها مع ضعفها، وتصدّق علينا بردّ أخينا، وإعطائنا الميرة كالعادة (القمح).

رأىٰ يوسف، عليه السلام، ضعف حالهم، وقلّة مالهم، وسوء وضعهم حتىٰ اضطروا إلىٰ تقديم شكواهم فعطف عليهم، ورقّت نفسه عليهم، فأجابهم بأمر ربهم ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾ فتشتت ذهنهم كيف عرف؟ هل أخبره بنيامين؟ ثم ثبت في ذهنهم أنه هو يوسف نفسه، ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾.

﴿قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى﴾ أنا يوسف الذي صنعتم معه ما صنعتم، وسلف من أمركم، ما فرّطتم فيه. ﴿وَهَٰذَآ أَخِى﴾ وما أصابكم من حسدٍ وغيرةٍ وما عملتم من حيلٍ للتخلص منا.

فما كان من إخوة يوسف وقد شعروا بالضعف، وفُضحت حالهم، وكُشفت حيلهم، وأحسّوا باليأس، مع ما يخالجهم من فرحٍ للقائهم مع

أخيهم يخشون إظهارهم لأفعالهم التي ارتكبوها وما قاموا به من حسدٍ وغيرةٍ، وما ظهر منهم من كيدٍ، فأبدوا ضعفهم وأعلنوا رفعة يوسف، عليه السلام، عليهم وما أعطاه الله دونهم لصدقه وإخلاصه وبرّه بأهله. فسبقهم يوسف، عليه السلام، وأظهر مِنّة الله عليه وعلىٰ شقيقه ﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ﴾ أي: بإحسانه علينا إذ هيّأ لنا ما كان من حمىً وإيواءٍ ومكانةٍ وذلك لطاعتنا لربنا، وصبرنا علىٰ ما كان منكم من كيدٍ وحقدٍ وأذىً، وتقديرنا لأبينا واحترامنا له. ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، وهكذا فقد بدأ يوسف، عليه السلام، لدعوة إخوته إلىٰ الإيمان بعد التمكّن وظهور الحق واضحاً جلياً والحقائق ثابتةً بيّنةً، وما كان لهم إلا أن يعترفوا بالحق ويؤمنوا بالله ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ أي: لقد فضّلك الله علينا وأعطاك ما لم يُعطنا ﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ فيما أقدمنا عليه من حقدٍ وحسدٍ عليكما، وفيما قمنا من حيلٍ أمام أبينا كي يسمح لكما بالخروج معنا، وهاهنا الآن بين يديك يا أخانا العزيز، ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ أي: لا أُعاتبكم علىٰ ما كان منكم بعد يومكم هذا، إذ انقضىٰ ما مضىٰ، وأرجو الله أن يغفر لكم ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

وطلب يوسف، عليه السلام، من إخوته أن يذهبوا بقميصه فيضعوه علىٰ عيني أبيه فسيعود إليه بصره ـ بإذن الله ـ بعدما كان قد فقده ﴿ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا﴾ وهذا في سبيل تذكيرهم بقدرة الله، ويتوجّهوا إلىٰ ذلك. كما طلب منهم أن يحملوا أهلهم جميعاً ويأتوا بهم إلىٰ مصر كي يلتقي شملهم ويعيشوا بخيرٍ.

قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾

﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾ [يوسف].

وسبحان الله العظيم فإن ريحاً جنوبيةً غربيةً هبّت من ناحية مصر إلىٰ جهة منطقة الخليل فشعر يعقوب، عليه السلام، برائحة ولده يوسف، عليه السلام، مع هذه الريح فقال: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ أي تقولون: إنه الخرف وكبر السنّ، وتُسفّهون هذا الكلام، وكان قد مضىٰ علىٰ فراقه ثمانون سنةً. وفعلاً قالوا كلمةً بشعةً.

ووصل ركب أبناء يعقوب، عليه السلام، من مصر، وأُلقي قميص يوسف علىٰ وجه أبيه يعقوب، عليه السلام، فما أن مسّ وجهه حتىٰ رجع بصيراً بعد أن كان ضريراً، فقال لبنيه مباشرةً: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ويقصد أعلم أن الله سيجمع شملي بيوسف، وستقرّ عيني برؤيته، وسأرىٰ فيه ومنه ما يسرّني.

ولما رأىٰ أبناء يعقوب، عليه السلام، ذلك، وسمعوا من أبيهم، وتوقّعوا فعلاً رؤية أبيهم يعقوب لولده يوسف، وسيسمع منه كل ما جرىٰ، لذا طلبوا من أبيهم أن يرضىٰ عنهم، ويستغفر الله لهم، وينسىٰ ما كان ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾﴾، ولما رأىٰ أبوهم يعقوب، عليه السلام، في نيّتهم التوبة، كما أنهم قد فهموا الاستغفار أجابهم عند ذلك إلىٰ ما سألوا قائلاً: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾، وقيل: إن يعقوب، عليه السلام، أجّل الاستغفار لبنيه إلىٰ السحر بقوله: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾. وقد قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾.

سار إخوة يوسف، عليه السلام، مع أبيهم يعقوب، عليه السلام، وأهلهم أجمعين إلىٰ مصر بناء علىٰ طلب يوسف، عليه السلام.

قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ

﴿أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [يوسف].

قدِم يعقوب، عليه السلام، وأهله إلىٰ مصر، بعد غياب ابنه يوسف عنه مدة ثمانين سنةً، وكان الركب يضمّ يعقوب وأبناءه وأهلهم وأولادهم، ويُقدّر عددهم بثلاثةٍ وثمانين إنساناً. ولما اقترب الركب من مصر بعث يعقوب ابنه يهوذا بين يديه مُبشّراً بقدومه. ولما وصلوا إلىٰ أرض (جاشر) وهي بلبيس وتقع علىٰ طريق الشام وتبعد عن مصر (موقع القاهرة اليوم) عشرة فراسخ أي سبعين كيلومتراً خرج ولده يوسف، عليه السلام، لتلقّيه، وخرج مع يوسف الملك وجنده تكريماً ليوسف ولأبيه يعقوب، عليهما السلام.

التقىٰ المستقبلون بالقادمين وكانت دموع الفرح تنهمر، وكانت السعادة بأسمىٰ معانيها، فلما اقتربوا من باب مصر، قال يوسف لأبيه: ﴿وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾، وآوىٰ يوسف إليه أباه وخالته (ليا) والخالة بمنزلة الأم، وهنا كانت زوجة أبيه أيضاً حيث كانت أمه راحيل قد توفيت أثناء ولادتها بنيامين.

ودعا يعقوب، عليه السلام، لملك مصر حيث استقبله، فرفع الله عن مصر بقية سنوات الجدب نعمةً منه لقدوم نبيّه يعقوب إلىٰ ديارهم.

وزار الزائرون مكان العزيز يوسف فرفع أبويه علىٰ مكانه الذي يجلس عليه ﴿وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ﴾ أي: سجد له الأبوان والإخوة الأحد عشر تكريماً وتقديراً، وكان هذا معمولاً به في سائر الشرائع التي كانت قبل الإسلام. وحُرّم في الإسلام سوىٰ السجود لله سبحانه وتعالىٰ.

ولما رأىٰ يوسف، عليه السلام، ذلك قال: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم

مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ [يوسف].

إن الله إذا أراد شيئاً هيّأ له أسبابه، ويسّرها بوجوهٍ لا يهتدي إليها الخلق إن هو العليم الحكيم.

○ وفاة يعقوب، عليه السلام:

أقام نبيّ الله يعقوب في مصر عند ابنه يوسف مدة سبع عشرة سنةً، وكان عمره يوم دخل مصر مائةً وثلاثين سنةً، وبذا بلغ السابعة والأربعين بعد المائة من العمر، وقد توفّاه الله في هذه السنة من العمر. وكان قد أوصىٰ ابنه يوسف، عليه السلام، أن يدفنه عند أبويه إسحاق وإبراهيم الخليل، عليهما السلام، فلما توفي صبّره ورحل به إلىٰ بلاد الشام، فدفنه ببلدة الخليل في المغارة التي دُفن فيها كل من أبيه إسحاق، وجده إبراهيم، وجدته سارّة.

واستأذن يوسف، عليه السلام، ملك مصر بالخروج مع أبيه ليدفنه عند أهله، فأَذِن له، وخرج معه بعض سادات مصر، فساروا إلىٰ بلدة الخليل حيث دُفن هناك.

وأوصىٰ يعقوب، عليه السلام، عندما حضرته الوفاة أبناءه أن يعبدوا الله رب العالمين إلٰههم، وإلٰهه، وإلٰه آبائه إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلٰهاً واحداً. قال تعالىٰ: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [البقرة].

ولما رجع يوسف، عليه السلام، ومن خرج معه إلىٰ الشام لدفن أبيه، عزّىٰ إخوة يوسف أخاهم يوسف بأبيهم، وترفّقوا به، فأكرمهم وأحسن مثواهم، فأقاموا ببلاد مصر.

❍ وفاة يوسف، عليه السلام:

بعد وفاة يعقوب، عليه السلام، بست سنواتٍ حضرت وفاة ابنه يوسف، عليه السلام، عن عمرٍ يناهز مائةً وعشرين سنةً.

أُلقي في الجب وهو ابن	**١٧ سنة.**
وغاب عن أبيه.	**٨٠ سنة.**
وعاش مع أبيه في مصر.	**١٧ سنة.**
وعاش بعد أبيه.	**٦ سنة.**
فيكون عمره، عليه السلام	**١٢٠ سنة.**

عندما حضرت يوسف، عليه السلام، الوفاة أوصىٰ أن يُحمل معهم إذا خرجوا من مصر فيُدفن عند آبائه، فعندما توفي حنّطوه ووضعوه في تابوتٍ، وبقي في مصر حتىٰ أخرجه موسىٰ، عليه السلام، فدفنه عند آبائه.

أبناء يعقوب، عليه السلام

كان ليعقوب، عليه السلام، زوجتان أختان ابنتا خاله (ليان) هما: ليا، وراحيل، كما قدّمتا له جاريتيهما (زلفىٰ) و(بلهىٰ)، فأنجبت هذه النساء الأربع له اثني عشر ولداً وبنتاً واحدةً، وأنجبت كل منهن كما يلي:

ليا	راحيل	زلفىٰ	بلهىٰ
روبين	يوسف	جاد	دان
شمعون	بنيامين	أشير	نفتالي
لاوي			
يهوذا			
يساخر			
زابلون			
دينا (فتاة).			

سهام مسمومة

إن اختلاف الانتماء للأمهات، وميل الأب لأبناء إحداهن أوجد ترابطاً وحسداً وحقداً علىٰ الجانب الآخر. فأبناء ليا بنت ليان أكثر عدداً فهم ستة أولادٍ ذكوراً، وابنة واحدة، والأكبر سناً، وقد ملؤوا البيت بنوةً، وشغلوا أهلهم بهم، وملكوا عاطفة الأبوة وانضمّ إليهم بعد ذلك أبناء الجاريتين (زلفىٰ) و(بلهىٰ) كأطفالٍ انضمّوا إلىٰ إخوتهم الأطفال، فصار عددهم عشرةً مع البنت (دينا).

أنجبت راحيل بنت ليان ولدها الأول يوسف فنشأ مع إخوته وبينهم،

ولكن بعد أن حدّث أباه بما رأىٰ: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [يوسف]. انتبه يعقوب، عليه السلام، إلىٰ معنىٰ هذه الرؤيا، وأن شأناً كبيراً سيكون لهذا الولد الذي رأىٰ تلك الرؤيا، وربما سيكون نبياً ذات مكانةٍ فنبّهه: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾ [يوسف].

أخذ يوسف، عليه السلام، بنصيحة أبيه فلم يذكر رؤياه لإخوته، وخفّف من الكلام كي لا ينسىٰ وينطق بشيءٍ من ذلك، فشعر الإخوة بقلة حديثه معهم.

ومال الأب نحو ولده يوسف لما سيكون له من مكانةٍ، ولمسؤولية النبوة التي سيحملها في المستقبل. وفي الوقت نفسه كان الأب يميل إلىٰ (راحيل) أكثر من أختها (ليا) لما تتميز به من صفاتٍ مثل: الجمال، والخدمة، والعاطفة، وحسن المعاشرة، وكان قد طلبها من خاله قبل أن يطلب منه أختها كما مرّ معنا. ثم إن راحيل قد توفيت أثناء ولادتها ابنها بنيامين، وقد قاست الكثير من الأوجاع، وهذا ما زاد من الميل نحوها وبقائه يذكرها بخيرٍ، ويرىٰ في وليدها أثراً منها، وهذا ما زاد من محبتها بعد موتها ومن عطفه علىٰ أبنائها، وشعر أبناؤه الآخرون بالغيرة من أخويهم. كما أن نساء يعقوب، عليه السلام، الثلاث الباقيات يتحدثن فيما بينهن عن بقاء أثر (راحيل) الراحلة في نفس زوجهنّ، وقد يسمع أبناؤهن بعض الحديث فتزيد الغيرة عندهم والحقد عليهم، والحسد لهم، وفكّروا بالتخلّص من أخيهم يوسف، وكان الذي كان ـ وذكرناه ـ.

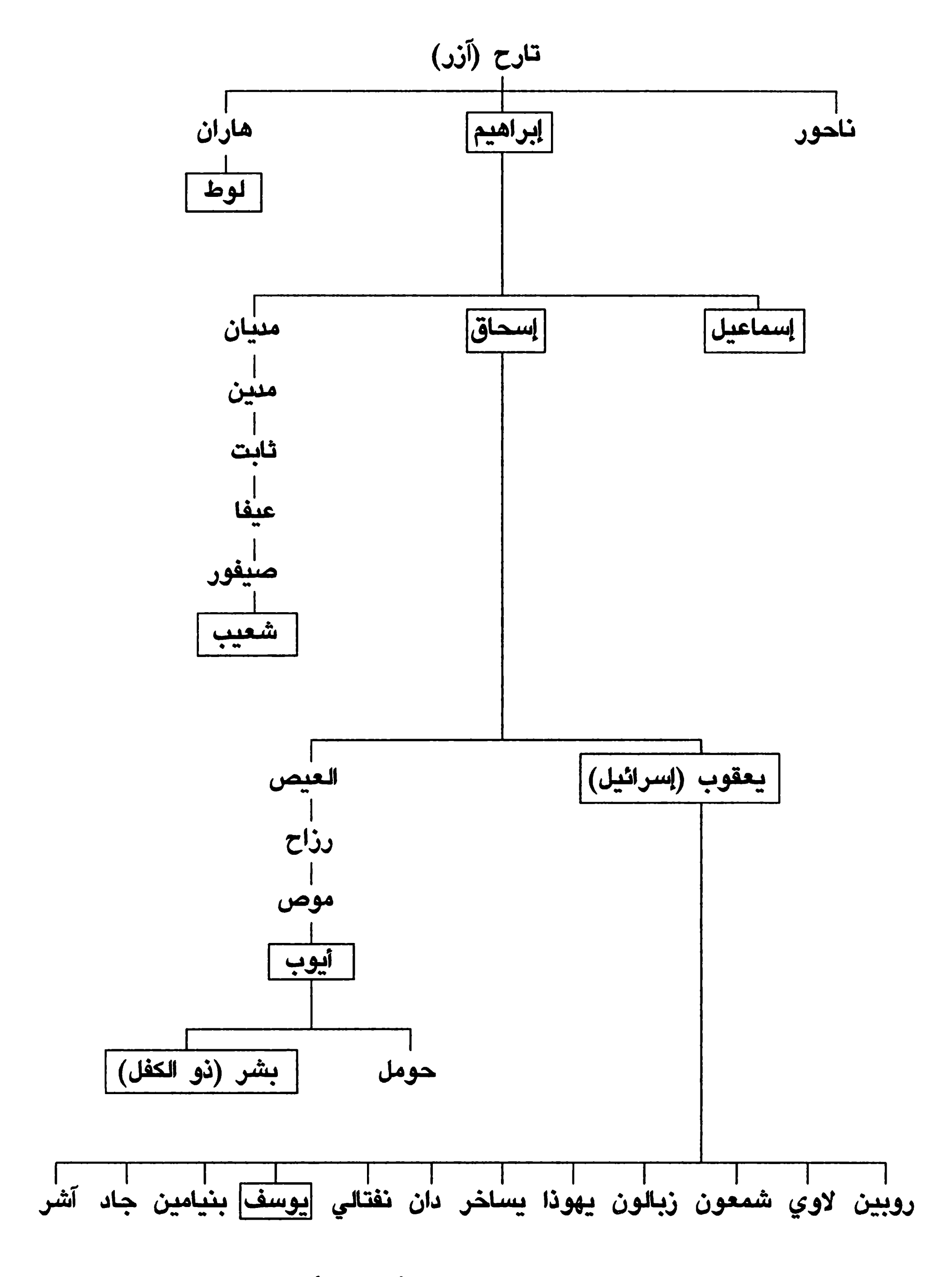
وهكذا كان الارتباط بالأم أكثر من الارتباط بالأب عند أولاد

يعقوب، عليه السلام، من ناحية أبناء (ليا) بنت ليان، وشاركهم إخوتهم من (زلفىٰ) و(بلهىٰ)، ولم يقع في هذا ابنا (راحيل) بنت ليان لكرامة ونبوة يوسف، وصغر بنيامين وتأثّره بشقيقه يوسف، عليه السلام.

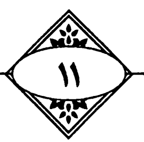
وورث اليهود هذا من آبائهم أبناء يعقوب (إسرائيل). وصارت المرأة ذات مكانةٍ عندهم وتختلف عما هي عند بقية الأمم، يُنسب إليها من تُنجب من أي مصدرٍ كان سواء أكان ذلك من الزوج الشرعي أم من الخليل الوقتي، أي سواء أكان بالحلّ أم بالحرام. لذا اتخذ اليهود النساء وسيلةً لزيادة أبناء عقيدتهم، أو لزيادة عددهم، فيرسلون المرأة لتُؤدّي هذه المهمة دون النظر إلىٰ الحلال والحرام، ودون البحث في العِرض والشرف وما ينظر إليه الأحرار وأصحاب المروءة وأهل الدين.

وكذا كان تأثيرهم بالفرق الضالة التي تعود بأفكارها إليهم كأحفاد ديصان، وابن نصير. وهكذا سقوا العالم من كؤوسٍ مسمومةٍ مما شربوا من حرامٍ، وأصابوا الناس بسهامٍ مسمومةٍ بما رموا من مغفلين.

كما أنهم اتخذوا النساء وسيلةً لكسب المال لتحقيق آمالهم، وتنفيذ مشروعاتهم اليهودية، ومراكز الفحش العالمية، والمخططات التخريبية. وفي الوقت نفسه عُرفوا من القديم بأنهم عبدة المال. فالشكوىٰ إلىٰ الله، ولا حول ولا قوة إلا به.



أسماء الأنبياء ضمن إطار مستطيل



لوط، عليه السلام

لوط[1]، عليه السلام، بن هاران بن تارح (آزر) أي: هو ابن أخي إبراهيم الخليل، وقد عاش في أيام عمّه إبراهيم الخليل، عليه السلام، وفي منطقته (الخليل)، ولما زاد السكان في هذه المنطقة قلّت الخيرات عن الناس فانتقل لوط، عليه السلام، بأمر عمه إبراهيم وإذنه إلىٰ الغور فنزل بمدينة سدوم في البحر الميت (بحيرة لوط) وهي الآن تحت مياه هذا البحر بستة أمتارٍ، وكانت لها قرىً تتبعها، وأهل المنطقة كلها من أهل الفجور، وسوء السريرة، وجحود النعمة، والكفر، وقبح السيرة، وبشاعة الطوية، ويأتون في ناديهم المنكر، ولا يتناهون عن منكرٍ فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون.

اتخذوا فاحشة اللواط وهي إتيان الذكران شهوةً من دون النساء، ما يأتي إليهم غريب إلا يتبعونه ويطلبون دون خجلٍ ولا حياءٍ دون ناصحٍ ينصحهم، ولا رادعٍ يردعهم، ولا كبيرٍ ينهاهم بل لا يبالون بأحدٍ ولا يسمعون كلاماً من مرشدٍ بل يتباهون بذلك، ويفتخرون، ويحضّون علىٰ ذلك.

جاءهم لوط، عليه السلام، فأخذ يدعوهم إلىٰ عبادة الله وحده لا شريك له، وينهاهم عن تعاطي المحرمات، وارتكاب الفواحش والمنكرات فتمادوا في غيّهم، وتابعوا غوايتهم حتىٰ نزل بهم بأس الله وحلّ عليهم عذابه.

قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ

(١) انظر المصور رقم (٣) الصفحة (٢٤٩)، والمصور رقم (٦) الصفحة (٢٥٢).

قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأعراف].

وتمادىٰ قوم لوطٍ بسفههم ومنكراتهم، فحلّ عليهم العذاب وأرسل الله إليهم الملائكة ليُنزل بهم ما يستحقّون، ومرّت الملائكة علىٰ إبراهيم الخليل يُبشّرونه وزوجه سارة بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب، ويخبرونه بما يُنزلون بقوم لوطٍ، فجادلهم وأخيراً أعلموه بما سيحلّ بقوم لوطٍ، وأن لوطاً وأهله سينجون مما يُصيب قومه إلا امرأة لوطٍ فإنها لن تنجو وسيُصيبها ما يصيب قومها إذ أنها تستحق ذلك حيث تقبل أفعال القوم ولا تُنكره عليهم.

ولما جاءت الملائكة إلىٰ لوطٍ علىٰ هيئة بشرٍ فتضايق لوط، عليه السلام، وضاق بضيوفه إذ خشي قومه وتصرّفهم وإساءتهم. وفعلاً جاءه قومه يُسرعون إليه فأقبل عليهم يطلب منهم ألا يُخزوه في ضيوفه، فها هي بنات البلد هنّ أطهر لكم أليس فيكم صاحب عقلٍ وسدادٍ، قالوا: إنك تعلم أننا لا نريد بناتك وإنك تعرف ماذا نبغي ونريد، إننا نريد الذين عندك وفي ضيافتك، فأجابهم: حبذا لو كانت لي قوة أمنعكم مما تريدون وأُلزمكم ترك هذه الفاحشة، أو أستطيع اللجوء إلىٰ ركنٍ شديدٍ يحول بيني وبينكم، فأخبره ضيوفه من الملائكة أن قومه لن يصلوا إليه، وليسر هو بجزءٍ من الليل ولا يلتفت أحد منكم إلىٰ الوراء إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم إن موعدهم صبح غدٍ. فلما جاء الصبح أتاهم العذاب من حيث لا يشعرون، وأصبح عالي البلد أسفلها، وتساقطت عليهم أحجار كانهمار المطر قاسية صلدة كل مهيّأ لصاحبه ومحدّد له يرميه بالذات كأنه يعرفه، وبانخفاض المنطقة أصبحت بحيرةً منتنةً، وماؤها ملح أُجاج، وتُعرف الآن باسم البحر الميت حيث لا تقوم فيها حياة لملوحتها، وتنخفض مياهها ٣٩٤م عن مستوىٰ سطح البحار في العالم، كما أن المياه فيها تغطي عمق ٤٠٠م وبذا يكون العمق الذي هبط ٧٩٤م ويضاف إلىٰ ذلك هبوط المنطقة بالنسبة إلىٰ جوارها

المرتفع. وهذا الانخفاض الذي يقال عنه: أخفض بقعة في العالم ليعتبر صاحب العقل، ألا فاعتبروا يا أولي الألباب، واخشوا عذاب الله. ﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [التوبة].

دعا لوط، عليه السلام، قومه إلىٰ عبادة الله وحده لا شريك له، ونهاهم عن الفواحش التي يرتكبونها، فلم يستجب له إنسان واحد بل استمرّوا في غيّهم وضلالهم، بل همّوا بإخراج رسولهم لوط من بين ظهرانيهم إذ استضعفوه وسخروا منه ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النمل].

ومع تلك الأعمال الفاحشة التي يرتكبونها كانوا يقطعون الطريق، ويأتون في ناديهم المنكر بالأعمال المنكرة ولما أتىٰ الملائكة إلىٰ أرض سدوم في صور شبّانٍ حسانٍ ونزلوا عند لوطٍ، عليه السلام، فضاق بهم ذرعاً، وكان وقت غروب الشمس، وخاف إن لم يقبلهم وينزلهم عنده أن ينزلوا عند غيره ويكون البلاء وتكون الطامة الكبرىٰ، وذلك أنه حسبهم أناس من البشر، وأخذ يُدافع عنهم، وقد خشي من هذا الدفاع حيث كان قومه قد اشترطوا عليه أن لا يضيف أحداً. ولكن كان ما لا بُدّ منه.

ولما دخل الضيوف بيت لوط، عليه السلام، لم يعلم بهم أحد إلا أهل البيت، فخرجت امرأته فأخبرت قومها، فقالت: إن في بيت لوطٍ رجالاً ما رأيت مثل وجوههم نضارةً، فجاءه قومه يهرعون إليه، فخاطبهم: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ [هود: ٧٨]. قال مرشداً قومه أن يأتوا نساءهم، وقال: (بناتي)، لأن النبي للأمة بمنزلة الوالد. قال تعالىٰ: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦].

لم ينته رجال قوم لوط ولم يرعووا؛ بل كلما نهاهم نبيهم يزيدون في طلب الضيوف والعمل علىٰ الوصول إليهم والباب مغلق وهم يرومون فتحه والدخول، فخرج أحد الضيوف من الملائكة وضرب وجوههم خفقةً بطرف جناحه فرجعوا بعدها يتحسّسون الجدران ويتوعّدون، ويقولون: إذا

كان الغد كان لنا وله شأن. قال سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ [القمر: ٣٧].

أمر الملائكة لوطاً، عليه السلام، أن يسري وأهله آخر الليل ولا يلتفت منهم أحد عند سماع صوت العذاب إذا نزل بقومه، كما أمروه أن لا تسير امرأته معهم، فإنه سيصيبها ما يصيب قومه.

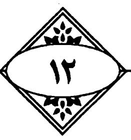
خرج لوط، عليه السلام، بأهله، وهم ابنتاه: (ريثا) الكبرىٰ و(زغرتا) وهي الصغرىٰ، ويقال لها: (زغر) ولم يخرج معهم رجل واحد. ويقال: إن امرأته واسمها (والهة) قد خرجت معهم، ولكن التفتت إلىٰ الوراء فأصابها العذاب.

طلب الملائكة من لوط، عليه السلام، أن يرتقي جبلاً هناك، فاستبعد الجبل، فسألهم أن يذهب إلىٰ قرية قريبة منهم هي (صوعر)، وتعرف الآن بـ(غور زغر)، فلما وصل لوط، عليه السلام، ومن معه إليها، واستقروا فيها أشرقت الشمس ونزل بقومه العذاب. وكان أن رُفعت المنطقة وتضمّ سبع مدنٍ بمن فيها من الناس ويقاربون أربعة آلاف إنسانٍ مع ما معهم من حيواناتٍ، ثم قُلبت عليهم فجعل عاليها سافلها، وأُمطرت عليهم حجارة صلبة. ولهذا ذكر بعض العلماء إلىٰ أن الذي يرتكب فاحشة اللواط يقضىٰ عليه بالرجم سواء أكان محصناً أم لم يكن. وكان ممن ذكر ذلك الشافعي وأحمد بن حنبل وغيرهم.

روىٰ الإمام أحمد وغيره من حديث عمرو بن أبي عمرو، عن عكرمة، عن ابن عباس، رضي الله عنهما، أن رسول الله، صلىٰ الله عليه وسلم، قال: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوطٍ؛ فاقتلوا الفاعل والمفعول به».

وذهب أبو حنيفة إلىٰ أن اللائط يُلقىٰ من جبلٍ شاهقٍ ويُرمىٰ بالحجارة كما فُعل بقوم لوطٍ.

وبقي المكان عبرةً وعظةً لمن خشي الرحمٰن بالغيب، وخاف عذاب الآخرة.



شعيب، عليه السلام

شعيب[1]، عليه السلام، بن صيفور بن عيفا بن ثابت بن مدين بن مديان بن إبراهيم الخليل، عليه السلام. وقد أقام مدين بن مديان بن إبراهيم الخليل، عليه السلام، في المنطقة التي تقع شمال غربي جزيرة العرب فتقع غرب تبوك (الأيكة) وتشرف علىٰ خليج العقبة، وقد نُسبت إليه فيقال: بلاد مَدين إلىٰ اليوم، وكانت قاعدتها ما عُرف باسم (مدائن شعيب) وهي ما يُعرف اليوم باسم (البدع) وتقع في وادي (عيفال).

وشعيب، عليه السلام، من العرب، وفي حديث أبي ذر في «صحيح ابن حبّان» في ذكر الأنبياء والرسل قال: «أربعة من العرب: هود، وصالح، وشعيب، ونبيك يا أبا ذر».

وروىٰ ابن إسحاق عن بشر عن جويبر ومقاتل، عن الضحاك، عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: كان رسول الله، صلىٰ الله عليه وسلم، إذا ذُكر شعيب قال: «ذاك خطيب الأنبياء». لفصاحته وبلاغته وعلو عبارته في أسلوب دعوته.

ويقال: إن جدته، بنت لوط، عليه السلام.

وبُعث شعيب، عليه السلام، إلىٰ أهل مدين وإلىٰ أصحاب الأيكة (تبوك). والأيكة شجرة من الأيك حولها غيضة من الأشجار.

كان أهل مدين كفاراً يقطعون الطريق علىٰ القوافل والمسافرين، ويخيفون المارة، ويأخذون منهم المكوس غصباً، وهو العشر، وهم أول من

(١) انظر المصور رقم (٣) الصفحة (٢٤٩)، والمصور رقم (٤) الصفحة (٢٥٠).

فعل ذلك، ويبخسون المكيال والميزان فيُطففون لمصلحتهم وينقصون لغيرهم ويعاملون الناس عامةً أسوأ معاملة، وكان أصحاب الأيكة يعبدون الأيكة.

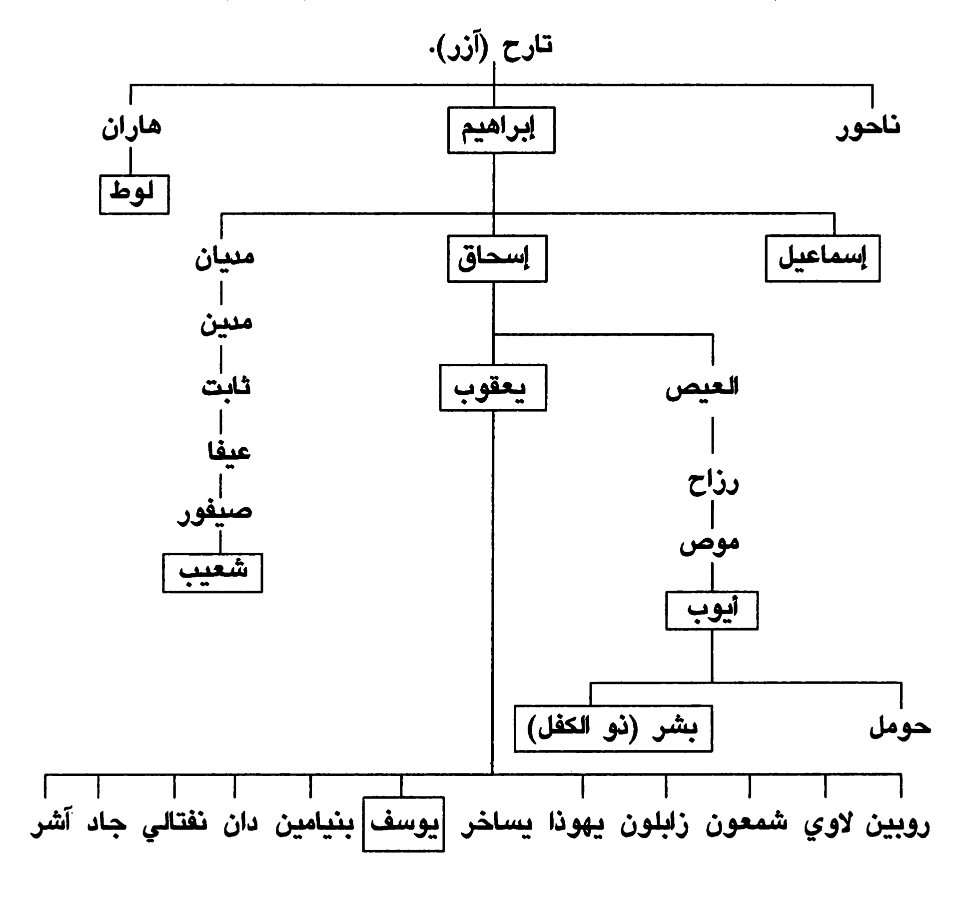
دعا شعيب، عليه السلام، قومه لعبادة الله وحده لا شريك له، ونهاهم عن الأعمال السيئة إذ يبخسون الناس أشياءهم، ويخيفونهم في طرقاتهم، ويأكلون الحرام مما يأخذونه زيادةً في تطفيف الميزان والمكيال لمصلحتهم ومما يُنقصونه علىٰ غيرهم، فآمن بعضهم وبقي علىٰ كفره وسوء معاملته أكثرهم.

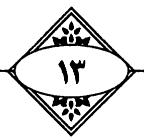
قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟
ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ
أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا
تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ
إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن
نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ
﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ
أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ
عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ
نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ
ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا
لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ
أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ
﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ
وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا
وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ
﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾ [هود].

وتمادىٰ الذين كفروا في غيّهم، وتطاولوا بألسنتهم، وأساؤوا بأفعالهم، وهـــدّدوا: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ فجاء أمر الله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الأعراف].

وجاء في عذابهم: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [هود]. و﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [الأعراف]. و﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾﴾ [الشعراء]. ذُكر أنه أصابهم حرّ شديد، وأسكن الله عنهم هبوب الهواء مدة سبعة أيامٍ. فكان لا يُفيدهم مع ذلك ماء ولا ظلّ ولا دخولهم في سربٍ، فهربوا من محلتهم إلىٰ البرية فأظلّتهم سحابة، فاجتمعوا تحتها ليستظلّوا بظلّها، فلما تكاملوا فيه أرسلها الله ترميهم بشررٍ وشُهُبٍ، ورجفت بهم الأرض، وجاءتهم صيحة من السماء، فأزهقت الأرواح.

وذكر أن شعيباً، عليه السلام، قد مات هو والذين معه من المؤمنين بمكة، وقبورهم غرب الكعبة بين دار الندوة ودار بني سهم.





أيوب، عليه السلام

أيوب[١]، عليه السلام، بن موص بن رزاح بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم الخليل. وقيل: إن امرأته رحمة بنت أفرائيم بن يوسف. وقيل: ليا بنت منسا بن يوسف.

كان أيوب، عليه السلام، كثير المال، كثير العبيد، كثير المواشي، كثير الأرض الواسعة في منطقة حوران من بلاد الشام، في جنوبي سورية اليوم. كما كان كثير الولد والأهل. فسُلب منه ذلك جميعاً، وابتُلي في جسمه ولم يبق منه عضو سليم سوىٰ قلبه ولسانه، يذكر الله عزّ وجلّ بهما. وهو في ذلك كله صابر، شاكر، محتسب، يذكر الله عزّ وجلّ ليلاً نهاراً.

طال مرض أيوب، عليه السلام، حتىٰ ملّ الناس زيارته فانقطعت، وترك الأهل رؤيته فانفصمت، وأُلقي خارج بيته علىٰ مزبلةٍ هناك، ونُسيت القرابة، ولم يعد أحد يحنو عليه سوىٰ زوجته التي كانت ترعىٰ له حقه، وتذكر ماضي إحسانه إليها، وعطفه عليها، وعشرته لها، فكانت تتردد إليه فتصلح من شأنه، وتعينه علىٰ قضاء حاجته، وتقوم بمصلحته. وضعف حالها، وقلّ مالها حتىٰ صارت تقوم بخدمة الناس بالأجر كي تطعمه وتقوم بأوده، وهي صابرة معه علىٰ ما حلّ بهما من ذهاب المال وفراق الأهل والولد.

كان أول ما أصابه الجدري.

قد اختُلف في مدة ابتلائه، فقيل: ثلاث سنواتٍ، وقيل: سبع

(١) انظر المصور رقم (٥) الصفحة (٢٥١)، والمصور رقم (٦) الصفحة (٢٥٢).

سنواتٍ وأشهر، وقيل: مكث في بلواه ثماني عشرة سنةً.

وقيل: تساقط لحمه حتىٰ لم يبق إلا العظم والعصب وعروق الدم، فكانت امرأته تأتيه بالرماد تفرشه تحته، فلما طال عليها ذلك، قالت: يا أيوب، لو دعوت ربك ليفرّج عنك، فقال: قد عشت سبعين سنةً في صحةٍ وعافيةٍ ونعمةٍ، فهل قليل أن أصبر سبعين سنةً؟ فجزعت من هذا الكلام.

كانت امرأة أيوب، عليه السلام، تخدم الناس بالأجر وتطعم زوجها أيوب، ثم ترك الناس استخدامها لعلمهم أنها امرأة أيوب خوفاً من أن تصل إليهم العدوىٰ بمخالطته، ولم تعد تجد أحداً يستخدمها، فباعت لبعض بنات الأشراف إحدىٰ ضفيرتيها بطعامٍ طيّبٍ كثيرٍ، فأتت به أيوب فقال لها: من أين لك هذا؟ وأنكره، فقالت: خدمت به أناساً. فلما كان الغد لم تجد أحداً فباعت الضفيرة الثانية بطعامٍ فأتت به، فأنكره أيضاً، وحلف أن لا يأكله حتىٰ تخبره من أين لها هذا الطعام؟ فرفعت خمارها عن رأسها، فلما رأىٰ رأسها خالياً من الضفائر دعا ربه: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنبياء].

روىٰ البخاري: حدّثنا عبد الله بن محمد الجُعفي، حدّثنا عبد الرزاق، أخبرنا معْمر عن همّام، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي، صلىٰ الله عليه وسلم، قال: «بينما أيوب يغتسل عُرياناً، خرّ عليه رِجل[1] جرادٍ من ذهبٍ، فجعل يحثي في ثوبه فناداىٰ ربُّه: يا أيوب، ألم أكن أغنيتك عما ترىٰ؟ قال: بلىٰ يا رب، ولكن لا غنى لي عن بركتك»[2].

قال ابن عباس، رضي الله عنهما: ردّ الله عليه ماله وولده بأعيانهم، ومثلهم معهم.

---

(١) رِجل: سرب.

(٢) «صحيح البخاري»: (٣٣٩١).

قيل: أحياهم الله بأعيانهم، وقيل: آجره فيمن سلف، وعوّضه عنهم في الدنيا بدلاً عنهم، وجمع له شمله بهم جميعاً في الدار الآخرة. ورفع الله عن أيوب شدّته، وكشف عنه ما به من ضرٍّ رحمةً من الله به ورأفةً وإحساناً، وتذكرةً لكل مؤمنٍ يُبتلىٰ في جسمه أو ماله أو ولده فله أسوة بنبيّ الله أيوب، عليه السلام، الذي ابتلاه الله بما هو أعظم من ذلك فصبر واحتسب، ثم فرّج الله عنه.

وردّ الله لزوجة أيوب، عليه السلام، شبابها وزادها صحةً حتىٰ ولدت له ستةً وعشرين ولداً ذكراً.

وعاش أيوب، عليه السلام، سبعين سنةً بعد ذلك.

وقيل: إن نبيّ الله أيوب، عليه السلام، أقسم ليضربن امرأته مائة سوطٍ عندما باعت ضفائرها، وقيل: لأن الشيطان اعترض لها في صورة طبيبٍ يصف لها دواءً لزوجها أيوب، فجاءته فأخبرته فعرف أنه الشيطان فأقسم ليضربنها مائة سوطٍ. فلما عافاه الله عزّ وجلّ أفتاه أن يأخذ غصناً ويجمع الفروع كلها، ويضربها به ضربةً واحدةً، ويكون بمنزلة الضرب بمائة سوطٍ، ويبرّ بقسمه ولا يحنث. ويكون هذا فرجاً ومخرجاً لمن اتقىٰ الله وأطاعه، وخاصةً في حق امرأته الصابرة المحتسبة، المكابدة الصديقة البارة الراشدة: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ [صٓ].

وبذا يكون أيوب، عليه السلام، قد عاش ما يقرب من مائةٍ وخمسين سنةً، وهي:

٧٠	سنة	**قبل الابتلاء في نعمةٍ ونعيمٍ.**
٧	سنوات	**ابتلاء.**
٧٠	سنة	**بعد الابتلاء في نعمةٍ ونعيمٍ.**
١٤٧		**وقد ذكرنا أن مدة الابتلاء غير متفق عليها.**



ذو الكفل، عليه السلام

ذو الكفل، عليه السلام، هو بشر بن أيوب، عليه السلام، حسبما ذكر ذلك بعضهم، وقيل: غير ذلك.

وذُكر أن اليسع، عليه السلام، عندما كبر قال: لو أني استخلفت رجلاً علىٰ الناس يعمل عليهم في حياتي، حتىٰ أنظر كيف يعمل؟ فجمع الناس فقال: من يتقبل مني بثلاثٍ أستخلفه: يصوم النهار، ويقوم الليل، ولا يغضب. فقام رجل تزدريه العين، فقال: أنا، فقال: أنت تصوم النهار، وتقوم الليل، ولا تغضب؟ قال: نعم، فردّه ذلك اليوم، وقال مثلها في اليوم الآخر، فسكت الناس، وقام ذلك الرجل، فقال: أنا، فاستخلفه.

حاول الشيطان أن يغضبه إذ تعرّض له عدة مراتٍ، إذ يأتيه إلىٰ البيت ويطلب منه طلباتٍ صعبةً لا يمكن تحقيقها ولكن لم يغضب فسمّي ذا الكفل.

قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنبياء].

وقال الله سبحانه وتعالىٰ أيضاً: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾﴾ [صۤ].

وقال بعضهم: ما كان ذو الكفل نبياً، ولكن كان رجلاً صالحاً كثير العبادة قام مكان رجلٍ عابدٍ فسمّي ذا الكفل.

والرأي الأول أكثر رجاحةً، إذ ذُكر في كتاب الله مع الأنبياء ـ والله أعلم ـ.

١٥

يونس، عليه السلام

بعث الله يونس بن متّىٰ[1] إلىٰ أهل نينوىٰ من أرض الموصل بالعراق، وإلىٰ الشرق من مدينة الموصل، وكانت قاعدة الآشوريين فدعاهم إلىٰ عبادة الله وحده لا شريك له فكذّبوه، ورفضوا دعوته، وتمسّكوا بكفرهم وعنادهم، فلما طال ذلك عليه وآذاه كفرهم وعنادهم، خرج من بين أظهرهم مغاضباً وأنذرهم بالعقوبة ونزول العذاب بهم قريباً.

ركب يونس، عليه السلام، سفينةً وجدها علىٰ شاطئ البحر فاضطربت السفينة بركابها وماجت لكثرة ركابها مما زاد بثقل حمولتها، وكاد الركاب يغرقون، فتشاوروا فيما بينهم علىٰ أن يقترعوا، فمن وقعت عليه القرعة ألقوه من السفينة ليخفّ وزن حمولتها فغرق واحدٍ أفضل من غرق الجميع.

اقترع الركاب فوقعت القرعة علىٰ نبيّ الله يونس، عليه السلام، فلم يسمحوا به، فأعادوها ثانيةً فوقعت عليه أيضاً، فشمّر ليخلع ثيابه ويُلقي بنفسه، فأبوا عليه ذلك، ثم أعادوا القرعة ثالثةً فوقعت عليه أيضاً لما يريده الله به من الأمر العظيم، قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾﴾ [الصافات]. وذلك أنه لما وقعت عليه القرعة أُلقي في البحر، وبعث الله عزّ وجلّ حوتاً عظيماً من البحر فالتقمه، وأمره الله تعالىٰ أن لا يأكل منه لحماً ولا يكسر له عظماً فما هو له برزق. وسُمّي لذلك يونس،

(١) انظر المصور رقم (٤)، الصفحة (٢٥٠).

عليه السلام، ذا النون (صاحب الحوت) إذ تعني كلمة (نون) الحوت.

قيل: ولما استقرّ في جوف الحوت ظنّ أنه قد مات فحرّك بعض جسمه فتحرّك، فإذا هو حيّ فخرّ لله ساجداً بقلبه، وقال: يا رب، اتخذت لك مسجداً في موضعٍ لم يعبدك أحد في مثله.

قيل: التقمه الحوت ضحىً ولفظه عشيةً، وقيل: مكث في جوفه ثلاثة أيامٍ، وقيل: سبعة أيامٍ. وقال بعضهم: أربعين يوماً ـ والله أعلم ـ.

قال بعض السلف ومنهم: ابن مسعود، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وقتادة وآخرون أن يونس، عليه السلام، لما خرج من بين ظهراني قومه، وتحققوا نزول العذاب بهم قذف الله في قلوبهم الإيمان فأظهروا التوبة وأبدوا الإنابة، وندموا علىٰ ما كان منهم إلىٰ نبيهم فلبسوا المسوح، وتضرّعوا إلىٰ الله، وبكىٰ الناس من رجالٍ ونساء وبنين وبنات فكشف الله سبحانه وتعالىٰ بقوته ورحمته عنهم العذاب الذي كان قد اتصل بهم سببه. قال تعالىٰ: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾ [يونس].

لما أظهر أهل نينوىٰ الندم علىٰ عنادهم لنبيّهم، وتكذيبهم له، واستمرارهم علىٰ كفرهم، فبعد ندمهم ومعرفتهم للحق كشف الله عنهم الخزي في الحياة الدنيا.

وكان سكان نينوىٰ وما حولها يزيدون علىٰ مائةِ ألف، قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَأَرْسَلْنَـٰهُ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾ [الصافات]. وقد اختلفوا في هذه الزيادة علىٰ مائة ألفٍ، فقيل: عشرة آلافٍ، وقيل: عشرون ألفاً، وقيل: ثلاثون ألفاً، وقيل: أربعون ألفاً، وقيل: سبعون ألفاً ـ والله سبحانه وتعالىٰ أعلم ـ.

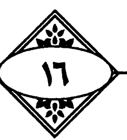
ولكن هل ينفع أهل نينوىٰ هذا الإيمان الذي تمّ بعد رؤية العذاب فينقذهم من عذاب الآخرة كما أنقذهم من عذاب الدنيا، نرجو من الله العلي القدير أن ينفعهم، وهذا ما تتقبّله النفس، ويثبت في القلب ما دام

قد ذُكر في كتاب الله أنه إيمان ﴿لَمَّآ ءَامَنُوا۟﴾ و﴿فَـَٔامَنُوا۟﴾. والله سبحانه وتعالىٰ هو اللطيف الخبير، الرؤوف الرحيم، الغفور الودود، الفعّال لما يريد.

وجعل الحوت بعدما ابتلع يونس، عليه السلام، يطوف في المياه، ويونس يسمع وهو في جوف الحوت تسبيح الحيتان والحصىٰ لله ربّ العالمين فشعر، عليه السلام، بخطئه عندما خرج من نينوىٰ مغاضبةً للناس لعنادهم وتمسّكهم بكفرهم فسبّح الله وحمده ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء]. ظنّ يونس، عليه السلام، أن لا يُضيّق عليه (أن لن نقدر عليه)، فنادىٰ في الظلمات، ظلمات البحر، وظلمات جوف الليل، وظلمات جوف الحوت.

قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الصافات]. ولولا أن سبّح يونس، عليه السلام، الله، وتاب إليه، واعترف بالخضوع له، ورجع إليه لبقي في جوف الحوت إلىٰ يوم القيامة، ولبُعث من جوف ذلك الحوت.

اقترب الحوت من الشاطئ، وقذف بيونس علىٰ الشاطئ، وجسمه سقيم كفرخ الطير ليس علىٰ جسمه ريش، فأنبت الله عليه شجرةً من يقطين. وورق اليقطين كثير، وذو ظلّ، وناعم، ولا يقربه الذباب، ويؤكل ثمره من بداية ظهوره إلىٰ آخره، نيئاً ومطبوخاً بقشره وبزره، وفيه فائدة جمة ومنها أنه يُقوّي الدماغ ﴿۞ فَنَبَذْنَـٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾﴾ [الصافات].



موسىٰ، عليه السلام

موسىٰ[1]، عليه السلام، بن عمران بن قاهت بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل. ودخل بنو يعقوب (إسرائيل) مصر مع أهليهم أيام يوسف بن يعقوب، عليهما السلام، واستقرّوا فيها، و(لاوي) والد جد موسىٰ، عليه السلام، هو أخو يوسف.

كان بنو يعقوب (إسرائيل) يتناقلون فيما بينهم ما يُؤثر عن إبراهيم الخليل، عليه السلام، من أنه سيخرج من ذريته غلام يكون هلاك فرعون ملك مصر علىٰ يديه. وذلك ـ والله أعلم ـ حين أراد فرعون السوء بـ(سارّة) زوجة إبراهيم الخليل، أم إسحاق، وعصمها الله سبحانه وتعالىٰ. ووصلت هذه المعلومات إلىٰ فرعون. فأمر فرعون بقتل أبناء بني إسرائيل حذراً من وجود هذا الغلام.

وقيل: إن فرعون رأىٰ في منامه، كأن ناراً قد أقبلت من جهة بيت المقدس فأحرقت دور الأقباط في مصر جميعاً، ولم تُؤذِ بني إسرائيل. فلما استيقظ هاله الأمر كثيراً وأخافه فجمع الكهنة والسحرة وسألهم عن ذلك، فقالوا: هذا غلام يولد من بني إسرائيل وأصولهم من جهة بيت المقدس، ويكون سبب هلاك أهل مصر علىٰ يديه. فلهذا أمر بقتل الغلمان وترك الإناث كي لا يوجد ذاك الغلام.

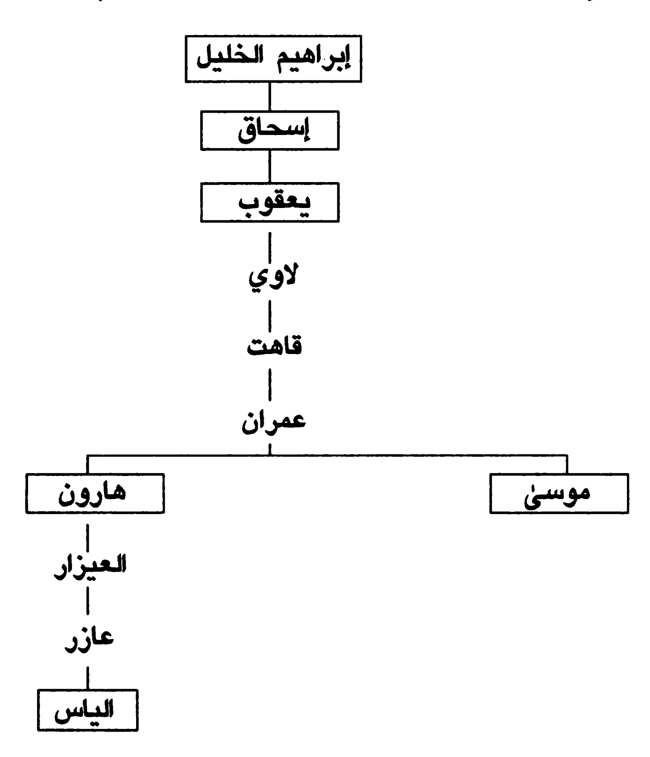
وقيل: إن القبط قد شكوا إلىٰ فرعون قلّة بني إسرائيل الذين يُسخّرونهم بالأعمال ويستخدمونهم بالمهمّات، وما تلك القلّة إلا بسبب قتل غلمانهم، وسيفنىٰ الكبار ولا يوجد من يحلّ محلّهم فإن انتهىٰ رجال بني إسرائيل، فإن

---

(١) انظر المصور رقم (٣)، الصفحة (٢٤٩).

علىٰ القبط أن يتولّوا الأعمال التي كان يقوم بها بنو إسرائيل وحتىٰ الأعمال الحقيرة منها. فأمر فرعون أن يُقتل أبناء بني إسرائيل عاماً ويتركوا عاماً.

واسم أم موسىٰ (أيارخا) وقد ولدت ابنها هارون في عام المسامحة الذي لا يقتل فيه أبناء بني إسرائيل. أما موسىٰ فقد وُلد في عام قتلهم فضاقت أمه به ذرعاً، واحترزت من أول ما حملت به، ولم يكن يظهر عليها عوامل الحمل. فلما وضعت أُلهمت أن تتخذ له تابوتاً، ربطته في حبلٍ، وكان بيتها مجاوراً لنهر النيل. فكانت تُرضعه فإذا خشيت من أحدٍ وضعته في ذلك التابوت، وأرسلته في النهر، وأمسكت طرف الحبل عندها، فإذا ذهبوا من عندها استرجعته بالحبل إليها. وكانت لا تتركه عندها خوفاً من أن يبكي ويسمع من عندها بكاءه فتقع بما كانت تخشاه، وأُلقي في عقلها ألا تخافي ولا تحزني، فإن ذهب فإن الله سيردّه إليك، وإن الله سيجعله نبياً مرسلاً. قال تعالىٰ: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾ [القصص].



كانت أم موسىٰ تصنع ما وقع في خلدها، فأرسلته ذات يومٍ، وذهلت أن تربط طرف الحبل عندها فذهبت به مياه نهر النيل فمرّ علىٰ دار فرعون، فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً.

ذُكر أن جواري فرعون هُنّ اللواتي التقطن التابوت الذي فيه الطفل موسىٰ، فوجدن التابوت مغلقاً فلم يتجاسرن علىٰ فتحه حتىٰ وضعنه بين يدي امرأة فرعون (آسية بنت مزاحم بن عبيد بن الريّان بن الوليد)، والريّان بن الوليد هو الذي كان فرعون مصر أيام يوسف، عليه السلام.

وقيل: إن امرأة فرعون (آسية) كانت من بني إسرائيل، وقيل: بل كانت عمّة موسىٰ، عليه السلام. ولما فُتح التابوت ورأت وجه موسىٰ، عليه السلام، أحبته حباً جمّاً. ولما جاء زوجها فرعون ورأىٰ الطفل عندها، قال: ما هذا؟ وأمر بذبحه، فاستوهبته منه ودافعت عنه، وقالت: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾ فقال لها فرعون: أما لك فنعم وأما لي فلا. فتابعت قائلةً: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وقد نفعها فعلاً في الدنيا إذ هداها الله به وتنال بذلك ـ إن شاء الله ـ الجنّة. ولم يكن لهما ولد حيث لا يُنجبان، ولكن لا يشعرون ما سيحلّ بفرعون وجنوده عن طريقه.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾ [القصص].

لقد فرغ فؤاد أم موسىٰ من أمور الدنيا كلها إلا من ولدها موسىٰ حتىٰ كادت تكشف أمره وتسأل عنه جهرةً، ولكن رحمة الله شملتها فصبرت وتحمّلت وثبتت ثبات المؤمنين، وقالت لأخته الكبرىٰ: اتبعي أثره، وتقصّي خبره، وأتني بما تصلي إليه من خبرٍ.

كانت أخت موسىٰ تنظر إليه من بعيدٍ ولكن لا تظهر أنها تريده، وذلك أن آل فرعون حاولوا تغذيته، وأتوا له بالمراضع، ولكن لم يكن يقبل ثدياً، ولم يأخذ شراباً مغذّياً. وبذلوا جهداً ولكن دون جدوىٰ، فبعثوا به مع القابلات والنساء إلىٰ السوق عسىٰ أن يجدوا من يوافق علىٰ رضاعته. وكان ذات مرةً علىٰ أيديهن بالسوق إذ بصرت به أخته ولم تظهر أنها تعرفه، ولكن قالت لهم: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ فقالوا لها: وما يدريك بنصحهم له وحنانهم عليه؟ فقالت: إرضاءً للملك وأملاً بالوصول إلىٰ منفعةٍ عن طريقه.

○ رجوع موسىٰ إلىٰ أمه:

سارت النساء اللواتي معهن موسىٰ مع أخته إلىٰ بيتها وهنّ لا يعرفنها، فأخذته أمه ووضعته علىٰ صدرها وقرّبت له ثديها فالتقمه وأخذ بالرضاعة، ويمصّ الثدي بشغفٍ ورغبةٍ، وفرحت النسوة فرحاً شديداً، وأرسلن من يخبر امرأة فرعون آسية بما جرىٰ.

استدعت امرأة فرعون إلىٰ منزلها أم موسىٰ، وعرضت عليها أن تكون عندها وأن تُحسن إليها فأبت أم موسىٰ، وقالت: إن لي زوجاً وأولاداً، ولست أقدر علىٰ هذا، إلا أن تُرسليه معي، فأرسلته معها، وأجرت لها النفقات والكسوة والأُعطيات، فرجعت أم موسىٰ بولدها موسىٰ سعيدةً، والسعادة بادية علىٰ وجهها والفرحة ظاهرة عليها، وذلك بمنّةٍ من الله.

قال تعالىٰ: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾ [القصص].

○ خروج موسىٰ من مصر:

ونضج موسىٰ، عليه السلام، وبلغ أشدّه وآتاه الله حكماً وعلماً. ودخل المدينة منتصف النهار فوجد فيها رجلين يقتتلان أحدهما: قبطي، والآخر: إسرائيلي، فعرفه الإسرائيلي فهو وإياه من بني يعقوب (إسرائيل).

فاستغاثه الإسرائيلي علىٰ القبطي، وكان قد أصبح لموسىٰ مكانة إذ نشأ في بيت فرعون، وكذلك فقد تبنّاه لأن فرعون ذاك ليس له أولاد. كما أن بني إسرائيل قد علا شأنهم إذ أرضعوا موسىٰ ونصحوا له ومن هو هو!! إنه الذي نشأ في بيت فرعون ويُعدّ ولده.

لما استغاث الإسرائيلي موسىٰ علىٰ القبطي، اتجه موسىٰ نحو القبطي ولم يُرد قتله بل زجره وتأديبه، فضربه بجمع كفّه فكانت ضربةً قاضيةً، فتألّم موسىٰ، وقال: إن هذا من عمل الشيطان إنه عدوّ مضلّ مبين.

قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾ [القصص].

استغفر موسىٰ، عليه السلام، ربه بعد أن قتل القبطي، وما كان يريد سوىٰ تأديبه فغفر الله له، إن الله هو الغفور الرحيم. ولكن موسىٰ، عليه السلام، أصبح في البلد خائفاً من فرعون ومن حوله بل ومن الأقباط جميعاً أن يعلموا أنه إنما قتل هذا القبطي نصرةً لرجل من بني إسرائيل، فيعرفوا أن موسىٰ إنما هو من بني إسرائيل فتكون النتيجة صعبةً.

أصبح موسىٰ، عليه السلام، يسير في المدينة خائفاً يتلفّت يميناً وشمالاً هل من أحدٍ ينظر إليه أو يُراقبه، فإذا به يرىٰ ذلك الإسرائيلي الذي استنصره أمس يستصرخه اليوم بحماسةٍ ويستنجده بقوةٍ ويستنصره بلهفٍ ويستغيثه برجاءٍ فنظر إليه، فلما رآه رجل الأمس عبس في وجهه، وقال: إنك لصاحب مشكلاتٍ مع الناس، ثم رغب أن يبطش بذلك القبطي المتغطرس فيردعه ويُنقذ منه ذلك الإسرائيلي فلما عزم علىٰ ذلك وأقبل نحو القبطي، قال القبطي: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا

بِٱلۡأَمۡسِۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ١٩﴾ [القصص]. إذ عرف القبطي موسىٰ، وعرف مكانته كما يبدو أنه رآه بالأمس يقتل الرجل فعرف قوته فقال ما قال.

ذهب القبطي إلىٰ فرعون وشكا له موسىٰ وأنه هو قاتل ذلك القتيل بالأمس، فلما عرف فرعون ذلك أرسل في طلب موسىٰ، ولكن كان هناك رجل من الناصحين يميل إلىٰ موسىٰ ويشفق عليه، فجاء مسرعاً إلىٰ موسىٰ وسبق رسول فرعون إلىٰ موسىٰ، وأخبره الذي يجري، قال تعالىٰ: ﴿وَجَآءَ رَجُلٞ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ فَٱخۡرُجۡ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٢٠﴾ [القصص].

خرج موسىٰ، عليه السلام، من مدينة مصر فوراً لا يعرف، إلىٰ أين يسير ويدعو ربه: ﴿رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢١﴾ [القصص].

كان فرعون رجلاً جبّاراً، طاغيةً عاتيةً يستضعف طائفةً من قومه وهم بنو يعقوب، وآثر الحياة الدنيا، ولا يلتفت إلىٰ ما بعد ذلك أبداً، وهذا ما زاد من خوف موسىٰ، عليه السلام، فخرج متجهاً نحو المشرق باتجاه بلاد مدين، ولم يكن معه سوىٰ غلامه (يوشع بن نون، فلما وصلا إلىٰ سيناء سارا جنوباً حتىٰ وصلا إلىٰ مياه خليج السويس سارا علىٰ الشاطئ الشرقي للخليج وذلك لقلّة المياه في سيناء فأحبّ موسىٰ، عليه السلام، بقاءهم قريباً من المياه للاستفادة منها إضافةً إلىٰ ما عساه أن يلتقي بالرجل الصالح كما وعده الله سبحانه وتعالىٰ.

روىٰ البخاري: حدثنا الحميدي، حدّثنا سفيان، حدّثنا عمرو بن دينار، قال: أخبرني سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: إن نوفا البكالي يزعم أن موسىٰ صاحب الخضر ليس هو موسىٰ صاحب بني إسرائيل، فقال ابن عباس: كذب عدوّ الله، حدثني أُبي بن كعب أنه سمع رسول الله، صلىٰ الله عليه وسلم، يقول: «إن موسىٰ قام خطيباً في بني إسرائيل، فسئل: أي الناس أعلم؟ فقال: أنا. فعتب الله عليه إذ لم يَرُدّ

العلم إليه، فأوحىٰ الله إليه: إن لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك. قال موسىٰ: يا رب كيف لي به؟ قال: تأخذ معك حوتاً فتجعله في مِكْتَل، فحيثما فقدت الحوت فهو ثمَّ. فأخذ حوتاً فجعله في مِكْتَلٍ ثم انطلق، وانطلق معه فتاه يوشع بن نون بالحوت، حتىٰ إذا أتيا الصخرة عند مجمع البحرين (عند التقاء خليج السويس مع خليج العقبة) وضعا رأسيهما فناما، فاضطرب الحوت في المكتل فخرج منه فسقط في البحر، فاتخذ سبيله في البحر سرباً، وأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار مثل الطاق، فلما استيقظ موسىٰ، عليه السلام، نسي صاحبه أن يخبره بالحوت، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما، حتىٰ إذا كان من الغد قال موسىٰ لفتاه: آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً. قال: ولم يجد موسىٰ النصب (التعب) حتىٰ جاوز المكان الذي أمر الله به، فقال له فتاه: أرأيت إذ أوينا إلىٰ الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره، واتخذ سبيله في البحر عجباً. قال: فكان للحوت سرباً، ولموسىٰ ولفتاه عجباً. فقال موسىٰ: ذلك ما كنا نبغي، فارتدا علىٰ آثارهما قصصاً، قال: رجعا يَقُصَّان آثارهما حتىٰ إذا انتهيا إلىٰ الصخرة فإذا رجل مُسَجّىً ثوباً، فسلّم عليه موسىٰ، فقال: وأنىٰ بأرضك السلام، قال: أنا موسىٰ، قال: موسىٰ بني إسرائيل؟ قال: نعم، أتيتك لتُعلّمني مما عُلّمت رشداً. قال: إنك لن تستطيع معي صبراً. يا موسىٰ إني علىٰ علمٍ من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت، وأنت علىٰ علمٍ من علم الله علّمك الله لا أعلمه. فقال موسىٰ: ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً، فقال له الخضر: فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيءٍ حتىٰ أُحدث لك منه ذكراً. فانطلقا يمشيان علىٰ ساحل البحر (ساحل خليج العقبة الغربي ـ ساحل سيناء علىٰ الخليج ـ) فمرّت سفينة، فكلّموهم أن يحملوهم، فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نول ـ أجر ـ. فلما ركبا في السفينة لم يُفاجأ إلا والخضر قد قلع لوحاً من ألواح السفينة بالقدّوم. فقال له موسىٰ: قوم

حملونا بغير نول ـ أجر ـ، عمدت إلىٰ سفينتهم فخرقتها لتُغرق أهلها، لقد جئت شيئاً إمراً. قال: ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً؟ قال: لا تُؤاخذني بما نسيت، ولا ترهقني من أمر عسراً. قال: وقال رسول الله، صلىٰ الله عليه وسلم: «وكانت الأولىٰ من موسىٰ نسياناً». قال: وجاء عصفور فوقع علىٰ حرف السفينة فنقر في البحر نقرةً، فقال له الخضر: ما علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقّص هذا العصفور من هذا البحر. ثم خرجا من السفينة، فبينا هما يمشيان علىٰ الساحل إذ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر رأسه بيده فاقتلعه بيده فقتله. قال له موسىٰ: أقتلت نفساً زكيةً بغير نفسٍ؟ لقد جئت شيئاً نُكراً. قال: ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً. قال: وهذه أشدّ من الأولىٰ. قال: إن سألتك عن شيءٍ بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذراً. فانطلقا، حتىٰ إذا أتيا أهل قريةٍ، فأبوا أن يضيّفوهما، فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقضّ ـ قال: مائل ـ فقام الخضر فأقامه بيده. فقال موسىٰ: قوم أتيناهم فلم يُطعمونا ولم يُضيّفونا، لو شئت لاتخذت عليه أجراً. قال: هذا فراق بيني وبينك ـ إلىٰ قوله ـ ذلك تأويل ما لم تستطع عليه صبراً. فقال رسول الله، صلىٰ الله عليه وسلم: «وَدِدْنا أن موسىٰ كان صبر حتىٰ يقصّ الله علينا من خبرهما». قال سعيد بن جبير: فكان ابن عباس يقرأ: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ ـ صالحةٍ ـ غَصْبًا﴾ وكان يقرأ: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَـٰمُ فَكَانَ ـ كافرا ـ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾[1].

وقبل أن يفترقا أوّل الخضر لموسىٰ ما تمّ وأنبأه أن ما فعله إنما فعله عن أمر ربه، قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿قَالَ هَـٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَـٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَـٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ

(١) «فتح الباري شرح صحيح البخاري»: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني: ٤٧٢٥.

مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾ [الكهف].

وافترق موسىٰ والخضر عن بعضهما، وسار كل منهما في طريق.

○ مسير موسىٰ، عليه السلام، إلىٰ مدين:

بعد أن افترق موسىٰ والخضر، تابع موسىٰ، عليه السلام، ومعه غلامه يوشع بن نون بالاتجاه شمالاً علىٰ ساحل خليج العقبة الغربي في أرض سيناء حتىٰ وصلا إلىٰ شمال الخليج فاتجهوا إلىٰ الشرق قليلاً في بلاد مدين، فلما وصلوا إلىٰ وادي عيفال الذي يتجه جنوباً ويصب في شمالي البحر الأحمر.

قال تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾ [القصص].

وصل موسىٰ، عليه السلام، وغلامه يوشع بن نون إلىٰ قاعدة بلاد مدين وهي مدائن شعيب، وتسمّىٰ اليوم (البدع)، وتقع في وادي (عيفال) إلىٰ الغرب من مدينة (تبوك) وعلىٰ بُعد تسعين كيلو متراً منها.

قال تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [القصص].

ولما وصل موسىٰ، عليه السلام، إلىٰ مدينة مدين وهي مدينة (مدائن شعيب) أو (البدع) اليوم مرّ علىٰ ماء المدينة، وهو بئر، وكان الناس يستقون من تلك البئر، ويزدحمون عليها، ويسقون أغنامهم أيضاً، ويحتاج إخراج الماء بالدلاء إلىٰ قوة الرجال، ووجد امرأتين بعيدتين عن البئر،

ومعهما أوعية فارغة للمياه، وتحتاجان إلىٰ من يملئها لهما، وكانتا تذودان أغنامهما وتمنعاها من الاختلاط بأغنام الناس الآخرين، فسألهما: ما خطبكما؟ فقالتا: لا نستطيع ورود الماء إلا بعد صدور الرعاء عنه لأننا نساء، وأما ممارستنا للرعي مع ضعفنا فذلك لأن أبانا شيخ كبير.

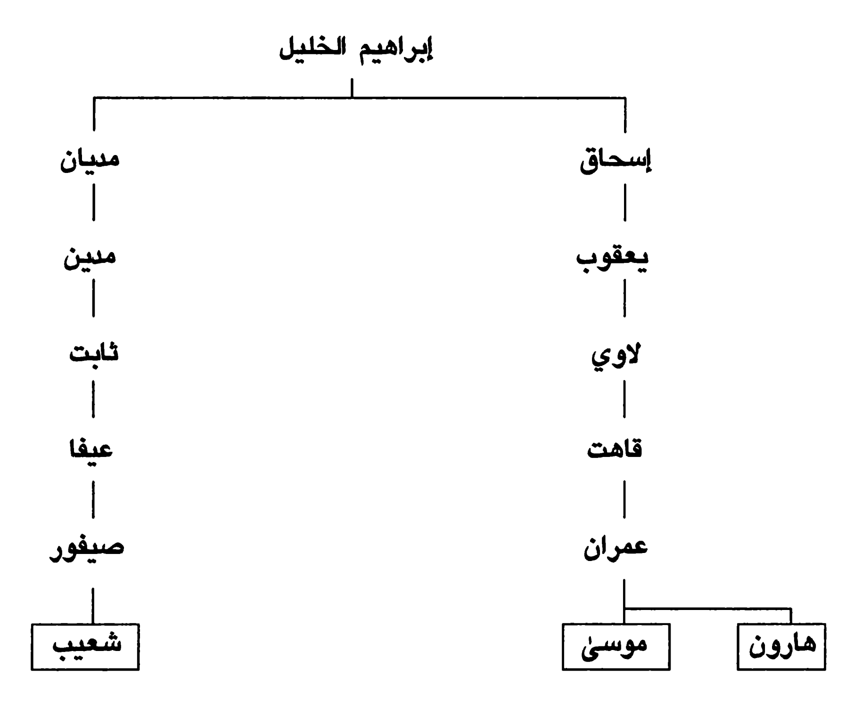
وكان الرعاة إذا فرغوا من سقاية أغنامهم وضعوا صخرةً كبيرةً علىٰ فم البئر، فتأتي هاتان المرأتان وتسقيان غنمهما مما يزيد علىٰ أغنام الناس الآخرين، هكذا كانت عادتهما، فلما كان هذا اليوم جاء موسىٰ، عليه السلام، ورفع الصخرة عن البئر وحده، وكان لا يرفعها إلا عشرة رجال، ثم استقىٰ لهما، وسقىٰ غنمهما، ثم ردّ الصخرة كما كانت، وقد استخرج دلواً واحداً من الماء فكفاهما.

بعد أن سقىٰ موسىٰ، عليه السلام، للمرأتين ذهب وجلس تحت ظلّ شجرةٍ من السَّمُر، فنظر إليها وأغصانها تتحرّك وتتمايل، وأوراقها ترفرف، وكان جائعاً بطنه لاصق بظهره إذ سار من مصر إلىٰ مدين لم يأكل إلا البقل وورق الشجر، فدعا ربه: ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [القصص].

قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [القصص].

لما جلس موسىٰ، عليه السلام، بالظلّ، ودعا ربه سمعت المرأتان دعاءه، فعرفتا إيمانه، وكان أبوهما قد استنكر سرعة رجوعهما علىٰ غير العادة فسألهما فأخبرتاه بما كان من أمر موسىٰ، عليه السلام، ووصفتاه بالفتىٰ الشهم صاحب الخلق القويم، الذي لا يرفع رأسه إذا تكلم، ولا ينظر إذا تحدّث، القوي الأمين، يرفع صخرة البئر وحده وبسهولةٍ، وهي التي يتعاون عشرة علىٰ رفعها، ويعيدها وحده بيسرٍ ودون عناءٍ، فأمر الأب إحداهما أن تذهب إليه، وتدعوه له، وهي التي كان كلامها عنه أكثر أثراً.

ذهبت تلك المرأة علىٰ خجلٍ واستحياء يدلّان علىٰ أنها من أسرةٍ طيبةٍ، أسرة خُلقٍ ودينٍ، لم تعرف نساؤها الاختلاط، ولا الحديث مع الرجال الغرباء، فقالت باستحياء: إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا، وأنا أمامك لمعرفة الطريق، وسارت أمامه، فقال لها: كوني ورائي، فإذا اختلف الطريق فاحذفي لي بحصاةٍ أعلم بها كيف الطريق. وكانت تمشي دون حركةٍ أو التفاتٍ بخط مستقيم، وسيرٍ سويٍ، وأدبٍ واضحٍ.



جاء موسىٰ، عليه السلام، إلىٰ والد الفتاتين، ويُدعىٰ شعيب، وقد يكون هو النبي شعيب، عليه السلام، كما ذكره بعضهم، ومنهم الحسن البصري، ومالك بن أنس، فزمنهما واحد حسبما يظهر من الجدول، وقد كنت أحسب غير ذلك. وروي أن والد الفتاتين اسمه شعيب وكان سيد الماء، وهو غير النبي، وقيل: إنه ابن أخي شعيب، وقيل: ابن عمه، وقيل: رجل مؤمن من قوم النبي شعيب، عليه السلام، وقيل: رجل اسمه (يثرون) وكان كبير مدين.

أكرم شعيب مدين ضيفه موسىٰ، عليه السلام، وأحسن مثواه، وقصّ عليه موسىٰ ما كان من أمره وأنه خائف، فقال له شعيب: لا تخف فإنك قد نجوت من سلطان فرعون الطاغية الظالم، وأنت الآن لست في دولتهم ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [القصص].

قالت إحدىٰ الفتاتين: استأجره يا أبت لرعي أغنامنا فإنه قوي وإنه أمين ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾ [القصص].

شعر شعيب أن ابنته تريد موسىٰ بعدما وصفته بالقوة والأمانة، فقال لها: وما علمك بهذا؟ فقالت: إنه رفع صخرةً لا يطيق رفعها إلا عشرة، وأنه لما جئت معه تقدّمت أمامه، فقال: كوني من ورائي، فإذا اختلف الطريق فاحذفي لي بحصاةٍ أعلم بها كيف الطريق.

فهم الأب رغبة ابنته ومغذىٰ كلامها، فقال لموسىٰ: أريد أن أستأجرك لرعي غنمي مدة ثمان سنواتٍ، وأزوّجك إحدىٰ ابنتي هاتين، وإذا أكرمتني وجعلت مدة الرعي عشر سنواتٍ فهذا كرم منك، وما أريد أن أُتعبك، وستجدني إن شاء الله من الصالحين الذين ترتاح نفسك إليهم.

قال الله تعالىٰ علىٰ لسان شعيب: ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [القصص].

فأجاب موسىٰ، عليه السلام: الأمر علىٰ ما قلت، فأيّهما قضيت فلا عدوان عليّ، والله علىٰ مقالتنا سامع وشاهد، ووكيل عليّ وعليك. وأكمل موسىٰ، عليه السلام، أكمل الأجلين وأتمهما، وهو عشر سنواتٍ كاملةً.

روىٰ ابن ماجه في كتاب الرهون، باب إجازة الأجير علىٰ طعام بطنه. قال: حدثنا أبو زرعة، حدثنا صفوان، حدثنا الوليد، حدثنا عبد الله بن لهِيعة، عن الحارث بن يزيد الحضرمي، عن علي بن رباح اللخمي، قال: سمعت عتبة بن النُدَّر السلمي صاحب رسول الله، صلىٰ الله عليه وسلم، يُحدّث أن رسول الله، صلىٰ الله عليه وسلم، قال: «إن

موسىٰ أجر نفسه ثماني سنوات أو عشراً بعفة فرجه وطعام بطنه»[1].

○ عودة موسىٰ، عليه السلام، إلىٰ مصر:

لما قضىٰ موسىٰ، عليه السلام، الأجل علىٰ أكمله، ظهر عليه الشوق إلىٰ أهله فقصد زيارتهم في مصر علىٰ صورة مختفٍ فكلّم والد زوجته فلم يمانع. وطلب موسىٰ، عليه السلام، من زوجته أن تسأل أباها أن يعطيها من غنمه ما يعيشون به فأعطاها ما ولدت غنمه.

وقيل: لما دعا نبي الله موسىٰ والد زوجته إلىٰ الأجل، الذي كان بينهما، قال له: كل شاةٍ ولدت علىٰ غير لونها فلك ولدها، فولدت كلّهن علىٰ غير لونها إلا شاةً واحدةً، فذهب موسىٰ بأولادها كلها ذلك العام.

سار موسىٰ، عليه السلام، بأهله، ومعه ولدان له، وغنمه الذي أخذه، واتجه في بلاد مدين نحو الشمال الغربي إلىٰ ناحية شمال خليج العقبة، ومن هناك دخل وسط سيناء ولم يتابع ساحل البحر إذ يريد أن يختصر الطريق حيث معه أهله وأغنامه. وفي سيناء تاهَ عن الطريق وكانت ليلةً مظلمةً وباردةً، وبينما هو كذلك إذ أبصر عن بُعْدٍ ناراً تتأجّج في جانب الطور، وهو الجبل الغربي منه.

قال الله تعالىٰ: ﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [القصص].

---

(١) ابن ماجه: ٤/٢٤٤٤. «كنز العمال»: ٤/٢٩٠١.

لم يكن ما رأىٰ موسىٰ، عليه السلام، ناراً بل نوراً، وطلب من أهله أن يجلسوا مكانهم ويذهب هو إلىٰ مكان النار التي تراءت له فلعله يأتيهم بمعلوماتٍ عن طريق مصر، أو بعض الجمرات يستدفئون بها، وهذا يعطي فكرة عن أنهم قد تاهوا عن الطريق وكانوا في ليلةٍ مظلمةٍ وباردةٍ.

وصل موسىٰ، عليه السلام، إلىٰ تلك النار التي رآها، فرآها تتأجج في شجرةٍ خضراء من العوسج، والنار تضطرم، واخضرار الشجرة يزداد، وما هي بنارٍ بل نور يتألّق. وكان موسىٰ، عليه السلام، في وادي (طُوىٰ). والشجرة إلىٰ الغرب من الوادي. فناداه ربه بالوادي المقدس طُوىٰ، وأُمر بخلع نعليه تعظيماً وتكريماً لتلك البقعة المباركة.

○ بعثة موسىٰ، عليه السلام:

خاطب الله سبحانه وتعالىٰ عبده موسىٰ في وادي طوىٰ بعد أن أمره بخلع نعليه ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾ [طه].

أعلم الله سبحانه وتعالىٰ عبده موسىٰ: أن الله واحد، ولا يوجد إلـٰه سواه ولا تصلح العبادة والصلاة إلا له، وأن الذي يُكلّمه هو الله، وأنه إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كُن فيكون، وأنه الفعّال لما يريد. وأن هذه الدنيا ليست بدار قرارٍ، بل الدار الآخرة التي تكون بعد يوم القيامة هي الدار الباقية الخالدة، ولا بدّ من قيام يوم القيامة وهو يوم الحساب لتُجزىٰ كل نفسٍ بما عملت من خيرٍ أو شرٍّ، وحثّه علىٰ العمل لها وعمل الخير لذلك اليوم، والابتعاد عمن لا يُؤمن بذلك، ويتبع هواه، ويعصي مولاه.

ويبيّن الله سبحانه وتعالىٰ لعبده موسىٰ أنه القادر علىٰ كل شيءٍ، فقال له: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [طه]. فكان هذا دليل قاطع وبرهان واقع علىٰ أن

الذي يُكلّمه إذا أراد شيئاً يقول له: كن فيكون. وأنه الفعّال لما يريد.

وفي سورة النمل، قال تعالىٰ: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ [النمل: ١٠]. إذ بالعصا صارت أفعى ضخمةً، تصطك أسنانها، ولها حركة الجنّ، فلما نظر إليها موسىٰ وتأكّد مما يرىٰ ولّىٰ هارباً لا يلتفت أبداً، غلب عليه الهلع، وأصابه الخوف.

نادىٰ الله سبحانه وتعالىٰ عبده موسىٰ: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْأَمِنِينَ﴾ [القصص: ٣١]. فسمع موسىٰ أمر ربه وعاد فأمره سبحانه وتعالىٰ أن يمسك عصاه التي غدت أفعى ضخمةً وقال له: إنها ستعود إلىٰ حالتها الطبيعية إلىٰ عصا، عصاك التي تعرفها وتتوكّأ عليها وتهشّ بها علىٰ غنمك ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [طه].

وذُكر أن موسىٰ، عليه السلام، خاف خوفاً شديداً من أخذ العصا وقد غدت أفعىٰ، فوضع يده في كُم مدرعته، ثم وضع يده وهي مغطاة في فمها. كما ذُكر أنه أمسك بذنبها فلما تمكّن منها إذا هي عصاه.

ثم أمر الله سبحانه وتعالىٰ عبده موسىٰ بإدخال يده في جيبه، ثم أمره بنزعها فإذا هي تتلألأ بيضاء كأنها شعاع من غير سوءٍ (أي لا برص فيها ولا بهق)[١].

قال تعالىٰ: ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [القصص]. أي هاتان الآيتان العصا واليد هما البرهانان إلىٰ فرعون وملئه.

أمر الله سبحانه وتعالىٰ عبده موسىٰ بالذهاب إلىٰ فرعون، ومع موسىٰ برهانان من ربه إلىٰ فرعون، ولكن موسىٰ، عليه السلام، خشي من فرعون لأن موسىٰ قد سبق له أن قتل أحد الأقباط فيخشىٰ الآن أن يقتله

---

(١) البهق: مرض يصيب جلد الإنسان فيذهب بلونه وتظهر فيه بقع بيضاء.

فرعون لذا طلب دعماً من ربه وهو أخوه هارون فهو أفصح لساناً. فقال موسىٰ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [القصص]. فأعطىٰ الله سبحانه وتعالىٰ النبوة إلىٰ هارون أيضاً وأمره بالسير مع أخيه موسىٰ.

كان موسىٰ، عليه السلام، ألثغ، وقيل: إنه قد أصابته لثغة في لسانه بسبب تلك الجمرة التي وضعها علىٰ لسانه، والتي كان فرعون قد أراد اختبار عقله، حين أخذ بلحيته وهو صغير فهمّ بقتله، فخافت عليه آسية امرأة فرعون وقالت: إنه طفل، فاختبره بوضع تمرةٍ وجمرةٍ بين يديه. فهمّ بأخذ التمرة فصرف الملك يده إلىٰ الجمرة، فأخذها فوضعها علىٰ لسانه فأصابته لثغة بسببها. فسأل زوال بعضها بمقدار ما يفهمون قوله، ولم يسأل زوالها بالكلية.

قال الحسن البصري: والرسل إنما يسألون بحسب الحاجة، ولهذا بقيت في لسانه بقية[(١)].

○ موسىٰ، عليه السلام، وفرعون:

بعد أن بُعث موسىٰ، عليه السلام، رسولاً من رب العالمين إلىٰ الخلق ليدعوهم إلىٰ الله، ويعرفهم علىٰ خالقهم وخالق السماوات والأرض، ويدعوهم إلىٰ عبادته دون سائر الأنداد.

جاء الأمر من رب العالمين إلىٰ عبده موسىٰ بالسير إلىٰ فرعون وملئه من القوم الظالمين فيدعوهم إلىٰ تقوىٰ الله، وأن يقول لفرعون: إني وأخي هارون رسولا رب العالمين إليكم أن اتقوا الله، ودعوا الظلم، وأرسل

---

(١) «قصص الأنبياء»: ابن كثير.

معنا بني إسرائيل، وكفاكم عذاباً لهم، وقهراً وتسلّطاً عليهم.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الشعراء].

فتكبّر فرعون في نفسه وتغطرس وعتا وطغىٰ، ونظر إلىٰ موسىٰ وهارون نظرة ازدراء وانتقاص، واتجه إلىٰ موسىٰ قائلاً: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ أما أنت الذي ربيناه في دارنا؟ وأحسنا إليه وأنعمنا عليه حتىٰ شبّ؟ وهذا يدلّ علىٰ أن فرعون الذي بُعث إليه هو الذي فرّ منه.

وتابع فرعون قائلاً: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾ أي وقتلت الرجل القبطي، وفررت منا، وأنكرت نعمتنا عليك.

فأجاب موسىٰ، عليه السلام، إنما فعلت ما فعلت من القتل قبل أن يُوحىٰ إليّ، وقبل أن أُبعث إليكم، ففررت منكم لما خفت بطشكم وظلمكم. فوهب لي الله ما وهب من النعمة والخير وجعلني من المرسلين.

وتابع موسىٰ، عليه السلام، وأما النعمة التي ذكرتها بأنك أحسنت إليّ في تنشئتي في داركم وإطعامي فأنا رجل واحد، وفي الوقت نفسه فإنك استعبدت بني إسرائيل كلهم واستخدمتهم في أعمالك وكلفتهم في أشغالك. وهل هذا يكافئ ذاك فالظلم ظاهر والاستعباد واضح.

أراد فرعون أن يبتعد عن فكرة الاستعباد والظلم إذ لا يريد أن ينتبه الشعب إلىٰ ذلك وقد بدا ظلم فرعون واستعباده. وأراد فرعون إنكار ما

يدعو إليه موسىٰ، عليه السلام، وتحريض الناس ليقفوا ضدّ ما يدعو إليه موسىٰ. ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الشعراء].

﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [الشعراء].

﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الشعراء].

﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [الشعراء].

وأراد فرعون تغيير وجهة المجادلة.

﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾ [الشعراء].

فتابع موسىٰ، عليه السلام، علىٰ المحور نفسه.

﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الشعراء].

وزعم فرعون الألوهية ليثير حماسة الملأ الذين يتزلّفون له، ويُظهرون الحماسة في إرضائه.

﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَـٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الشعراء: ٢٩].

وشعر موسىٰ، عليه السلام، أن فرعون أراد أن يستعمل غطرسته ويُبدي جبروته، فأراد أن يظهر قدرة الله وعجز البشر.

﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشعراء].

﴿قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الشعراء].

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾﴾ [الشعراء].

﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [الشعراء].

وهاتان الآيتان اللتان أيده الله بهما، وهما: العصا واليد، فأظهر بذلك الخارق العظيم الذي بهر العقول والأبصار، فحين ألقىٰ عصاه إذ هي ثعبان ضخم، عظيم المنظر، باهر الشكل فأصاب الحضور الرعب، وأولهم الطاغية فرعون حتىٰ أصابه إسهال عظيم.

وأدخل موسىٰ، عليه السلام، يده في جيبه ثم أخرجها فإذا هي

كفلقة القمر ليلة النصف من الشهر تتلألأ ونورها يبهر الأبصار، ثم أعادها إلىٰ جيبه وأخرجها فإذا هي علىٰ صفتها الأولىٰ ـ يد طبيعية ـ.

قيل: إن موسىٰ، عليه السلام، عندما رجع من بلاد مدين إلىٰ مصر، دخل علىٰ بيته فرأىٰ أمه وأخاه هارون يتناولان طعام العشاء فأكل معهما، ثم قال لأخيه: يا هارون، إن الله أمرني وأمرك أن ندعو فرعون إلىٰ عبادة الله، فقم معي، فقاما يقصدان باب فرعون، فإذا هو مغلق. فقال موسىٰ للحُجّاب: أعلموا فرعون أن رسول الله بالباب فجعلوا يسخرون منه ويستهزئون به، وذُكر أنه لم يُؤذن لهما إلا بعد مدةٍ طويلةٍ.

وقيل: إن موسىٰ، عليه السلام، تقدّم إلىٰ الباب فطرقه بعصاه، فانزعج فرعون وأمر بإحضارهما فأُحضرا بين يديه، فدعواه إلىٰ الله عزّ وجلّ كما أمرهما.

وقيل: إن الله عزّ وجلّ قد أوحىٰ إلىٰ هارون أن يخرج ويستقبل أخاه موسىٰ بالبرية عند جبل (حوريب)، فخرج إليه فلما لقيه أخبره بما أمره به ربه. فلما دخلا مصر جمعا كبار بني إسرائيل وذهبا إلىٰ فرعون، فلما بلّغاه رسالة الله قال: من هو الله؟ لا أعرفه، ولا أُرسل بني إسرائيل.

قال الله تعالىٰ: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه].

أنكر فرعون إثبات الخالق تعالىٰ.

﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾﴾ [طه].

﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ [طه]. أي هو الذي خلق الخلق كلهم وقدّر لهم أعمالاً وأرزاقاً وآجالاً. وكتب ذلك عنده في كتابه اللوح المحفوظ، ثم هدىٰ كل مخلوقٍ إلىٰ ما قدّره له، فطابق عمله فيهم الوجه الذي قدّره وعلمه، لكمال علمه.

﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾﴾ [طه]. يقول فرعون لموسىٰ: فإذا كان ربك هو الخالق المقدّر، الهادي الخلائق لما قدّره، وهو بهذه المثابة من لا يستحق العبادة سواه، فَلِمَ عبد الأولون غيره؟ وأشركوا به من الكواكب ما قد علمت؟ فهلا اهتدىٰ إلىٰ ما ذكرته القرون الأولىٰ؟.

﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَـٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾ [طه].

هم وإن عبدوا غيره فليس ذلك بحجةٍ لك، ولا يدلّ علىٰ خلاف ما أقول، لأنهم جهلة مثلك، وكل شيءٍ فعلوه مسطّر عليهم في الزبر، ومن صغيرٍ وكبيرٍ، وسيجزيهم علىٰ ذلك ربي عزّ وجلّ، ولا يُظلم أحد مثقال ذرةٍ، لأن أفعال العباد مكتوبة عند ربي في كتابٍ لا يضلّ عنه شيء ولا ينسىٰ ربي شيئاً.

ثم ذكر موسىٰ، عليه السلام، عظمة الرب علىٰ خلق الأشياء، وجعله الأرض مهاداً، والسماء سقفاً محفوظاً وتسخيره السحاب والأمطار رزقاً للعباد ولدوابهم.

﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾﴾ [طه].

لقد كذب فرعون بآيات ربه بعد أن رآها كلها، واستكبر، وهذا دليل قلّة عقله وكثرة جهله، وهذا ما يُؤدّي إلىٰ شقائه وخسرانه وسوء مصيره.

﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾﴾ [طه].

قال فرعون لموسىٰ: إن هذا الذي جئت به سحر، وتريد أن تخرجنا من أرضنا بسحرك هذا، وسنأتيك بسحرٍ مثل سحرك فاجعل موعداً لهذه

المعارضة علىٰ أن لا نخلفه نحن ولا أنت، وأن يكون مكان الموعد محدد ومعروف يعرفه الناس جميعاً علىٰ السواء.

﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾﴾ [طه].

وكان موسىٰ، عليه السلام، يرغب أن يُظهر آيات الله وحججه وبراهينه أمام جمهور الناس، لهذا قال لفرعون: موعدكم يوم عيد الزينة وقت الضحىٰ عندما يجتمع الناس ويكون الأمر بيّناً، ولم يطلب وقتاً في الليل حيث يكون ظلاماً إذ يريد الأمر جهاراً نهاراً، لأنه علىٰ بصيرةٍ من ربه، ويقينٍ بأن الله سيُظهر كلمته ودينه رغم أُنوف القبط.

قال تعالىٰ: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾﴾ [طه].

○ موسىٰ، عليه السلام، والسحرة:

ذهب فرعون فجمع السحرة من بلاده كافةً، وكانت مصر في تلك المرحلة كثيرة السحرة، فاجتمع منهم عدد كبير يزيد علىٰ عشرة آلاف ساحرٍ، هذا إضافةً إلىٰ عددٍ من بني إسرائيل اختارهم وبعث بهم إلىٰ العرفاء ليتعلّموا السحر، وقد ذُكر أن عددهم كان سبعين إنساناً بين رجلٍ وفتىً.

وحضر فرعون وأمراؤه وأهل دولته وخرج معهم عامة أهل البلد، وذلك أن فرعون نادىٰ في قومه أن يحضروا هذا المشهد، فخرجوا وهم يقولون: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الشعراء].

وتقدّم موسىٰ، عليه السلام، إلىٰ السحرة، فوعظهم وزجرهم علىٰ تعاطي هذا العمل الباطل وهو السحر.

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾﴾ [طه].

اختلف السحرة فيما بينهم، فمن قائل: هذا نبيّ وليس بساحرٍ، ومن قائل: بل هو ساحر، وكان هذا الكلام والخلاف فيما بينهم سراً ومناجاةً.

﴿قَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾﴾ [طه]. قال السحرة: إن موسىٰ وهارون ساحران متقنان لهذه اللعبة، ويريدان أن يجتمع الناس حولهما، ويطيحان بفرعون وحاشيته، ويستأصلان القبط عن آخرهم، ويتولّوا رئاسة لعبة السحر.

﴿فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾﴾ [طه]. والقصد أن يعملوا غاية السحر والمكر والخديعة والبهتان. وخاصةً أن فرعون قد وعدهم ومنّاهم. وما يعدهم الشيطان إلا غروراً.

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾ [طه].

اجتمع السحرة، واصطفّوا ليمكن الرؤية ويكون النظام، ووقف موسىٰ وهارون، عليهما السلام، مقابلين لهم. فقال السحرة: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾﴾ [طه].

﴿قَالَ بَلْ أَلْقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾﴾ [طه].

﴿وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٤٤].

﴿أَلْقُواْۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾ [الأعراف].

﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾﴾ [طه].

خاف موسىٰ، عليه السلام، أن يفتتن الناس بسحر السحرة قبل أن يُلقي ما في يده فإنه لا يقوم بعملٍ قبل أن يُؤمر، فأوحىٰ الله إليه في الساعة الراهنة ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٦٨ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ۝٦٩﴾ [طه].

ألقىٰ موسىٰ، عليه السلام، عندئذٍ عصاه، وقال: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٨١ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨٢﴾ [يونس].

قال تعالىٰ: ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ۝١١٧ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١١٨ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ۝١١٩ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ۝١٢٠ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٢١ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝١٢٢﴾ [الأعراف].

ذلك أن موسىٰ، عليه السلام، لما ألقىٰ عصاه، صارت أفعىً ضخمةً ذات قوائم، وعنقٍ هائلٍ، وشكلٍ مخيفٍ فهرب الناس منها مسرعين، وأقبلت الأفعىٰ إلىٰ ما ألقىٰ السحرة من حبالٍ وعصيٍّ، وجعلت تلقف واحداً إثر واحدٍ في حركةٍ سريعةٍ، والناس ينظرون إلىٰ ما تفعل ويتعجبون. أما السحرة فقد رأوا ما أخافهم وحيّرهم في أمرهم، إذ رأوا ما لم يكن يخطر ببالهم، وليس في حسابهم، وأيقنوا أن هذا ليس بسحرٍ ولا شعوذةٍ بل حق، وهو مما ابتعث به النبي موسىٰ بتأييدٍ من الله، وكشف الله عن قلوبهم ما يرين عليها من غفلةٍ، وأزاح عنها كذلك القسوة، وأنارها بنور الهدىٰ فأنابوا إلىٰ ربهم وخرّوا ساجدين، وقالوا بصوتٍ مرتفعٍ للحضور: (آمنا بربّ موسىٰ وهارون) لم يخافوا عقوبةً ولم يرهبوا بطشاً، غير مبالين بفرعون وجنوده رغم معرفتهم ببطشه وظلمه.

❍ فرعون وإيمان السحرة:

أخذ فرعونَ الذهولُ عندما رأى السحرة ـ وهم سنده ـ قد خرّوا ساجدين، وقالوا: آمنا بربّ موسىٰ وهارون. فصرخ كالمذعور إذ غُلب في الموقف أمام الجمهور، وطُعن صراحةً من رجاله الذين كان يستند عليهم

في المواجهة. قال الله تعالىٰ: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾﴾ [طه].

قيل: إن السحرة لما سجدوا رأوا منازلهم وقصورهم في الجنّة تُهيّأ لهم، وتُزيّن لقدومهم، لذا لم يُبالوا بتهديد فرعون ووعيده.

أما فرعون فقد هاله الأمر، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [الأعراف].

وكذلك هدّد السحرة، قال الله تعالىٰ: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾﴾ [طه][1].

قال الله تعالىٰ: ﴿قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الشعراء].

كانت اتهامات فرعون للسحرة وتهديداته هي:

١" ـ إن موسىٰ لكبيركم الذي علمكم السحر.

٢" ـ إن هذا لمكر مكرتموه في مصر لتخرجوا أهلها فسوف تعلمون.

٣" ـ لأُقطّعن أيديكم وأرجلكم من خلافٍ.

٤" ـ لأُصلبنّكم في جذوع النخل، ولتعلمنّ أينا أشدّ عذاباً وأبقىٰ.

وكانت إجابات السحرة تدل علىٰ رسوخ الإيمان في نفوسهم.

١" ـ لن نطيعك ونترك ما وقر في قلوبنا من بيناتٍ ثابتةٍ.

٢" ـ فاقضِ ما أنت قاضٍ إنما تقضي هذه الحياة الدنيا.

٣" ـ إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر، فثوابه خير وأفضل مما وعدتنا التقريب منك، ومن هذه الحياة الفانية. وأملنا كبير في أن يغفر لنا ربنا خطايانا.

---

(١) من خلاف: قطع اليد اليمنىٰ والرجل الشمال وعكس ذلك.

٤ " ـ ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَاۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [الأعراف].

نحن ليس لنا عندك ذنب إلا أن آمنا بما جاءنا به رسول الله، واتبعنا آيات الله فندعو الله أن يُثبّتنا علىٰ الإيمان والصبر علىٰ جور الظالمين وطغيان الحاقدين.

وإن فرعون قد عذّبهم وصلبهم، إذ كانوا في أول النهار من أعوانه وفي آخر النهار مصلوبين نتيجة ظلمه.

○ المواجهة:

بعد أن غُلبت القبط، وهُزم قائدهم فرعون في المواجهة بالألعاب السحرية، ثم أسلم السحرة انفجر كيد القبط وما زادهم ذلك إلا كفراً وعناداً، فقال كبارهم وسادتهم لفرعون: أتترك موسىٰ وقومه ليفسدوا في الأرض، ويذروا دينك، ويسخروا منك ومن آلهتك. فاستشاط غيظاً وحقداً، وقال: سنُقتّل أبناءهم، فلا تبقىٰ لهم قوة، ونستحيي نساءهم، ونمرح فيهن، وإننا نحن المسيطرون عليهم، القاهرون لهم.

وقال موسىٰ لقومه: استعينوا بالله واصبروا فإن الأرض لله وليست لفرعون، والله يُعطي أرضه لمن يشاء من عباده، وخاتمة المطاف أن العاقبة الحسنة للذين يتقون ربهم.

فقال أتباع موسىٰ له: لقد حلّ بنا البلاء والأذىٰ قبل أن تأتي إلينا، ولا يزال ينزل بنا من بعد أن أتيتنا فإلىٰ متىٰ نصبر يا أيها الرسول؟ فللنفس طاقة علىٰ الصبر، وللإنسان وقت علىٰ التحمّل، أما علىٰ مدىٰ الحياة فالأمر شاق ولا يمكن الصبر.

فأجاب موسىٰ، عليه السلام، ما دامت الأرض لله، والقوة بيده، فعسىٰ الله أن يهلك عدوكم ويورثكم الأرض ليرىٰ كيف تعملون، من عبادةٍ، وتقوىٰ، وأعمال خيرٍ.

ولم يُؤمن من آل فرعون إلا (شمعان) مؤمن آل فرعون، وامرأة فرعون، والذي جاء من أقصىٰ المدينة. وقيل: إن شمعان كان ابن عم فرعون، وقد سُمّي بعد أن آمن باسم (خير) وهذا الاسم كان بين المؤمنين فقط.

وأما بنو إسرائيل فكان أكثرهم ثراءً قارون، وكان علىٰ دين قوم فرعون، وقيل: إنه ابن خالة موسىٰ.

ابتلي آل فرعون وقومه من القبط لعنادهم ومخالفتهم بـ:

١ " ـ السنين: وهي سنوات القحط والجدب وهي التي لا يُستغلّ فيها زرع، ولا يُنتفع بضرعٍ لعدم نزول الغيث فلا تُثمر الأشجار، ولا تنمو المزروعات، ولا تنبت الحشائش لتتغذىٰ بها الحيوانات.

قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ [الأعراف].

فإذا جاءتهم سنوات الخصب والإنتاج قالوا: هذا ما نستحقه وهو ما يليق بنا، وإذا نزل بها الجدب والقحط يقولون هذا نتيجة الشؤم الذي يحلّ بنا بسبب موسىٰ ومن معه، ولا يعلمون أن الجزاء من عند الله.

٢ " ـ الطوفان: نتيجة كثرة الأمطار المغرقة المتلفة للزروع والثمار والناس أيضاً إضافةً إلىٰ الطاعون.

٣ " ـ الجراد: الحيوانات الصغيرة الطائرة التي تقضي علىٰ الزروع والنبات والثمار. وهي معروفة.

٤ " ـ القمل: الحشرات الصغيرة التي تدخل ثياب الإنسان وجلده فلا يستطيع النوم، ولا تغمض عينه، وتصعب حياته.

٥" ـ الضفادع، وقد لازمتهم بكثرةٍ حتىٰ كانت تسقط في أطعمتهم وأوعيتهم.

٦" ـ الدم قد امتزج بمياه الأنهار الكبيرة كالنيل وبالتالي الصغيرة إضافةً إلىٰ الآبار، وكأن هذا الدم قد نزف حالياً.

وهذا ما كان يحلّ بالقبط ولا يصيب من يجاورهم من قوم موسىٰ.

قال تعالىٰ علىٰ لسان قوم فرعون لموسىٰ وقومه: ﴿وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [الأعراف].

رجع فرعون مغلوباً مقهوراً لمّا آمن السحرة، وأصرّ علىٰ الكفر، وتمادىٰ بالسوء فأُخذ بالسنين فجاء الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، فحلّ بقومه الجهد وأصابهم الجوع، فلما أصابهم ذلك ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾﴾ [الأعراف].

فدعا موسىٰ، عليه السلام، ربه فكشف عنهم ما حلّ بهم، فلم يفوا بما وعدوا. فأرسل الله عليهم الجراد فأكل الأشجار، والزرع، والنبات، فقالوا لموسىٰ مثل ما قالوا في المرة السابقة، فدعا موسىٰ، عليه السلام، ربه فكشف عنهم ما نزل بهم، فأخلفوا ما وعدوا، فأرسل الله عليهم القمل حتىٰ غلب علىٰ البيوت والأطعمة، ومنعهم النوم والقرار، حتىٰ أصابهم الجهد، فطلبوا من موسىٰ، عليه السلام، كما طلبوا منه سابقاً.

فدعا موسىٰ، عليه السلام، ربه فكشف عنهم ما أصابهم، فلم يفوا بما وعدوا، فأرسل الله عليهم الضفادع، فملأت البيوت، والأطعمة، والآنية، فلم يكشف أحد عن حاجة إلا وجد الضفادع قد غلبت علىٰ تلك الحاجة، حتىٰ أصابهم الجهد، فطلبوا من موسىٰ، عليه السلام، ما طلبوا منه سابقاً.

فدعا موسىٰ، عليه السلام، ربه فكشف عنهم ما حلّ بهم فلم يفوا بشيءٍ مما قالوا. فأرسل الله عليهم الدم، فصارت مياه آل فرعون من نهرٍ وبئر دماً، ما يغترفون ماءً من إناءٍ إلا كان دماً عبيطاً.

وما رُفعت عن آل فرعون آية إلا عادوا إلىٰ ما كانوا عليه، وزادوا عتواً واستكباراً في الأرض وكفراً بآيات الله، وتكذيباً لنبي الله موسىٰ. والله سبحانه وتعالىٰ يُؤجّلهم ويُنظرهم ثم أخذهم أخذ عزيزٍ مقتدرٍ، وجعلهم عبرةً ونكالاً للكافرين، وعظةً للمؤمنين.

أخذ فرعون يتبجح بعظمة ملكه، وحسن بلاده بالأنهار التي تجري فيها، ويتباهىٰ بزينته التي يتجمّل بها كالنساء، وينتقص من نبي الله موسىٰ، عليه السلام، باللثغة التي في لسانه حتىٰ لا يكاد يُجيد النطق وإفهام السامع، وعدم وجود الزينة الذهبية معه وعليه، ولماذا لا تأتي معه الملائكة مقترنين.

قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الزخرف].

استخفّ فرعون عقول قومه، فأطاعوه إلىٰ درجةٍ أنهم صدقوا دعواه للربوبية. فانتقم الله منهم فأغرقهم أجمعين.

○ هلاك فرعون وجنوده:

تمادىٰ فرعون في طغيانه وجبروته وكبريائه وادّعاءاته، ولم يُؤمن من قومه سوىٰ ثلاثةٍ كما سبق أن ذكرنا، وقيل: إن بعض السحرة صدقوا في إيمانهم، وذلك خوفاً من فرعون وبطشه.

لم يجد موسىٰ، عليه السلام، وسيلةً للوقوف أمام الغاشم ودعوة قومه الذين يرهبونه، فقال الله تعالىٰ علىٰ لسان موسىٰ: ﴿يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحۡمَتِكَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [يونس].

استمع قوم موسىٰ، عليه السلام، منه، وتوكلوا علىٰ الله.

وأوحىٰ الله إلىٰ موسىٰ وأخيه هارون، عليهما السلام، أن يجعلا لقومهما بيوتاً متميزةً عن بيوت القبط ليكونوا علىٰ أُهبة الرحيل إن أُمروا بذلك، وبيوتكم قِبلةً (أي متقابلة)، وأن يكثروا من الصلاة والعبادة في بيوتهم كإعانةٍ لهم بصلاتهم علىٰ الصبر، والاستعانة أيضاً علىٰ ما هم عليه من الضرّ وشدّة الضيق. وخاصةً أنهم لا يستطيعون إظهار عبادتهم في مجتمعاتهم ومعابدهم.

واشتدّ الأمر علىٰ قوم موسىٰ فدعا موسىٰ، عليه السلام، ربه ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةٗ وَأَمۡوَٰلٗا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾ [يونس]. وأمّن أخوه هارون علىٰ دعائه.

واستجاب الله دعوة نبيه موسىٰ، والتي أمّن عليها هارون، قال سبحانه وتعالىٰ: ﴿قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا فَٱسۡتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [يونس].

ولما ضاقت الحال علىٰ قوم موسىٰ وإقامتهم في مصر أوحىٰ الله سبحانه وتعالىٰ لنبيه أن تهيّأ للسفر بقومك، واخرجوا ليلاً فإنكم مُتّبعون،

قال تعالىٰ: ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الشعراء].

بعد أن تهيّأ موسىٰ وقومه للخروج من مصر، استأذنوا فرعون بالخروج إلىٰ عيدٍ لهم، فأذن لهم وهو كاره، ولم يدر بخلده أنهم يُبيّتون الخروج من مصر، وقد كان مكيدةً بفرعون وجنوده، ولكن في الوقت نفسه كان فرعون وكبراؤه يريدون من قوم موسىٰ أن ينصرفوا عنهم ليتخلّصوا منهم، ولكن لم يُعلنوا ذلك.

خرج موسىٰ، عليه السلام، وقومه بالليل يقصدون بلاد الشام. فلما علم فرعون بخروجهم حقد عليهم حقداً شديداً، وزاد غضبه عليهم، وأخذ في حثّ جيشه علىٰ الاجتماع ليلحق بهم ويقضي عليهم. قال تعالىٰ: ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الشعراء].

خرج فرعون بجيشٍ كثيفٍ إثر موسىٰ وقومه فأدركهم عند شروق الشمس، وتراءىٰ الجمعان، ولم يبق إلا القتال والنزال، وقال أصحاب موسىٰ: إنا لمدركون وهم في غاية الخوف والذعر لما قاسوا في ظلّ سلطان فرعون من الشدّة والإهانة والمكر والذلّ، وأبلغوا موسىٰ، عليه السلام، ما هم فيه من الخوف والهلع، ﴿قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾.

كان خط سير موسىٰ، عليه السلام، وقومه من مصر شمال القاهرة اليوم، وباتجاه الشمال الشرقي نحو شمال بحيرة التمساح اليوم موقع مدينة الإسماعيلية الآن. وكانت منطقة القناة اليوم منطقةً بحريةً. وكان موسىٰ، عليه السلام، يسير في الساقة أقرب قومه إلىٰ العدوّ الملاحق لهم، فلما أخبره رجال قومه بخوفهم انطلق إلىٰ المقدمة ليكون مرشد قومه إلىٰ الطريق المستقيم.

كان وصول موسىٰ، عليه السلام، وقومه عند شروق الشمس، عندما تراءىٰ الجمعان إلىٰ مقربة البحر (قناة السويس) اليوم، فلما صار موسىٰ،

عليه السلام، إلىٰ المقدمة نظر إلىٰ البحر يتلاطم بأمواجه، ثم لم يلبث أن اقترب فرعون وقومه يتلمّظون إلىٰ الدماء، وقوم موسىٰ يخافون عدم النجاة، وهنا أوحىٰ الله سبحانه وتعالىٰ لنبيّه موسىٰ، عليه السلام، ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾ [الشعراء]. فكان ماء البحر في فرقٍ ثابتاً كالجبل، وهبت ريح علىٰ ما بين الفريقين فجمدت المياه أيضاً وصارت الخيل يمكنها المرور عليها دون أن تدخل حوافرها بالماء ومن غير أن يلحق بالحوافر شيء من الماء الجامد. قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾ [طه].

أمر الله سبحانه وتعالىٰ نبيه موسىٰ، عليه السلام، أن يجتاز البحر بين الفريقين فانحدر موسىٰ مسرعاً وتبعه قومه فكان ذلك الموقف يُحيّر الناظرين، ولما اجتازوا وخرج آخرهم منه كان ذلك عند قدوم أول جيش فرعون والطاغية في مقدمة الجيش، فأحجم الطاغية فرعون ولم يتقدّم، وأيقن أن هذا الذي تمّ إنما بفعل ربّ العرش العظيم، وندم علىٰ خروجه في طلب موسىٰ وقومه ولكن ساعة لا ينفع الندم، وتحامل علىٰ نفسه أمام الذين اتبعوه وعلىٰ باطله وكفره أطاعوه، فجعل يتردد بين أن يدخل فيهلك وبين أن يرجع فينجو.

وسبحان فاطر السماوات والأرض الذي بيده الأمر كله، وهنا يظهر أحد الملائكة ـ قيل إنه جبرائيل، عليه السلام ـ علىٰ صورة فارسٍ يركب فرساً حائل، فمرّ أمام حصان فرعون فحمحم الحصان علىٰ الفرس وتبعها، واقتحم المَلَك البحر مسرعاً، وتبع الحصان الفرس بسرعةٍ، وفرعون لا يستطيع عمل شيءٍ، ولا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، ولما رأىٰ جنود فرعون ملكهم وقائدهم قد انحدر إلىٰ البحر تبعوه مسرعين حتىٰ صاروا جميعاً بالبحر، وهمّ طليعتهم بالخروج فأوحىٰ الله لنبيه موسىٰ،

عليه السلام، أن يضرب البحر بعصاه ففعل فارتطم الماء ورجع كما كان، فغرق فرعون ومن معه ولم ينج منهم أحد. ونجا موسىٰ ومن معه ولم يغرق منهم أحد، بل ولم يصب أحد منهم بأذىٰ، فسبحان الله العظيم.

ولما أدرك فرعون الغرق ورأىٰ قدرة الله جليّةً بيّنةً قال: آمنت أنه لا إلٰه إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين، ولكن ساعة لا ينفع الإيمان ولا يجدي الإحسان حيث كان الكفر معقوداً بالقلب.

قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [يوسف].

شكّ أفراد من قوم موسىٰ بموت فرعون، فطفت جثته علىٰ سطح الماء، وعليها درعه التي يعرفونها من ملابسه ليتحقق الجميع من هلاك فرعون، ودلالةً علىٰ قدرة الخالق، وآيةً لمن يعيش من الخلق بعدئذٍ.

وكان هلاك فرعون وجنوده في اليوم العاشر من شهر المحرم (يوم عاشوراء).

روىٰ البخاري في «صحيحه»: حدثنا أبو معمر، حدثنا عبد الوارث، عن أيوب، عن عبد الله بن سعيد بن جبير، عن أبيه، عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: (قدم النبي، صلىٰ الله عليه وسلم، المدينة فرأىٰ اليهود تصوم يوم عاشوراء، فقال: «ما هذا؟» قالوا: هذا يوم صالح، هذا يوم نجّىٰ الله بني إسرائيل من عدوّهم، فصامه موسىٰ، قال: «أنا أحق بموسىٰ منكم»، فصامه، وأمر بصيامه)[1].

وكان بين دخول يعقوب، عليه السلام، مع أبنائه إلىٰ مصر بدعوة

---

(١) «صحيح البخاري»: (٢٠٠٤).

ولده يوسف، عليه السلام، وبين خروجهم منها بصحبة موسىٰ أربعمائة وست وعشرين سنة (٤٢٦ سنة).

○ موسىٰ، عليه السلام، وقومه في الشام:

بعد أن جاوز قوم موسىٰ البحر، ورأوا هلاك فرعون وجنوده في البحر غرقىٰ، قصدوا بلاد الشام فمروا علىٰ أقوامٍ يعبدون الأصنام فأعجبهم ذلك وكأنهم لم يأخذوا موعظةً مما حدث لفرعون، ومن نجاتهم باتباعهم الرسول وبُعدهم عن الأصنام والشرك بالله، فقال بعضهم لموسىٰ، عليه السلام، اجعل لنا إلٰهاً كما لهؤلاء آلهة، فردّهم ووصفهم بالجهل علىٰ هذا التفكير، وذكّرهم بالله وما أنعم الله عليهم بالنجاة من فرعون وبطشه، ومن استعبادهم، والتعالي عليهم.

قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾﴾ [الأعراف].

تابع موسىٰ، عليه السلام، السير بقومه نحو بيت المقدس، فلما اقتربوا منها عرفوا أن فيها من الجبّارين من الكنعانيين والحِثّيين، فأمرهم رسولهم موسىٰ، عليه السلام، بالدخول عليهم وقتالهم، وإبعادهم عن بيت المقدس. فوقع الخوف في قلوب قوم موسىٰ إذ سبق لهم أن جرّبوا عتو فرعون وجبروته، ولكن رأوا نهايته، وعرفوا نصر الله، ولكن يبدو أن هذا لم يفدهم أبداً، ولم يكن لهم درساً نافعاً.

قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ

يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَاۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِيۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْۛ أَرْبَعِينَ سَنَةًۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [المائدة].

○ قوم موسىٰ في التيه:

نكل قوم موسىٰ عن قتال الكنعانيين فعاقبهم الله سبحانه وتعالىٰ بأن أبقاهم في منطقة التيه، (وهي منطقة شبه صحراوية تشمل النقب من فلسطين وجزءاً من سيناء اليوم) مدة أربعين سنةً.

وفي التيه صعد موسىٰ، عليه السلام، الجبل وكلّمه ربه، وأمره أن يُذكّر قومه بما أنعم الله عليهم في نجاتهم من فرعون وملئه. وكذلك أن يجتمعوا في اليوم الثالث حول الجبل، فلما كان ذلك اليوم ظهرت فوق الجبل غمامة عظيمة، وظهر البرق، وعلا صوت الرعد ففزع بنو إسرائيل فزعاً شديداً، وموسىٰ، عليه السلام، يُناجي ربه، وارتقىٰ أخوه هارون الجبل معه. وكلّم الله موسىٰ، وأمره بالوصايا العشر، وعندما رجع إلىٰ قومه بلّغهم تلك الوصايا، وهي قوله تعالىٰ: ﴿۞ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۖ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْۖ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥۖ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام].

وأنعم الله علىٰ بني إسرائيل في هذا التيه الذي لا زرع فيه ولا ضرع فأنزل عليهم المنّ والسلوىٰ، كانوا يصبحون فيجدون المنّ داخل بيوتهم فيأخذون منه حاجتهم مدة يومٍ، ومن ادخر أكثر من حاجته فسد، ومن أخذ منه قليلاً كفاه، ومن أخذ كثيراً استهلكه.

وإذا كان آخر النهار غشيهم طير السلوىٰ فيقتنصون منه دون كلفةٍ ومن غير عناءٍ حسب كفايتهم لطعام العشاء.

ومما أنعم الله عليهم أنه كان إذا جاء فصل الصيف وكان الحرّ في تلك الصحراء، ساق الله لهم السحاب الذي يحجب عنهم حرّ الشمس إذ يحول السحاب دون وصول الحرّ إلىٰ سطح الأرض.

قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ٨٠ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ ٨١ وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ٨٢﴾ [طه].

وقلّ الماء علىٰ بني إسرائيل في التيه، فطلبوا من موسىٰ دعوة ربه لسقايتهم.

قال تعالىٰ: ﴿۞وَإِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ فَقُلۡنَا ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۖ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ مِن رِّزۡقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٦٠﴾ [البقرة].

ونفّذ موسىٰ، عليه السلام، ما أُمر به فضرب الحجر بعصاه، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً، لكل سبطٍ من أسباط يعقوب، عليه السلام، عيناً تُعطي ماءً زلالاً يستقون ويشربون، ويسقون أنعامهم، ويخزنون ما يكفيهم. وظلّلهم بالغمام ليقيهم حرّ الشمس ولفحاتها.

قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا

وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾ [البقرة].

أنعم الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ قوم موسىٰ الخير الكثير، والنعم الجمّة، والأعطيات الوافرة، فما رعوها حق رعايتها، ولا قاموا بالشكر لمُسديها، ولا بعبادة مُعطيها حق العبادة بل تضجّر كثير منهم وأبدوا عدم رضاهم، وتبرّموا وأظهروا سخطهم، وطلبوا من نبيّهم موسىٰ، عليه السلام، أن يدعو ربه ليخرج لهم ما تُخرج الأرض من البقول والقِثّاء والعدس والبصل و. . . . فقرّعهم موسىٰ، عليه السلام، وذكّرهم بنعم الله، وأنهم يطلبون الذي هو أدنىٰ بدلاً عن الذي هو خير والذي يفيض عنهم ويزيد. وإن كنتم تطلبون هذا الذي تريدون فاتجهوا إلىٰ مصر فإن فيها ما ترغبون، وذلك إن كان بكم قوة وعندكم استعداد، ولكن أنّىٰ هذا؟

كل هذا يدلّ علىٰ أن قوم موسىٰ لم ينتهوا عما نُهوا عنه، ولم يقنعوا بما أُعطوا، ولم يقبلوا بما هم فيه، ولم يُؤدّوا شكر النعمة، ولم يعبدوا الله حق عبادته.

وزاد قوم موسىٰ بالتمادي فقالوا لنبيّهم: لن نُؤمن لك حتىٰ نرىٰ ربك الذي يُكلّمك، وتأمرنا أنت بما يقول لك، وتقول: إنه الخالق القاهر القادر.

قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [البقرة].

وهكذا فإن كل ما صدر عن قوم موسىٰ يدلّ علىٰ أنهم لم ينتهوا عما نُهوا عنه، ولم يعرفوا صفات الله عزّ وجلّ فلم يُقدّروه حق قدره. فتبارك الله أحسن الخالقين.

○ موسىٰ كليم الله:

قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾ [الأعراف].

قال عبد الله بن عباس، رضي الله عنهما، ومجاهد وغيره: الثلاثون ليلة هي شهر ذي القعدة كاملاً وتمّت أربعين ليلةً بعشر من ذي الحجة، فيكون كلام الله لنبيه موسىٰ يوم عيد النحر.

ولما عزم موسىٰ، عليه السلام، علىٰ الذهاب إلىٰ الميعاد استخلف شقيقه هارون مكانه علىٰ قومه، بالإصلاح وعدم سماع كلام المفسدين وعدم اتباع سبيلهم. وفي الوقت الذي أُمر فيه موسىٰ بالمجيء كلّمه ربه من وراء حجاب، إلا أنه أسمعه الخطاب، فناداه وناجاه وقرّبه وأدناه، وبعد هذه المكانة التي وصل إليها موسىٰ، عليه السلام، سأل ربه العظيم الذي لا تدركه الأبصار أن يُريه ذاته، فبيّن له رب العزّة أنه لا يستطيع أن يثبت عند تجلّيه تبارك وتعالىٰ، وأن الجبل الذي هو أشدّ ثباتاً وأكثر تماسكاً في صخره، وأوسع مكاناً لا يمكنه أن يثبت عند تجلّي الرحمٰن

له. فلما تجلّىٰ ربه للجبل دُكّ الجبل، ورأىٰ موسىٰ ما يحلّ بالجبل فخرّ صعقاً مغشياً عليه، فلما أفاق ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾، والصعق الذي يصيب الخلق يوم القيامة حين يتجلّىٰ الرب للقضاء بين عباده، إذ يصعقون من عظمة الهيبة.

وفضّل الله موسىٰ واصطفاه علىٰ الناس برسالاته وبكلامه في ذلك الزمان لا فيما قبله، ولا فيما بعده. فقبله إبراهيم الخليل أفضل، وفيما بعده خاتم الأنبياء والرسل محمد أفضل الخلق.

وأمر الله سبحانه وتعالىٰ نبيه موسىٰ أن يأخذ بقوة ما كتبه له في الألواح من شرعٍ وحكمةٍ وموعظةٍ وتفصيل كل شيءٍ، وأن يأمر قومه أخذ أحسنها. كما أُعلم موسىٰ أن ربّه سيصرف عن فهم معانيها أولئك الذين يتكبّرون في الأرض بغير الحق، الذين لا يؤمنون بالآيات مهما كانت بيّنةً واضحةً جليّةً ظاهرةً لجبروتهم وطغيانهم، ولا يسلكون سبيل الرشد ولا يتبعونه، ولكن إن رأوا سبيل الغيّ سلكوه واتّبعوه واتخذوه مسلكاً لهم وذلك لأنهم كذّبوا بآيات الله، وتغافلوا عنها، وأعرضوا عنها وعن التصديق بها والتفكير في معناها والعمل بمقتضاها.

○ عبادة بني إسرائيل العجل:

يبدو أن إيمان قوم موسىٰ لم يكن صادقاً صحيحاً بل كان ظاهراً وعصبيةً علىٰ القبط وغيرهم من الشعوب إذ ما أن ذهب موسىٰ، عليه السلام، لميقات ربه حتىٰ عبدوا العجل وتركوا ما سوىٰ ذلك، وكان أحدهم يُدعىٰ هارون السامري قد أخذ ما كان قومه قد استعاروه من حليّ القبط، وصاغ منه عجلاً، وألقىٰ فيه قبضةً من التراب كان قد أخذها من أثر فرس جبرائيل، عليه السلام، حين رآه يوم أغرق الله فرعون وجنده، ونجّا موسىٰ وقومه، وقد ظهر جبرائيل، عليه السلام، علىٰ تلك الهيئة، فظهر ما صنع هارون السامري علىٰ شكل عجل، وكانت إذا دخلت الريح

من دبره وخرجت من فمه ظهر لها صوت كخُوار البقر. وقد فرح بذلك بنو إسرائيل والتفّوا حول ذلك الصنم، وهو علىٰ هيئة عجل له خوار، ورقصوا. وقال لهم السامري: هذا إلٰهكم وإلٰه موسىٰ، وقد ذهب موسىٰ ونسي إلٰهه هاهنا، قد ذهب إليه ونسيه عندنا. تعالىٰ الله عما يقولون علواً كبيراً، وتقدّست أسماؤه وصفاته.

ولضعف إيمان بني إسرائيل وظاهريته لم يفكروا بأن هذا الصنم الذي عكفوا علىٰ عبادته لا يُكلّمهم ولا يهديهم ولا يملك لهم ضرّاً ولا نفعاً، اتخذوه وكانوا ظالمين خائبين. وهم ظالمون لأنفسهم لعلمهم في أنفسهم بطلان ما هم عليه الكذب والجهل والضلال.

وانتبه بعضهم إلىٰ ما وقعوا فيه من الظلم والضلال، أبدوا الندم والحسرة وقالوا: لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين.

ولما رجع موسىٰ، عليه السلام، من مناجاة ربه إلىٰ قومه ورأىٰ ما هم عليه من الكفر والضلال في عبادة العجل، أخذه الغضب عليهم، وألقىٰ ما في يده من الألواح المكتوب عليها التوراة، وأقبل علىٰ قومه وأنّبهم، وعنّفهم، واستقبح فعلهم، وأبدىٰ الغرابة في فعلهم هذا، فهو فعل سفهاء جهلة لا فعل أناسٍ مؤمنين يدّعون ما يدّعون.

وحاول بنو إسرائيل تبرير موقفهم بادّعاءاتٍ كاذبةٍ كادّعائهم بالإيمان، فقالوا: صعُب علينا أن نملك ما استعرناه من حليّ الأقباط ولا يحق لنا أن نملكه وهم أعداؤنا مع أن الله قد أمرهم بأخذه وأباحه لهم، أظهروا الحرج بهذه الحليّ، ولم يظهروه بجهلهم وقلّة عقلهم وضلالهم عبادة تمثال العجل، مع الله الواحد القهار خالق الخلق، ومُبدع السماوات والأرض والكون أكمل.

ثم أقبل موسىٰ، عليه السلام، علىٰ أخيه هارون، عليه السلام، قائلاً له: لماذا لم تأتني وتخبرني بما فعلوا عندما رأيتهم أقدموا علىٰ ضلالهم بما فعلوه؟ فأجابه هارون، عليه السلام: خشيت أن تسألني كيف

تركتهم وجئتني وقد استخلفتك فيهم. وكان هارون، عليه السلام، قد نهاهم عما فعلوه أشدّ النهي، وزجرهم علىٰ ذلك، وقال لهم: إن الله هو ربكم لا هذا التمثال العجل، فاتبعوني فيما أقول لكم، وأطيعوا أمري، واتركوا ما أنتم عليه.

وأقبل موسىٰ، عليه السلام، علىٰ السامري، فقال له: ما حملك علىٰ الذي فعلت؟ قال: رأيت ما لم يروا، رأيت جبرائيل، عليه السلام، يركب فرساً فأخذت من أثر حافرها قليلاً من التراب وألقيته علىٰ تمثال العجل، هكذا سوّلت لي نفسي، ففعلت، وأصبح التمثال يخور كالعجل الحقيقي. فدعا موسىٰ، عليه السلام، علىٰ هارون السامريّ بأن لا يمسّ أحداً عقوبةً له لمسّه أثر حافر فرس جُبرائيل، عليه السلام، الذي لا يحقّ له أن يمسّه. وأنذره بالعاقبة السيئة يوم القيامة ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾.

وسار موسىٰ، عليه السلام، إلىٰ تمثال العجل فحرّقه ثم ذرّ رماده في البحر.

وعاد موسىٰ، عليه السلام، يدعو قومه فقال لهم: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ [طه].

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الأعراف]. وقال بعض السلف: هذا لكل صاحب بدعة إلىٰ يوم القيامة.

وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأعراف].

لكن لم يقبل الله توبة عابدي العجل إلا بالقتل، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾ [البقرة].

وكانت عبادة بني إسرائيل للعجل إثر خروجهم من البحر، لأنهم حين خرجوا من البحر ﴿قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ فعبادة العجل كانت قبل مجيئهم إلىٰ بلاد بيت المقدس. وذلك أنهم لما أُمروا بقتل من عبد العجل قتلوا في أول يومٍ ثلاثة آلافٍ، ثم ذهب موسىٰ، عليه السلام، يستغفر لهم فغفر لهم بشرط أن يدخلوا الأرض المقدسة.

○ بقرة بني إسرائيل:

كان في بني إسرائيل شيخ كبير كثير المال، وله أبناء أخٍ، وكانوا يتمنّون موته ليرثوه، فعمد أحدهم فقتله في الليل وألقاه في مجمع الطرق.

ولما أصبح الصباح اختصم الناس فيه، وجاء ابن أخيه وأخذ يصرخ ويتظلّم، فقالوا: ما لكم تختصمون ولا تأتون نبيّ الله موسىٰ؟ فجاء ابن أخي المقتول وشكا أمر عمه إلىٰ نبيّ الله موسىٰ، فقال موسىٰ، عليه السلام: أنشد الله رجلاً عنده علم من أمر هذا القتيل إلا أعلمنا به، فلم يكن عند أحدٍ منهم علم منه. فسألوا موسىٰ، عليه السلام، أن يسأل في هذه القضية ربّه عزّ وجلّ.

سأل موسىٰ، عليه السلام، ربه سبحانه وتعالىٰ في ذلك، فأمره ربّه أن يأمرهم بذبح بقرةٍ. فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [البقرة]. قالوا: نحن نسألك عن أمر هذا القتيل وأنت تقول لنا هذا؟ فقال: أعوذ بالله أن أقول غير ما أُوحي إليّ، فهذا هو الذي أجابني به ربي حين سألته عما طلبتموه مني أن أسأله عنه. ولو أنهم عمدوا إلىٰ أية بقرةٍ فذبحوها لحصل المقصود منها، ولكن شدّدوا إذ سألوا عن صفة البقرة، ثم عن لونها، ثم عن سنها، فأُجيبوا بما عزّ وجوده عندهم.

أُمروا بذبح بقرةٍ عوانٍ، وهي الوسط بين الفارض الكبيرة والبكر الصغيرة. ثم سألوا عن لونها فأُمروا ببقرةٍ صفراء فاقع لونها، أي: مُشْرَّب

بحمرةٍ، تسرّ الناظرين، وهذا اللون قليل. ثم شدّدوا أيضاً ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [البقرة].

﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾ [البقرة].

وهذه الصفات أكثر ضيقاً مما سبق، حيث أُمروا بذبح بقرةٍ ليست بالذلول، وهي المذللة بالحراثة وسقي الأرض بالساقية، مُسلّمة، وهي السليمة من العيوب، لاشية فيها أي: ليس فيها لون آخر يغاير لونها الأصلي.

لم يجدوا هذه البقرة التي تحمل هذه الصفات إلا عند رجلٍ منهم كان بارّاً بأبيه، فطلبوها منه فأبىٰ عليهم، فأرغبوه في ثمنها حتىٰ أعطوه ما لم يحلم به.

أمر نبيّ الله موسىٰ، عليه السلام، بذبحها فذبحوها وهم يتردّدون، ثم أمرهم أن يضربوا ذلك القتيل ببعض القطع منها. قيل: بلحم الفخذ، وقيل: بالعظم الذي يلي الغضروف، وقيل: بالبَضْعة وهي القطعة التي بين الكتفين. فلما ضربوه ببعضها أحياه الله تعالىٰ، فقام يشخب أوداجه[1]. فسأله نبي الله موسىٰ من قتلك؟ قال: قتلني ابن أخي. ثم عاد ميتاً كما كان.

وفي ذلك حكمة كبيرة إذ يتبيّن للناس كيف يحيي الله الموتىٰ، قال تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [البقرة].

أي كما شاهدتم إحياء هذا القتيل عن أمر الله له، كذلك أمره في سائر الموتىٰ إذا شاء إحياءهم أحياهم في ساعةٍ واحدةٍ.

---

(١) الأوداج: جمع ودج، وهو عرق في العنق.

○ وفاة موسىٰ، عليه السلام:

حانت وفاة نبي الله موسىٰ، عليه السلام، وهو بالتيه عن عُمْرٍ يُقدّر بمائة وعشرين سنةً، ولم يدخل أرض بلاد بيت المقدس التي هاجر إليها. وتوفي بعد وفاة أخيه هارون بمدة سنتين تقريباً.

وقام بأعباء قوم موسىٰ بعد وفاة هارون وموسىٰ يوشع بن نون، وهو فتىٰ موسىٰ المرافق له في رحلته من مصر إلىٰ مدين، وهو يوشع بن نون بن أفرائيم بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل، وهو نقيب سبط يوسف، عليه السلام، والأسباط هم اثنا عشر سبطاً علىٰ عدد أبناء يعقوب، عليه السلام.

ويوشع بن نون هو الذي دخل بيت المقدس، وعاش بعد موسىٰ، عليه السلام، سبعاً وعشرين سنةً، وقد عاش مائة وسبعاً وعشرين سنةً.



هارون، عليه السلام

هارون(١)، عليه السلام، بن عمران بن قاهت بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل، وهارون، عليه السلام، هو شقيق موسىٰ، عليه السلام، وأكبر منه.

ولد هارون، عليه السلام، عام المسامحة الذي لا يُقتل فيه أبناء بني إسرائيل الذين يولدون في هذا العام، لذا لم يُقتل هارون، عليه السلام، وقت مولده.

وكان هارون، عليه السلام، فصيح اللسان، يُجيد الكلام، ويحسن التعبير، فلما بعث الله سبحانه وتعالىٰ موسىٰ نبياً، وأمره أن يذهب إلىٰ فرعون ليدعوه إلىٰ الله، طلب موسىٰ من ربه عزّ وجلّ أن يُؤيّده بأخيه هارون إذ هو أفصح منه لساناً.

قال تعالىٰ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [القصص].

فأعطىٰ الله سبحانه وتعالىٰ إلى هارون النبوة، وأمره بالسير مع أخيه موسى مُؤيدّاً له. أمر الله سبحانه وتعالى رسوله موسىٰ، عليه السلام، بالسير إلىٰ فرعون ويدعوه وقومه إلىٰ عبادة الله، وأن يقول إلىٰ فرعون:

(١) انظر المصور رقم (٣)، الصفحة (٢٤٩).

إني وأخي هارون رسولا رب العالمين إليكم أن اتقوا الله، واتركوا الظلم، وأرسلوا معنا بني إسرائيل، وكفاكم ظلماً لهم.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَـٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَـٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾﴾ [الشعراء].

وخرج هارون، عليه السلام، من مصر مع أخيه موسىٰ، عليه السلام، في اجتياز البحر عندما غرق فرعون وقومه، وكان مع أخيه في التيه.

وخلف هارون أخاه موسىٰ عندما ذهب لميقات ربه، وطلب موسىٰ من هارون الإصلاح وعدم سماع كلام المفسدين وعدم اتباع سبيلهم. ولكن هؤلاء المفسدين وعلىٰ رأسهم هارون السامريّ قد عبدوا العجل، ولم يرعووا للكلام، وكان النبيّ هارون، عليه السلام، قد نهاهم عما فعلوه أشدّ النهي، وزجرهم ولكن لم يسمعوا واستمرّوا في غيّهم. وعندما رجع إليهم موسىٰ، عليه السلام، وعاتب أخاه هارون بشدةٍ، وهارون خليفته عليهم، فأجابه: إني خفت أن تُحاسبني علىٰ تركهم وحدهم، وقدومي إليك.

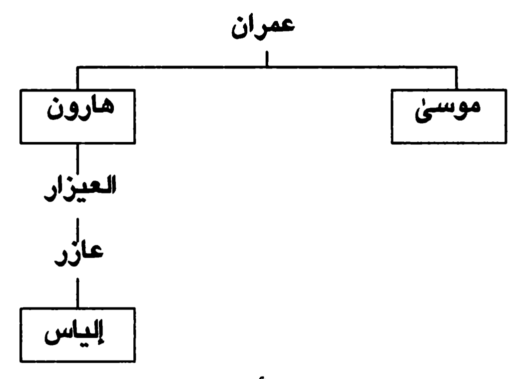
وتوفي هارون، عليه السلام، قبل أخيه موسىٰ، عليه السلام، بسنتين تقريباً.



١٨

إلياس، عليه السلام

إلياس[١]، عليه السلام، بن عازر بن العيزار بن هارون بن عمران.



أرسله الله سبحانه وتعالىٰ إلىٰ أهل بعلبك في منطقة لبنان اليوم إلىٰ الغرب من دمشق، وكان أهل بعلبك يعبدون صنماً يُسمّونه بعلاً، فدعاهم إلياس، عليه السلام، إلىٰ عبادة الله، وترك عبادة الصنم (بعل)، فكذّبوه وخالفوه وأرادوا قتله. قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ

(١٢٣) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (١٢٥) اللَّهَ

رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (١٢٦) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٢٧)﴾ [الصافات].

هرب إلياس، عليه السلام، من أهل بعلبك، واختفىٰ عنهم، وكان اختفاؤه في كهفٍ مدة عشر سنين، وقيل: عشرين سنةً، وقيل: أربعين سنةً، حتىٰ هلك الملك في بعلبك، وتولّىٰ غيره مكانه، فأتاه إلياس، عليه السلام، فدعاه إلىٰ الإسلام فأسلم، وأسلم قومه غير عشرة آلافٍ منهم، فأمر بقتلهم فقُتلوا عن آخرهم.

---

(١) انظر المصور رقم (٥)، الصفحة (٢٥١).



١٩ اليسع، عليه السلام

اليسع[1]، عليه السلام، بن عدي بن شوتلم بن أفرائيم بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل.

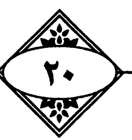
- إبراهيم الخليل
  - إسحاق
    - يعقوب
      - لاوي
        - قاهت
          - عمران
            - موسى
            - هارون
              - العيزار
                - عازر
                  - إلياس
      - يوسف
        - أفرائيم
          - نون
            - يوشع
          - شوتلم
            - عدي
              - اليسع

---

(١) انظر المصور رقم (٥)، الصفحة (٢٥١).

يُذكر أن اليسع، عليه السلام، كان مستخفياً مع إلياس، عليه السلام، في جبل قاسيون بدمشق، في الكهف الذي تحت الدم، وذلك خوفاً من ملك بعلبك، ثم ذهب معه إليها بعد أن هلك ملكها، وقيل: إن اليسع أقام ببلدة بانياس.

خلف الياس، عليه السلام، وأعطاه الله النبوة. وقيل: إن سلطانه وصل إلىٰ منطقة أنطاكية.



داود، عليه السلام

داود(١)، عليه السلام، بن إيشا بن عويد بن عابر بن سلمون بن نحشون بن عميناذب بن إرم بن حصرون بن فارص بن يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل.

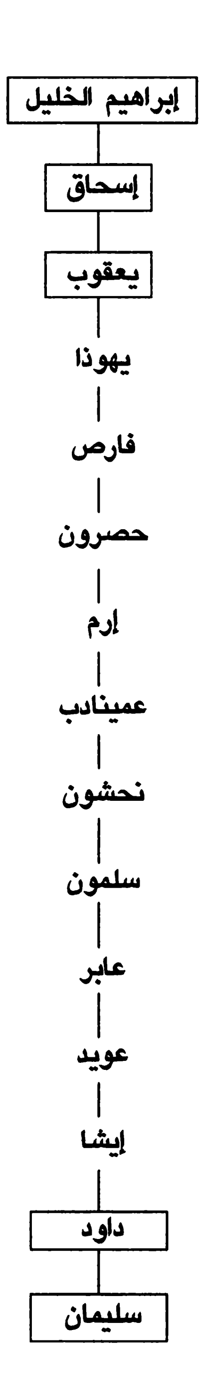
كان داود، عليه السلام، قصيراً، أزرق العينين، قليل الشعر، طاهر القلب. وكان أصغر أبناء أبيه، وكانوا ثلاثة عشر ولداً.

كان طالوت ملك بني إسرائيل يُحرّض قومه علىٰ قتال جالوت وقومه من العمالقة، وكان طالوت يقول: من قتل جالوت زوّجته ابنتي وأشركته في ملكي. وكان داود، عليه السلام، يرمي بالقذّافة وهي المقلاع رمياً جيداً. وبينما يسير داود مع الجيش أخذ ثلاثة أحجارٍ ألهمه الله في أخذها فوضعها في مخلاته. ولما التقىٰ الجيشان برز جالوت ودعا إلىٰ نفسه وطلب المبارزة فخرج إليه داود، فلم يره أهلاً له فقال له: ارجع فإني لا أُريد قتالك وأكره قتلك، فقال داود: وأنا أُريد قتالك وأُحبّ قتلك، وأخرج الأحجار من مخلاته ووضعها في مقلاعه، وأدار المقلاع بشدةٍ ورمىٰ جالوت فجاء الحجر برأسه ففلقه، ولما قُتل الملك الجبّار فرّ جيشه منهزماً.

قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ

---

(١) انظر المصور رقم (٦)، الصفحة (٢٥٢).


إبراهيم الخليل
إسحاق
يعقوب
يهوذا
فارص
حصرون
إرم
عمينادب
نحشون
سلمون
عابر
عويد
إيشا
داود
سليمان

وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ [البقرة].

وفّىٰ طالوت بوعده لداود، عليه السلام، فزوّجه ابنته وأجرىٰ حكمه في ملكه، وارتفعت مكانة داود، عليه السلام، عند بني إسرائيل، ومالوا إليه أكثر من طالوت وأحبّوه حتىٰ ذكروا أن طالوت حسده، وأراد قتله، واحتال علىٰ ذلك ولكن لم يصل إليه، وجعل العلماء ينهون طالوت عن قتل داود، فصعُب عليه هذا النهي فقتل أكثرهم. ثم رجع طالوت إلىٰ الحق وندم عما بدر منه، ويسأل هل له من توبة؟ فوصل إلىٰ الجواب بأن يترك الملك لداود، وينصرف للقتال في سبيل الله.

ترك طالوت الملك لداود، عليه السلام، وانصرف مع أبنائه الثلاثة عشر للقتال في سبيل الله حتىٰ قُتلوا في سبيل الله. وكانت مدة مُلك طالوت أربعين سنةً.

ذكر ابن عساكر أن قتل جالوت كان عند قصر أم الحكيم في مرج الصُّفّر (قصر أم حكيم بنت الحارث بن هشام[1] عند خربة الغزالة شمال القنيطرة) والله أعلم.

أعان الله سبحانه وتعالىٰ داود علىٰ عمل الدروع من الحديد لتحمي المقاتلة من الأعداء، وأرشده إلىٰ صناعتها وعدم دقّ المسمار فيها فينفلق الحديد، وألا يكون المسمار غليظاً فينفصم الحديد.

---

(١) أم حكيم بنت الحارث بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وأمها فاطمة بنت الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، تزوجت ابن عمها عكرمة بن أبي جهل (عمرو بن هشام)، أسلمت يوم فتح مكة، وأتت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وبايعته، وأعادت زوجها بعد هربه فأسلم، وحسن إسلامه، واستشهد يوم اليرموك سنة ١٣هـ. وبعد انقضاء عدة أم حكيم تزوجت خالد بن سعيد بن العاص، وكان أمير الجيش يوم مرج الصُّفّر، وكانت المعركة يوم أن بنى بها، ونال الشهادة ـ إن شاء الله ـ يومذاك، وجاء الروم إلى فسطاطها فقتلت سبعةً من الروم بعامود الفسطاط، وذلك سنة ١٤هـ. وتزوجت بعدها الخليفة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه.

كما ألان الله سبحانه وتعالىٰ الحديد لداود، عليه السلام، حتىٰ كان يفتله بيده فلا يحتاج إلىٰ نارٍ، ولا إلىٰ مطرقةٍ. وكان يعمل كل يوم درعاً فيبيعه بستة آلاف درهمٍ.

قال رسول الله، صلىٰ الله عليه وسلم: «ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبيّ الله داود كان يأكل من عمل يده»[1].

قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [سبأ].

وقال تعالىٰ: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الأنبياء].

وقال تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾ [صٓ][2].

عن عبد الله بن عمرو بن العاص، رضي الله عنهما: أن رسول الله، صلىٰ الله عليه وسلم، قال له: «أحبّ الصلاة إلىٰ الله صلاة داود، عليه السلام، وأحبّ الصيام إلىٰ الله صيام داود، وكان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه، وينام سدسه، ويصوم يوماً ويفطر يوماً»[3].

وقد أنزل الله سبحانه وتعالىٰ كتاب الزبور علىٰ داود، عليه السلام، قال تعالىٰ: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾ [الإسراء].

---

(١) رواه البخاري: (٢٠٧٢).

(٢) ذا الأيد: ذا القوة في الطاعة والعمل الصالح.

(٣) متفق عليه: البخاري: (١١٣١)، ومسلم (١١٥٩).

○ مُلك داود، عليه السلام:

قال سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾ [صٓ].

منّ الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ رسوله داود، عليه السلام، بالمُلك العظيم والحُكم البيّن النافذ.

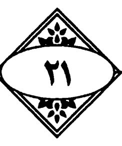
جاء رجلان إلىٰ رسول الله، داود، عليه السلام، يدّعي أحدهما علىٰ الآخر أنه اغتصب له بقراً وأنكر ذلك المدّعىٰ عليه فأرجأ داود، عليه السلام، أمرهما إلىٰ الليل. فلما كان الليل أوحىٰ الله إلىٰ داود أن يقتل المدّعي، فلما أصبح قال له داود: إن الله قد أوحىٰ إليّ أن أقتلك فأنا قاتلك لا محالة، فما خبرك فيما ادعيته علىٰ هذا؟ قال: والله يا نبيّ الله إني لمحق فيما ادعيت عليه، ولكني كنت اغتلت أباه قبل هذا. فأمر به داود فقُتل. فعظُم أمر داود في قومه وخضعوا له جيداً.

فكان عليه السلام علىٰ علمٍ بالقضاء، وفصل الخصومات في الكلام البيّن، والقضاء الصحيح، وكان يطلب البيّنة من المدّعي واليمين ممن أنكر.

قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ [صٓ].

كان في داود، عليه السلام، غيرة شديدة.

توفي داود، عليه السلام، فجأةً، وكان عمره مائة سنةٍ. وكانت مدة ملكه أربعين سنةً.



سليمان، عليه السلام

سليمان[1] بن داود، عليهما السلام، وقد ورد نسبه سابقاً.

ورث سليمان أباه داود في النبوة والملك، ولم يرثه بالمال والأملاك إذ كان لداود، عليه السلام، أبناء غير سليمان. ورسول الله محمد، صلىٰ الله عليه وسلم، يقول: «لا نورث ما تركنا صدقة»[2].

وعلّمه الله منطق الطير، فكان يعرف ما تتخاطب به الطيور بلغاتها، ويُعبّر للناس عن مقاصدها وإرادتها.

قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾ [النمل].

كما أوتي من كل شيء يحتاج إليه الملك من الآلات والجند حتىٰ سُخّر له الجنّ، والإنس، والطير، يقول الله تعالىٰ: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [النمل].

والإنس والجنّ يسيرون معه، والطير تطير فوقه تظلّه بأجنحتها من الحرّ. وعلىٰ كل فريقٍ من هذه الأنواع نقباء، يُنظّمون جماعتهم، فلا يتقدّم أحد عن موضعه الذي يسير فيه ولا يتأخّر.

---

(١) انظر المصور رقم (٦)، الصفحة (٢٥٢).

(٢) البخاري: (٦٧٣٠)، ومسلم: (١٧٥٨).

وحذّرت نملة جماعتها من النمل من أن يحطمنّهم جنود سليمان من غير أن يشعروا، وطلبت منهم أن يدخلوا مساكنهم. وفهم سليمان، عليه السلام، قولها، وشكر لله تعالىٰ نعمه الكثيرة التي أنعمها عليه وعلىٰ والديه. وكانت أم سليمان (أوريا) امرأةً صالحةً عابدةً. روىٰ ابن ماجه أن رسول الله، صلىٰ الله عليه وسلم، قال: «قالت أم سليمان بن داود: يا بني، لا تكثر النوم فإن كثرة النوم بالليل تدع العبد فقيراً يوم القيامة»[1].

وكان علىٰ كل صنفٍ من أصناف الطيور في جند سليمان، عليه السلام، نقباء يقومون بما يطلب منهم، ويحضرون عنده بالتناوب، مثل وظيفة الجنود من الإنس. وكانت مهمة الهدهد أن الجيش إذا احتاج إلىٰ الماء في القفار وقت الأسفار يقوم بما أودعه الله فيه من قوةٍ في أن ينظر إلىٰ الماء تحت سطح الأرض، فإذا دلّهم عليه حفروا واستخرجوا الماء لحاجاتهم.

وتفقّد سليمان، عليه السلام، يوماً الهدهد في موضعه فلم يجده في المكان الذي يجب أن يكون فيه فتساءل، فتوعّده وقال: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾﴾ [النمل]، أي: ليأتي بعذرٍ واضحٍ عن سبب غيابه.

كان ملوك سبأ يحكمون اليمن، وآل الحكم عندهم في تلك المرحلة إلىٰ امرأةٍ، إذ مات أبوها الملك، ولم يُخلّف غيرها فملّكوها عليهم. وقيل: إنه لما مات أبوها ملّكوا عليهم رجلاً بعد أبيها فانتشر الفساد، فأرسلت إليه تخطبه، فوافق، وتزوجها، فلما دخلت عليه سقته خمراً حتىٰ فقد الوعي فحزّت رأسه ونصبته علىٰ بابها، فأقبل الناس إليها، وملّكوها عليهم، وهي: بلقيس بن السيرح، وقيل: بنت شراحيل بن ذي جدن بن السيرح بن الحارث بن قيس بن صيفي بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان. وكان أبوها من أكابر ملوك اليمن. وعن أبي بكرة قال: لما بلغ

---

(١) «سنن ابن ماجه»: (١٣٣٢).

رسول الله، صلىٰ الله عليه وسلم، أن أهل فارس قد ولّوا عليهم بنت كسرىٰ قال: «لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة»[1].

غاب الهدهد عن سليمان، عليه السلام، غيبةً ليست طويلةً، ثم قدم، فقال لنبيّ الله سليمان، عليه السلام: اطلعت علىٰ ما لم تطّلع عليه، وجئتك بخبرٍ صادقٍ من سبأٍ، ولما كانت مملكة سبأٍ ذات مكانةٍ عندهم لذا لفت انتباهه، وأعار اهتمامه يريد متابعة السماع عن ذلك الخبر فأُجيب أني قد وجدت امرأةً تملكهم، ولها عرش عظيم، وذكر كفرهم بالله، وعبادتهم للشمس من دون الله، وإضلال الشيطان لهم، وصدّه إياهم عن عبادة الله الذي يعلم السرّ وأخفىٰ، ويعرف ما تخفي صدورهم، وما يجري في السماوات والأرض.

تحرّكت الدعوة إلىٰ الله في نفس سليمان، عليه السلام، فبعث إليهم كتابه مع الهدهد، وقال له: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [النمل].

يتضمّن الكتاب دعوتهم إلىٰ الإيمان بالله وطاعته وطاعة رسوله، والإذعان بالخضوع لملكه وسلطانه، ولهذا قال لهم: ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ﴾ أي: لا تستكبروا عن طاعة وامتثال أوامري ﴿وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ أي: أقبلوا إليّ سامعين مطيعين دون تلكؤٍ ولا تردّدٍ.

وصل الهدهد إلىٰ قصر السيدة بلقيس ومعه كتاب نبي الله سليمان، عليه السلام، وهي في خلوةٍ لها فألقاه إليها، ثم وقف بعيداً ينتظر جوابها علىٰ الكتاب، وتصرّفها.

جمعت السيدة بلقيس أمراءها ووزراءها وأكابر دولتها لأخذ رأيهم والاستماع إليهم ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾، ثم قرأت مصدره ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ﴾ وقرأت المقدمة ﴿وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾. وشاورتهم في أمرها، وما قد حلّ بها،

---

(١) رواه البخاري: (٤٤٢٥).

وتأدّبت معهم، وكلّمتهم وهم يسمعون، ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾﴾. أي: ما كنت أقطع في أمرٍ إلا وأنتم حاضرون. فأجابوا: إن كان الموضوع موضوع حربٍ وقتالٍ فعندنا قدرة علىٰ القتال والجلاد ومقاومة صناديد الرجال، كما عندنا قوة علىٰ مصادمة الجيوش وإحراز النصر عليها، ويعرف هذا عنّا القاصي والداني، فإن كنت تريدين القتال فنحن علىٰ استعدادٍ، فالأمر لك فانظري ماذا تأمرين؟ وبذا فقد أبدوا السمع والطاعة وأخبروها بما عندهم من الإمكانية، وتركوا الأمر لها لترىٰ الحلّ الأفضل.

رأت السيدة بلقيس من قراءة الكتاب المرسل إليها أن صاحبه سليمان، عليه السلام، لا يُغالب، كما لا يمكن خداعه. وإذا كانت رسله الطيور فإن إمكاناته ضخمة ونادرة.

أبدت السيدة بلقيس رأيها فقالت: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [النمل]. فإن هذا الملك (سليمان) إذا استطاع أن يتغلّب علىٰ دولتنا (سبأ) فإن الأمر لم يخلص من بينكم إلا إليّ ولن تقع السطوة القاسية إلا عليّ لذا ﴿وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [النمل].

أرادت السيدة بلقيس أن تتخذ الحكمة فتظهر الملاينة وإمكانية التفاهم وذلك بإرسال هديةٍ تُصانع بها عن نفسها وعن أهل مملكتها عسىٰ أن تنشأ مودة وتظهر محبة، فأرسلت مالاً وتُحفاً ذات قيمةٍ، ولم تدرِ بعد أن الكفر لا يجدي مع الإيمان، ولم تعلم أن سليمان، عليه السلام، لا يقبل من الكفار إلا الإيمان، وهو يدعوهم إلىٰ ذلك، ويطلب منهم أن يأتوا مسلمين، وما عدا ذلك من متاع الدنيا فلا وزن له، وهو غير مقبول.

لذا لما وصل مبعوث بلقيس إلىٰ سليمان، عليه السلام، ورأىٰ الهدية ردّها، وقال: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [النمل]. فطلاب الدنيا يفرحون بمثل هذا ويستبشرون،

وأما طلاب الآخرة فلا يُهمّهم مثل هذا بل يسعون لإرضاء الله بعبادتهم له وإخلاصهم بذلك وصدقهم، والدعوة له.

قال سليمان، عليه السلام، لمبعوث بلقيس، وأركان دولته يستمعون ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [النمل]. ارجع بهديتك التي جئت بها إلىٰ من بعثها، فإن الله قد أنعم علينا من الأموال والتحف والرجال أكثر مما عندكم، وخير من هذا الذي تتباهون به أمام قومكم. ولنبعثنّ إليكم بجنودٍ لا يستطيع من عندكم الوقوف في وجهها، ولا قتالها، ولا ممانعتها، ولنخرجنّكم من بلدكم أذلةً صاغرين.

عاد مبعوث بلقيس إليها يحمل الجواب، فلما سمعت ومن حولها من رجال مملكتها ما جاء به المبعوث، أدركوا معنىٰ إرسال الطير إليهم في المرة الأولىٰ، فما كان لديهم سوىٰ الخضوع والإذعان والسير إليه مع ملكتهم تابعين منفّذين طائعين يُلبّون ما تُوجّه إليهم من أوامر.

وصل إلىٰ نبي الله سليمان، عليه السلام، خبر قدومهم خاضعين فقال لمن بين يديه من الجنّ: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [النمل]. أي: قبل أن يرجع إليك طرفك إذ نظرت إلىٰ أبعد ما ترىٰ ثم أعدته. وقيل: قبل أن تبعث رسولاً إلىٰ أقصىٰ ما ينتهي إليه بصرك من الأرض ثم يعود إليك الرسول. وقيل: قبل أن يصل إليك أبعد من تراه من الناس. وقيل: قبل أن يكلّ طرفك إذا أمعنت النظر به قبل أن تُطبق جفنك.

لم يلبث نبي الله سليمان، عليه السلام، أن رأىٰ عرش بلقيس مستقراً أمامه في هذه المدة القصيرة منقولاً من بلاد اليمن إلىٰ بيت

المقدس، فشكر سليمان، عليه السلام، ربّه، وارتاحت نفسه، وقال: إنما هذا اختبار، وهكذا يختبر الله عباده فيرىٰ أيشكر أحدهم أم يكفر، ومن يشكر منهم فإنما يشكر لنفسه إذ يعود نفع ذلك عليه، ومن كفر فإن الله غنيّ عن شكر الشاكرين، ولا يُبالي بكفر الكافرين.

أمر سليمان، عليه السلام، أن تُغيّر هيئة عرشها، وتُبدّل بعض أوضاعه ليختبر عقلها، ويرىٰ هل تنتبه إلىٰ ذلك أم لا؟ فلما جاءت سئلت: أهكذا عرشك؟ قالت: كأنه هو! فأدرك ذكاءها، إذ استبعدت أن يكون عرشها لأنها تركته وراءها في بلاد اليمن، ولم تكن تعلم أن أحداً يقدر علىٰ حمله وسبقها بهذه الحركة العجيبة. ولكن لأنها نشأت في قومٍ كافرين فاتبعت دينهم، وعبدت الشمس كما كانوا يعبدون، ومنعها ذلك من عبادة الله.

وأمر سليمان، عليه السلام، ببناء صرحٍ من زجاجٍ، وجعل في ممره ماءً، وجعل عليه سقفاً من زجاجٍ، ووضع في الماء سمكاً وغيره من دواب الماء، وقيل لها: ادخلي الصرح، وسليمان جالس علىٰ سريره في الصرح يراقب كل حركةٍ، فلما رأت بلقيس الصرح حسبته لجّةً من المياه فكشفت عن ساقيها، فقال لها: إنه صرح ممرّد من قوارير قالت: رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين.

تزوّج سليمان، عليه السلام، السيدة بلقيس، وأقرّها علىٰ مملكة اليمن وردّها إليها، وكان يزورها كل شهرٍ مرةً ويبقىٰ عندها ثلاثة أيامٍ. وأمر الجنّ فبنوا لها ثلاثة قصورٍ في اليمن: غمدان، وسالحين، وبيتون.

وأحبّ سليمان، عليه السلام، الخيل للقتال في سبيل الله، وقد اشتغل بعرضٍ لتلك الخيول والسباق حتىٰ غابت الشمس، ولم يُؤدّ الصلاة فندم علىٰ ما حدث، وانتهىٰ من الخيل، فسخر الله له الريح تجري بأمره رخاءً حيث أصاب، أي: حيث أراد، فكان إذا أراد سفراً أو متنزهاً أو قتالاً، وضع كل ما يريد علىٰ بساطٍ ثم أمر الريح فدخلت تحت

البساط ورفعته وتحركت ـ بإذن الله ـ حيث يريد سليمان، عليه السلام، بل وإذا أراد السرعة، أعطىٰ أمره فأسرعت حسب رغبته، فكان يرتحل في أول النهار من بيت المقدس، فتغدو به الريح فتضعه بـ (إصطخر)[1] مسيرة شهرٍ، فيقيم هناك إلىٰ آخر النهار، ثم يعود فتردّه إلىٰ بيت المقدس.

وأسال الله له عين القِطْر باليمن فأخذ منها ما يحتاج من ماءٍ إلىٰ الأبنية.

كما سخّر الله له الجنّ يعملون بأمره، ولا يخرجون عن طاعته. وكذلك الشياطين ومنهم من يعمل في البناء، ومنهم من يغوص في البحار يستخرج اللآلئ والمجوهرات، وهناك من خرج عن أمره فقُيّدوا في الأصفاد، كل اثنين في قيدٍ.

وكان لسليمان، عليه السلام، كثير من النساء، مئات من الحرائر، ومئات من الإماء.

○ وفاة سليمان، عليه السلام:

بينما كان سليمان، عليه السلام، يصلي ذات يومٍ إذ رأىٰ شجرةً بين يديه، فقال لها: ما اسمك؟ قالت: الخروب، قال: لأي شيء أنت؟ قالت: لخراب هذا البيت، فقال سليمان: اللهم عَمِّ عن الجنّ موتي حتىٰ تعلم الإنس أن الجنّ لا يعلمون الغيب. فنحت شجرة الخروب عصاً فتوكأ عليها حولاً، والجنّ تعمل، فأكلت دابة الأَرَضَة من العصا، فقام يصلي وهو متكئ علىٰ عصاه فمات وسقط علىٰ الأرض، لأن العصا قد نُخرت، ولم تعلم الشياطين بموته، وهم في ذلك يعملون له يخافون أن يخرج عليهم فيعاقبهم.

---

(١) إصطخر: مدينة في بلاد فارس على خط البصرة وإلى الشرق منها وتبعد خمسمائة كيلومتر، ومن بلدانها مدينة (يزد).

وكانت الشياطين تجتمع حول المحراب ولا تستطيع أن تنظر إلىٰ سليمان وهو في المحراب، فمرّ أحدهم ولم يسمع صوت سليمان، ثم رجع فلم يسمع، ونظر إلىٰ سليمان فإذا به قد سقط ميتاً، فخرج وأخبر الناس أن سليمان قد مات، فأخرجوه ووجدوا عصاه (منسأته)[1] قد أكلتها الأَرَضَة، ولم يعلموا منذ كم مات. فوضعوا الأَرَضَة علىٰ العصا فأكلت منها يوماً وليلةً، ثم قدّروا مدة ما أكلته الأَرَضَة من العصا فوجدوه قد مات منذ سنةٍ. فأيقن الناس عند ذلك أن الجنّ كانوا يكذبون بادّعائهم معرفة الغيب، ولو أنهم كانوا يعلمون الغيب لعرفوا موت سليمان، عليه السلام، ولم يبقوا بالعذاب مدة سنةٍ يعملون له.

○ ملك سليمان، عليه السلام:

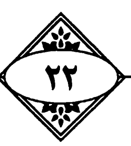
توفي سليمان، عليه السلام، وعمره اثنتان وخمسون سنةً، وكان ملكه أربعين سنةً، وقيل: أن ملكه كان عشرين سنة ـ والله أعلم ـ.

وبعد أربع سنواتٍ من تسلّمه الملك، بدأ بتجديد بناء بيت المقدس، وقد أحكم بناءه. وكان يعقوب، عليه السلام، هو الذي بنىٰ البيت وجعله مسجداً، وذلك بعد بناء البيت الحرام بأربعين سنةً.

وبعد موت نبيّ الله سليمان، عليه السلام، ملك بعده ابنه (رحبعام) مدة سبع عشرة سنةً، ثم تفرّقت بعد ذلك مملكته.

---

(١) المنسأة: كلمة في لغة الحبشة، وتعني: العصا.



زكريا، عليه السلام

زكريا[1]، عليه السلام، بن لدن بن مسلم، بن صدوق بن حشبان بن داود بن سليمان بن مسلم بن صديقة بن برخيا بن بلعاطة بن ناحور بن شلوم بن يهفاشاط بن إينامن بن رحبعام بن سليمان بن داود.

تزوّج زكريا، عليه السلام، أشياع بنت عمران وكانت عقيماً، وكبرت سنّها، وكذا شاب رأس زوجها، ولم يرزقا بولدٍ. وقد كفل مريم بنت عمران، وهي أخت زوجته. وكان كلما دخل محراب مريم وجد عندها فاكهةً في غير أوانها، فعلم أن الرازق للشيء في غير أوانه قادر علىٰ أن يرزقه ولداً وإن كان قد طعن هو وزوجته في السنّ، فدعا وقته ربه أن يرزقه ولداً.

قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ
زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي
وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ
مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ
ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ
نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي
عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ
وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ۚ قَالَ
ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ
فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾ [مريم].

---

(١) انظر المصور رقم (٦)، الصفحة (٢٥٢).


داود
سليمان
رحبعام
إينامن (إيان).
يهفاشاط
شلوم
ناحور
بلعاطة
برخيا
صديقة
مسلم
سليمان
داود
حشبان
صدوق
مسلم
لدن
زكريا
يحيىٰ
يازم
أحريهو
ياوش
أمصيا
عزازيا
موثم
أحريق
حزقيا
مشيا
أمون
باشم (ماثان).
عمران
مريم
عيسىٰ
أشياع (زوجة زكريا)

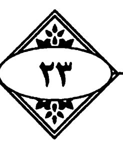
وقال تعالىٰ: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً ۖ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٤١﴾﴾ [آل عمران].

ووراثة آل يعقوب إنما هي النبوة أي: يدعو النبي أن يكون له ولد وارثاً لها، فإن الدنيا أحقر عند الأنبياء من أن يكنزوا لها أو يلتفتوا إليها أو يهمّهم أمرها حتىٰ يسألوا أن يكون لهم أولاد ليحوزوها بعدهم. ويقول رسول الله، صلىٰ الله عليه وسلم: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركنا فهو صدقة». رواه الترمذي.

وكان زكريا، عليه السلام، نجاراً يعمل بيده ويأكل من كسبها، كما كان داود، عليه السلام، يأكل من عمل يده، والغالب أن أنبياء الله لم يكونوا ليجهدوا أنفسهم بالعمل ليُبقوا من دخْلهم ما يكون ذخيرةً لأبنائهم ومن يرثهم من بعدهم.

وبُشّر زكريا، عليه السلام، بولدٍ له اسمه (يحيىٰ) رحمةً من الله ومحبةً، وقد علّمه الله الكتاب والحكمة وهو صغير. قال عبد الله بن المبارك: قال معمر: قال صِبية ليحيىٰ بن زكريا: اذهب بنا نلعب. فقال: ما للعب خُلقنا. كما كان يحيىٰ، عليه السلام، سليماً من النقائص والرذائل، وعلىٰ تقوى لله وطاعةٍ بامتثال الأوامر وتركِ النواهي، وعلىٰ طهارة في الخلق وكان برّاً بوالديه.

وقد اختلف في موت زكريا، عليه السلام، فقيل: مات. وقيل: قُتل إذ هرب من قومه فدخل شجرةً فجاءوا فوضعوا المنشار عليهما، فلما وصل المنشار إلىٰ أضلاعه بدا أنينه وارتفع صوته فأوحىٰ الله إليه؛ لئن لم يسكن أنينك لأقلبنّ الأرض ومن عليها. فسكن أنينه حتىٰ قُطع نصفين.



يحيىٰ، عليه السلام

يحيىٰ(١)، عليه السلام، بن زكريا، عليه السلام، وقد ذكرنا نسبه، أما أمه فهي أشياع بنت عمران أخت مريم بنت عمران أم عيسىٰ ابن مريم، عليه السلام.

وُلد يحيىٰ، عليه السلام، بعد أن بلغ أبواه مرحلةً من العمر كبيرةً وبعد أن يئسا من الإنجاب، ولكن لم ييأسا من رحمة الله، فدعوا الله ربهما فأنعم عليهما بيحيىٰ، عليه السلام، رحمةً من عنده وعلّمه الكتاب والحكمة، وسلّمه من النقائص، وأعطاه التقوىٰ، ومنحه البرّ والطاعة لوالديه.

نشأ يحيىٰ، عليه السلام، علىٰ المحبة من والديه، وعلىٰ ما منحه الله من حكمةٍ وخلقٍ. وكان مع نظيره ابن خالته عيسىٰ ابن مريم علىٰ صلة ومحبةٍ.

قال الإمام أحمد بن حنبل: حدّثنا عفّان، أنبأنا أبو خلف موسىٰ بن خلف، وكان يعدّ من البُدَلاء، حدثنا يحيىٰ بن أبي كثير، عن زيد بن سلام، عن جده ممطور، عن الحارث الأشعري أن النبي، صلىٰ الله عليه وسلم، قال: «إن الله أمر يحيىٰ بن زكريا بخمس كلماتٍ أن يعمل بهنّ، وأن يأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهنّ، وكاد أن يُبطئ، فقال له عيسىٰ، عليه السلام: إنك قد أُمرت بخمس كلماتٍ أن تعمل بهنّ وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهنّ، فإما أن تُبلّغهنّ وإما أن أُبلّغهنّ، فقال: يا أخي،

(١) انظر المصور رقم (٦)، الصفحة (٢٥٢).

إني أخشىٰ إن سبقتني أن أُعذّب أو يُخسف بي، قال: فجمع يحيىٰ بني إسرائيل في بيت المقدس حتىٰ امتلأ المسجد فقعد علىٰ الشرف فحمد الله وأثنىٰ عليه، ثم قال: إن الله عزّ وجلّ أمرني بخمس كلماتٍ أن أعمل بهنّ وآمركم أن تعملوا بهنّ وأولهن:

أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، فإن مثل ذلك مثل من اشترىٰ عبداً من خالص ماله بوَرِقٍ[1] أو ذهبٍ فجعل يعمل ويؤدّي غلّته إلىٰ غير سيّده، فأيّكم يسرّه أن يكون عبده كذلك، وإن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً.

وآمركم بالصلاة، فإن الله يَنْصُب وجهه قِبَل عبده ما لم يلتفت، فإذا صليتم فلا تلتفتوا.

وآمركم بالصيام، فإن مثل ذلك كمثل رجلٍ معه صُرّة من مسكٍ في عصابةٍ كلهم يجد ريح المسك، وإن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك.

وآمركم بالصدقة، فإن مثل ذلك كمثل رجلٍ أسره العدوّ، فشدّو يده إلىٰ عنقه وقدّموه ليضربوا عنقه فقال: هل لكم أن أفتدي نفسي منكم، فجعل يفتدي نفسه منهم بالقليل والكثير حتىٰ فكّ نفسه.

وآمركم بذكر الله عزّ وجلّ كثيراً، فإن مثل ذلك كمثل رجلٍ طلبه العدو سراعاً في إثره فأتىٰ حصناً حصيناً فتحصّن فيه، وإن العبد أحصن ما يكون من الشيطان إذا كان في ذكر الله عزّ وجلّ».

قال: وقال رسول لله، صلىٰ الله عليه وسلم: «وأنا آمركم بخمسٍ أمرني الله بهنّ: بالجماعة، والسمع والطاعة، والهجرة والجهاد في سبيل الله، فإن من خرج عن الجماعة قيد شبرٍ فقد خلع رِبْق الإسلام من عنقه إلا أن يرجع، ومن دعا بدعوىٰ الجاهلية فهو من جثّي جهنم» قال:

---

(١) الوَرِق: الفضة.

يا رسول الله، وإن صام وصلى؟ قال: «وإن صام وصلىٰ وزعم أنه مسلم، ادعوا المسلمين بأسمائهم بما سمّاهم الله عزّ وجلّ المسلمين المؤمنين عباد الله عزّ وجلّ». رواه الترمذي.

وذُكر أن يحيىٰ، عليه السلام، كان كثير الانفراد عن الناس، إنما كان يأنس إلىٰ البراري، ويأكل من ورق الأشجار، ويرد ماء الأنهار، ويتغذّىٰ بالجراد في بعض الأحيان، ويقول: من أكثر منك نعمةً يا يحيىٰ!

وروىٰ ابن عساكر أن أبويه خرجا في طلبه فوجداه عند بحيرة الأردن، فلما التقيا به أبكاهما بكاءً شديداً لما هو فيه من العبادة والخوف من الله عزّ وجلّ.

وقال ابن المبارك: عن وهيب بن الورد قال: فقد زكريا ابنه يحيىٰ ثلاثة أيامٍ، فخرج يلتمسه في البرية، فإذا هو قد احتفر قبراً وأقام فيه يبكي علىٰ نفسه، فقال: يا بني، أنا أطلبك من ثلاثة أيامٍ، وأنت في قبرٍ قد احتفرته قائم تبكي فيه؟ فقال: يا أبت، ألست أنت أخبرتني أن بين الجنة والنار مفازة لا تُقطع إلا بدموع البكائين، فقال له: ابك يا بني فبكيا معاً.

وروىٰ ابن عساكر عنه أنه قال: إن أهل الجنة لا ينامون للذّة ما هم فيه من النعيم، فكذا ينبغي للصدّيقين أن لا يناموا لما في قلوبهم من نعيم المحبة لله عزّ وجلّ، ثم قال: كم بين النعيمين وكم بينهما.

وذكروا أنه، عليه السلام، كان كثير البكاء حتىٰ أثّر البكاء في خديه[1].

○ مقتل يحيىٰ، عليه السلام:

ذكروا أسباباً في قتل يحيىٰ، عليه السلام، ومنها:

---

(١) «قصص الأنبياء»: ابن كثير.

كان بعض ملوك دمشق في ذلك الزمان يريد أن يتزوّج ببعض محارمه، أو بمن لا يحلّ له الزواج منها، فنهاه يحيىٰ، عليه السلام، عن ذلك فبقي في نفسها شيء منه. فلما كان بينها وبين الملك ما يحبّ منها استوهبت منه دم يحيىٰ، فوهبه لها، فبعثت إليه من قتله وجاء برأسه ودمه في طستٍ إليها. فيقال: إنها هلكت فوراً من ساعتها.

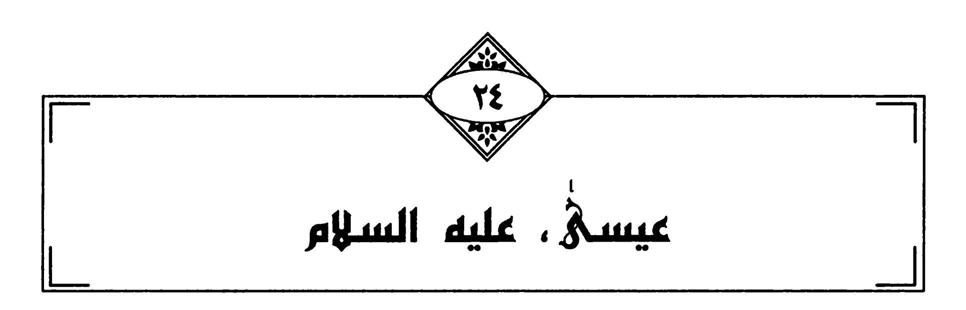
وقيل: أحبته امرأة ذلك الملك وراسلته، فأبىٰ عليها، فلما يئست منه احتالت في أن استوهبته من الملك، فتمنّع عليها الملك ثم أجابها إلىٰ ذلك فبعث من قتله وأحضر إليها رأسه ودمه في طستٍ.

وقيل: إن ملك دمشق هداد بن هدار كان قد زوّج ابنه بابنة أخيه ملكة صيدا، وتُسمّىٰ (أريل)، وكان من جملة أملاكها سوق الملوك بدمشق وهو الصاغة العتيقة، وكان قد طلّقها ثلاثاً، ثم أراد مراجعتها فاستفتىٰ يحيىٰ بن زكريا، عليهما السلام، فأجابه: لا تحلّ لك حتىٰ تنكح زوجاً غيرك، فحقدت عليه، وسألت عمها الملك رأس يحيىٰ بن زكريا، وذلك بإشارةٍ من أمها، فأبىٰ عليها، ثم أجابها إلىٰ ذلك، وبعث إليه وهو قائم يصلي بمسجد جَبْرون من أتاه برأسه في صينية، فجعل الرأس يقول له: لا تحلّ له حتىٰ تنكح زوجاً غيره، فأخذت المرأة الطبق فحملته علىٰ رأسها وأتت به أمها، وهو يقول كذلك، فلما تمثّلت بين يدي أمها خُسف بها إلىٰ قدميها ثم إلىٰ حقويها، وجعلت أمها تولول والجواري يصرخن ويلطمن وجوههن، ثم خُسف بها إلىٰ منكبيها فأمرت أمها السيّاف أن يضرب عنقها لتُشغل برأسها، ففعل، فلفظت الأرض جثتها عند ذلك[1].

واختُلف في مقتل يحيىٰ بن زكريا، عليهما السلام، هل كان في المسجد الأقصىٰ ببيت المقدس أم بدمشق؟

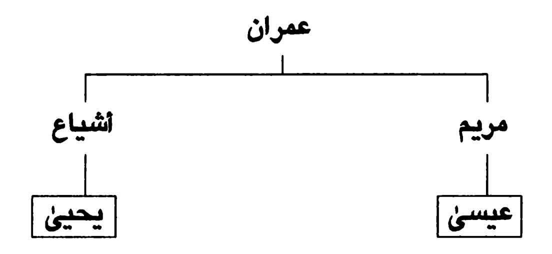
---

(١) المرجع السابق نفسه.

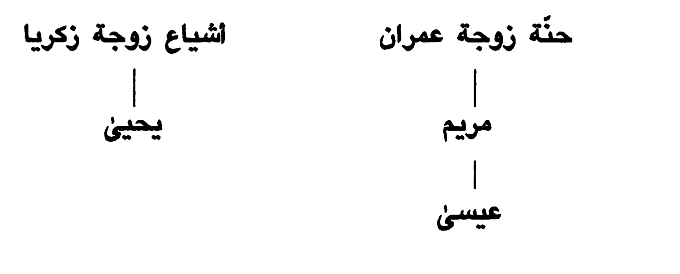


عيسىٰ، عليه السلام

عيسىٰ[1]، عليه السلام، ابن مريم بنت عمران بن باشم (ماثان) بن أمون بن مشيا بن حزقيا، بن أحريق، بن موثم، بن عزازيا، بن أمصيا، بن ياوش، بن أحريهو، بن يازم، بن يهفاشاط، بن إينامن (إيان) بن رحبعام، بن سليمان، بن داود.



وأمه مريم بنت عمران هي أخت أشياع بنت عمران زوجة زكريا وأم يحيىٰ، فعيسىٰ، ويحيىٰ، عليهما السلام، أبناء خالة. وقيل: إن أشياع امرأة زكريا أم يحيىٰ هي أخت (حنّة) امرأة عمران أم مريم، فيكون يحيىٰ ابن خالة مريم، والأول هو الأرجح ـ والله أعلم ـ.



---

(١) انظر المصور رقم (٦)، الصفحة (٢٥٢).

○ مريم بنت عمران:

يعود عمران إلىٰ سلالة نبي الله داود، عليه السلام، وكان عمران صاحب صلاة بني إسرائيل في زمانه، وكانت أمها حنّة بنت فاقود بن قبيل من العابدات. وكان زكريا بن لدن نبيّ ذلك الزمان، وهو زوج أشياع بنت عمران أخت مريم.

كانت حنّة أم مريم بنت عمران عاقراً لا تحمل، وقد رأت يوماً طائراً يزّق فرخاً له فاشتهت الولد، فنذرت إن حملت لتجعلنّ ولدها محرّراً من أي عملٍ وخادماً في بيت المقدس. وقضت مشيئة الله أن تحمل حنّة يومذاك. فلما حان وقت الوضع وتمّ ـ بإذن الله ـ وضعت أنثىٰ فسمّتها مريم، وقالت: يا رب، ليس الذكر كالأنثىٰ في خدمة بيت المقدس. قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران].

استجاب الله دعاء حنّة، فلم يمسّ الشيطان مريم ولا ولدها عيسىٰ، عليه السلام.

قال رسول الله، صلىٰ الله عليه وسلم: «ما من مولود إلا والشيطان يمسّه حين يولد، فيستهل صارخاً من مسّ الشيطان إلا مريم وابنها»[1].

أرضعت حنّة وليدتها واعتنت بها فلما انتهت من مرحلة الرضاعة فطمتها وألبستها وحملتها وذهبت بها إلىٰ المسجد فسلّمتها إلىٰ أولئك العبّاد الذين يقيمون في المسجد، ومريم هي ابنة إمامهم وصاحب صلاتهم عمران، فتنازعوا في كفالتها. فأراد نبيّ الله زكريا، عليه السلام، أن يكفلها دونهم بصفة أن زوجته (أشياع) هي أخت مريم (أو خالتها)، ولكن

---

(١) رواه مسلم وأحمد عن أبي هريرة.

لم يقبلوا بذلك بل جادلوه، وطلبوا منه أن يقترع معهم، وتمّت القرعة وخرجت لصالحه فكفلها، وذلك أن الخالة بمنزلة الأم. قال الله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [آل عمران].

قيل: إن العبّاد في المسجد وغيرهم مثل نبيّ الله زكريا ألقىٰ كل واحدٍ منهم قلمه معروفاً به، ثم أُخذت هذه الأقلام ووضعت في مكانٍ، وأمروا غلاماً لم يبلغ الحِنْث (البلوغ والإدراك) فأخرج واحداً منها، فكان أن أخرج قلم نبيّ الله زكريا، فطلبوا أن يقترعوا مرةً ثانيةً، وأن يكون ذلك بأن يُلقوا أقلامهم في النهر فأيهم جرىٰ قلمه علىٰ خلاف جريان الماء فهو الغالب، ففعلوا، فكان قلم نبيّ الله زكريا هو الذي جرىٰ علىٰ خلاف جريان الماء بينما جرت بقية الأقلام مع الماء، ثم طلبوا أن يقترعوا ثالثةً فأيهم جرىٰ قلمه مع الماء وتكون بقية الأقلام قد انعكس سيرها صعداً فهو الغالب، ففعلوا، فكان زكريا هو الغالب لهم فكفل مريم إذ كان هو أحقّ بها شرعاً وقدراً لوجوهٍ عدةٍ.

اتخذ نبيّ الله زكريا لمريم مكاناً شريفاً من المسجد لا يدخله سواها بعد أن بلغت السنة السابعة، فكانت تعبد الله في ذلك المكان وتقوم بما يجب عليها من سدانة البيت إذا جاءت نوبتها، وذلك حسب سنّها. وتقوم بالعبادة ليلها ونهارها، حتىٰ صارت يُضرب بها المثل بالعبادة في قومها، كما اشتهرت بما صارت عليه من الأخلاق الحميدة والصفات الكريمة. وصار كلما دخل عليها نبيّ الله زكريا موضع عبادتها يجد عندها من أرزاق الفاكهة في غير أوانها إذ يجد مثلاً عندها فاكهة الصيف في فصل الشتاء ولا يوجد في البلاد مثل ذلك فيسألها ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ﴾ فتقول: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران].

طمع نبيّ الله زكريا أن يكون له ولد من صلبه وإن كانت تقدّمت به السنّ ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾﴾

[آل عمران]. أي: يا من يرزق مريم الثمر في غير إبّانه (في غير وقته) هب لي ولداً وإن كان في غير أوانه إذ بلغني الكبر وامرأتي عاقر. فرزقه الله يحيىٰ، عليه السلام.

بشّرت الملائكة بأمرٍ من الله مريم باصطفاء الله لها من بين سائر نساء زمانها بأن اختارها ليكون لها ولد من غير أبٍ، ويكون نبياً شريفاً في الدنيا ومن الصالحين، ويُكلّم الناس وهو صغير لا يزال في المهد يدعوهم إلىٰ عبادة الله وحده لا شريك له وكذلك وهو كهل، وفي الوقت نفسه فالملائكة قد أمرت مريم أن تُكثر من عبادة الله عزّ وجلّ، فتقنت لله وتركع وتسجد لتكون أهلاً لهذه الكرامة ولتقوم بشكر هذه النعمة. فيقال: إنها كانت تقوم بالصلاة حتىٰ تفطّرت قدماها.

واختار الله سبحانه وتعالىٰ مريم بنت عمران علىٰ نساء العالمين ممن جاء قبلها وعلىٰ نساء زمانها.

قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن

رَبُّكُمۡۗ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٥١﴾﴾ [آل عمران].

○ ميلاد عيسىٰ، عليه السلام:

وضعت حنّة ابنتها مريم بنت عمران في مسجد بيت المقدس همّها العبادة وخدمة المسجد، وكفلها نبيّ الله زكريا، عليه السلام، فجعل لها محراباً لا يدخله أحد سواها، ولما بلغت سنّ الرشد اجتهدت بالعبادة حتىٰ لم يكن لها نظير في ذلك الزمان.

بشّرت الملائكة مريم باصطفاء الله لها، وأنه سيهب لها ولداً يكون نبياً مؤيّداً بالمعجزات، فتعجّبت كيف يكون لها ولد دون أن تتزوّج؟ فأخبرتها الملائكة أن الله علىٰ كل شيءٍ قدير، وأنه إذا أراد أمراً فإنما يقول له: كن، فيكون. فاتكلت علىٰ الله وسلّمت أمرها إليه. وعلمت أن هذا أيضاً اختبار عظيم لها إذ أن الناس يتكلمون فيها بسببه إذ لا يعلمون حقيقة الأمر، بل ينظرون إلىٰ الظاهر من غير تدبّرٍ ولا تفكيرٍ بخلق الله وقدرته علىٰ الخلق.

كانت مريم تخرج من المسجد وقت دورتها الشهرية (الحيض)، أو لحاجةٍ ضروريةٍ لا بدّ منها من استقاء الماء أو تأمين الطعام، فبينما هي ذات يومٍ خارج المسجد انفردت وحدها شرقي المسجد الأقصىٰ إذ بعث الله إليها الروح الأمين (جبرائيل)، عليه السلام، فتمثّل لها رجلاً عادياً فاستعاذت بالله منه: ﴿قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ﴿١٨﴾﴾ [مريم]. فأجابها: إني لست بشراً، ولكني ملك بعثني الله إليك لأهب لك ولداً زكياً. فسألته: كيف يكون لي ولد ولم يكن لي زوج، ولم أعرف الفاحشة ـ ولله الحمد ـ؟ فأجابها: ولكن هذا أمر يسير علىٰ الله، وقد وعد أنه سيخلق منك غلاماً وأنت لا زوج لك، نعم، ولم تعرفي البغاء. وكان أمر الله وقضاؤه، وتمّ الحمل، إذ نفخ الروح الأمين في جيب درعها فذهبت النفخة إلىٰ فرجها فكان الحمل.

قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾ [مريم].

بعد أن حملت مريم ضاقت ذرعاً بما تمّ، وعلمت أن كثيراً من الناس يكون منهم كلام في حقها، فلما ظهرت عليها علائم الحمل انتبه إلىٰ ذلك ابن خالها يوسف بن يعقوب النجار، وكان من عُبّاد بني إسرائيل فجعل يُظهر عجبه من ذلك بشدةٍ وذلك لما يعلم من ديانتها وعبادتها ومع ذلك يراها حبلىٰ وليس لها زوج، فعرّض لها ذات يومٍ بالكلام فقال: يا مريم، هل يكون زرع من غير بذرٍ؟ قالت: نعم، فمن أوجد الزرع الأول؟ ثم قال: فهل يكون ولد من غير ذكرٍ؟ قالت: نعم، إن الله خلق آدم من غير ذكرٍ ولا أُنثىٰ. قال لها: فأخبريني خبرك، فقالت: إن الله بشّرني ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [آل عمران].

ويروىٰ مثل هذا عن زكريا، عليه السلام، أنه سألها فأجابته بمثل هذا ـ والله أعلم ـ.

واتهمها بعض المنحرفين بابن خالها يوسف بن يعقوب النجار الذي كان يتعبّد في المسجد نفسه.

وشاع واشتهر في بني إسرائيل أن مريم بنت عمران حامل، فما دخل علىٰ أهل بيتٍ ما دخل علىٰ آل بيت زكريا من الثرثرة والكلام الذي في غير محله.

توارت مريم عن الناس ومنهم أهلها، واعتزلتهم، واتخذت لها مكاناً بعيداً عنهم.

وجاء وقت الوضع، واختلف في مدة الحمل هل كانت تسعة أشهرٍ كما تحمل النساء أم ثمانية أشهرٍ أم أقلّ من ذلك؟ واضطرها الطلق إلىٰ اللجوء إلىٰ جذع النخلة في منطقة (بيت لحم)، وجالت بفكرها وتمنّت أن تكون قد ماتت قبل هذا وكانت نسياً منسياً عند الناس، إذ علمت أنها ستُتهم ولن يصدقها الآخرون حين تأتي إليهم وعلىٰ يدها غلام تحمله رغم ما يعرفون عنها من الدين والعبادة والزهد والبُعد عن مثل هذه الأمور، فحملت لذلك الكثير من الهمّ وأصابها الغمّ، فسمعت نداء من تحتها من الـــمَـــلَـــك ﴿أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾ [مريم].

إنها كرم من الله ومِنّة ورحمة وفضل واعتبار لأولي الألباب، فأية قوةٍ لامرأةٍ قد جاءها المخاض لتهزّ شجرة نخيلٍ، وأي ثمرٍ للنخيل في فصل الشتاء (الميلاد ٢٣ كانون الأول)، ويثمر النخيل في فصل الصيف، وأية قدرةٍ تجعل الماء يجري تحتها، فسبحان الله خالق كل شيءٍ. ثم هناك نعمة الصبر وعدم الكلام مع أي إنسانٍ يُكلّمها حتىٰ لا تغضب وتتألّم، إذن عليها أن تصمت بعد أن تقول: إني صائمة عن الكلام.

وتمّ الوضع دون عناءٍ ومن غير دماءٍ، وما كان عليها أن تسير إلىٰ أهلها لتجد الراحة النفسية دون خوفٍ علىٰ المولود وعلىٰ نفسها.

قال تعالىٰ: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾ [مريم].

فلما رأوا مريم تحمل ولدها قالوا: يا مريم، لقد جئت شيئاً منكراً، يا أخت هارون، وهارون هو أحد الرجال الصالحين في ذلك الزمن معروف بالعبادة، ومشهود له بالخير، أي: يا مثيلة هارون بالصلاح لست من بيت سوءٍ يعمل المنكر والفحش إذ اتهموها بذلك، وذكرنا أن هناك من اتهم ابن خالها يوسف بن يعقوب النجار بذلك و. . . فأشارت إلىٰ ولدها أن اسألوه

فأجاب أحد الطغاة: تُحيليننا إلىٰ هذا المولود الذي لا يزال في المهد فكيف نُكلّمه؟!! فنطق المولود بقدرة الخالق نطق بكلامٍ فيه دعوة إلىٰ عبادة الله سبحانه وتعالىٰ وأنه سيحمل هذه الدعوة ويرفع رايتها.

قال تعالىٰ: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ [مريم].

شُدِه الناس من كلام عيسىٰ، عليه السلام، وأخذهم التعجّب، فأُخرست الألسن، وكُمّت الأفواه، ولم يكن أمامهم سوىٰ الرضوخ وتصديق ما جرىٰ. وبرّأ أمه مما نسبه إليها الجاهلون، وقذفوها به، ورموها بسببه غير أن المتعنتين الكفّار استمرّوا بقولهم: إنما حملت من زنى كذلك وُجد جماعة آخرون من الكفار فزعم بعضهم أنه هو الله، وزعم بعضهم الآخر أنه ابن الله. فلعنة الله علىٰ الكافرين إذ يريدون طرح صورةٍ غير صحيحةٍ عن ربّ العزّة والجبروت، خالق السماوات والأرض، الذي يُحيي ويميت. فالله سبحانه وتعالىٰ لا ينبغي أن يكون له ولد لأنه خالق كل شيءٍ ومالكه، وكل شيءٍ فقير إليه، خاضع ذليل لديه، وكل من في السماوات والأرض من خلقه، وهو ربّ كل شيء ولا ربّ سواه.

والله سبحانه وتعالىٰ لا شبيه له ولا مثيل فكيف يكون له ولد.

قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [المائدة].

﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ [المائدة].

﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة].

○ نشأة عيسىٰ، عليه السلام:

ولد عيسىٰ، عليه السلام، في بلدة (بيت لحم) جنوب بيت المقدس بثلاثين كيلومتراً. ولما بلغ من العمر سبع سنين أسلمته أمه إلىٰ الكتّاب، فكان المعلّم لا يُعلّمه شيئاً إلا سبقه إليه.

همّ بنو إسرائيل بقتله، فخافت أمه عليه فأوحىٰ الله إلىٰ أمه أن تبتعد عن بيت المقدس، وقيل: إنها انتقلت به إلىٰ مصر، وقيل: إلىٰ دمشق، وقيل: إلىٰ الرملة، وهذا الأرجح.

ولما بلغ من العمر ثلاث عشرة سنةً رجع إلىٰ بيت المقدس.

وأُنزل الإنجيل علىٰ عيسىٰ، عليه السلام، لما بلغ من السنّ ثلاثين سنةً وبدأ النزول في ثماني عشرة ليلةً خلت من شهر رمضان.

وأيّد الله سبحانه وتعالىٰ عبده عيسىٰ، عليه السلام، بكثيرٍ من الآيات ولكن هذا ما زاد الكافرين إلا كفراً وعناداً وقالوا: إن هذا إلا سحر مبين، ووشوا به إلىٰ بعض ملوك ذلك الزمن فعزموا علىٰ قتله وصلبه، فأنقذه الله منهم ورفعه إليه من بين أظهرهم، وألقىٰ شبهه علىٰ بعض أصحابه فأخذوه وقتلوه وصلبوه وهم يظنون أنه عيسىٰ، عليه السلام، وهم بذلك ضالّون ومكابرون للحق.

وكان في قوم عيسىٰ، عليه السلام، فئة صالحة فكانوا أنصاراً له وأعواناً وهم الحواريون.

قال الله عزّ وجلّ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَـٰهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الصف].

وكان عيسىٰ، عليه السلام، خاتم أنبياء بني إسرائيل، وقد قام فيهم خطيباً فبشّرهم بخاتم الأنبياء الذي سيأتي بعده، وذكر لهم صفته ليعرفوه ويتّبعوه إن كانوا في أيامه وذلك لإقامة الحجّة عليهم وإحساناً من الله إليهم، قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾ [الصف].

وكان ممن آمن مع عيسىٰ، عليه السلام، أهل أنطاكية جميعاً إذ أرسل إليهم شمعون الصفا مع اثنين ممن آمن معه وصدق. أما جمهور بني إسرائيل فقد كفروا واستمروا علىٰ ذلك، ولكن نصر الله من آمن علىٰ عدوّهم، وأصبحوا ظاهرين عليهم قاهرين لهم مدة الفترة[1] إلىٰ بعثة رسول الله محمد بن عبد الله، صلىٰ الله عليه وسلم، وهو آخر أنبياء الله ورسله. فقد كان للروم أمبراطورية واسعة وهم علىٰ النصرانية، ولم يكن لليهود أثر بل كانوا يعيشون في كنف الروم وتحت سلطانهم.

○ المائدة:

أمر نبيّ الله عيسىٰ، عليه السلام، الحواريين أن يصوموا شهراً ففعلوا، فلما أتمّوا الصيام سألوا رسولهم أن يدعو ربه ليُنزّل لهم مائدةً من السماء لتطمئنّ قلوبهم بأن الله تقبّل صومهم فأجابهم إلىٰ طلبهم، وتكون عيداً لهم يفطرون عليها، وكافيةً لهم جميعاً أغنياء وفقراء، وهي شهادة أنك قد صدقتنا برسالتك إلينا. فوعظ عيسىٰ، عليه السلام، الحواريين، وذكّرهم بالله وخاف عليهم أن لا يقوموا بالشكر لله حق الشكر ولا يُؤدّوا

---

(١) الفترة: مرحلة الفتور في بعثة الأنبياء والرسل بين عيسى ومحمد، عليهما السلام. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ [المائدة]. واستعمال فترة بمعنى مدة خطأ وهو الشائع ـ مع الأسف ـ.

حق الشروط، فأبوا عليه إلا أن يدعو ربه ذلك، وأصرّوا علىٰ الطلب.

قام عيسىٰ، عليه السلام، إلىٰ مُصلاه وتضرّع إلىٰ الله، وأجهش بالبكاء، ودعا ربه إلىٰ إجابة ما سأل الحواريون.

أنزل الله سبحانه وتعالىٰ المائدة بين غمامتين، وجعلت تقترب من الأرض تدريجياً حتىٰ نزلت بين يدي رسوله عيسىٰ، عليه السلام، وهو يقول: بسم الله خير الرازقين، فإذا عليها سبعة من الحيتان وسبعة أرغفةٍ، مع ثمارٍ ورمانٍ، ولها رائحة زكية.

أمر عيسىٰ، عليه السلام، القوم بالأكل منها، فقالوا: لا نأكل حتىٰ تأكل، فقال: إنكم أنتم الذين ابتدأتم السؤال لها. فأبوا أن يأكلوا منها ابتداءً، فأمر الفقراء، وأصحاب الحاجة، والمرضىٰ، وأصحاب العاهات وكانوا قريباً من ألفٍ وثلاثمائةٍ فأكلوا منها فبرأ كل من به عاهة أو آفة أو مرض مزمن، فندم الناس علىٰ ترك الأكل منها لما رأوا من إصلاح حال أولئك.

قيل: وكانت تنزل كل يومٍ مرةً فيأكل الناس منها. وقيل: كان يأكل منها نحو سبعة آلافٍ. وقيل: كانت تنزل يوماً بعد يومٍ. ثم أوحىٰ الله إلىٰ عبده ورسوله عيسىٰ، عليه السلام، أن يقصرها علىٰ الفقراء وأصحاب الحاجة دون الأغنياء، فشقّ ذلك علىٰ كثيرٍ من الناس، وتكلّم منافقوهم في ذلك، فرفعت بالكلية ومُسخ الذين تكلّموا في ذلك خنازير.

وقد روىٰ ابن أبي حاتم وابن جرير جميعاً، حدثنا الحسن بن قزعة الباهلي، حدثنا سفيان بن حبيب، حدثنا سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن خلاس، عن عمار بن يسار، عن النبيّ، صلىٰ الله عليه وسلم، قال: «نزلت المائدة من السماء خبز ولحم وأُمروا أن لا يخونوا ولا يدّخروا ولا يرفعوا لغدٍ، فخانوا، وادّخروا، ورفعوا، فمُسخوا قردة وخنازير».

وكان عيسىٰ، عليه السلام، يلبس الشعر، ويأكل من ورق الشجر، ولا يأوي إلى منزلٍ، ولا أهل له، ولا مال، ولا يدّخر شيئاً لغدٍ، وقال

بعضهم: كان يأكل من غزل أمه، صلوات الله وسلامه عليه[١].

قال الله عزّ وجلّ: ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [المائدة].

○ رفع عيسىٰ، عليه السلام:

عمل بعض اليهود علىٰ قتل المسيح عيسىٰ، عليه السلام، فوشوا به إلىٰ بعض الكفرة في ذلك الزمان، وهو داود بن نورا فأمر بقتله وصلبه.

كان عند عيسىٰ، عليه السلام، اثنا عشر رجلاً من الحواريين هم:

بطرس.	**متّىٰ.**
يعقوب بن زبدا.	**توماس.**
يحنس بن زبدا.	**يعقوب بن حلقيا.**
أندراوس.	**وتداوس.**
فيليبس.	**فتاتيا.**
أبرثلما.	**جرجس.**

وقد دلّ اليهود علىٰ مكان عيسىٰ، عليه السلام، رجل يُدعىٰ (يودس كريايوطا) فأُلقي عليه شبهه فأُلقي عليه القبض، وقُتل، وصُلب ـ والله أعلم ـ.

وقيل: إن جرجس هو الذي أُلقي شبه المسيح عليه فقُتل، وصلُب ـ والله أعلم ـ.

---

(١) «قصص الأنبياء»: ابن كثير.

وقيل: حوصر البيت الذي فيه عيسىٰ، عليه السلام، وإخوانه من الحواريين عشية يوم الجمعة ليلة السبت اليوم الثاني والعشرون من شهر رمضان. فلما حان وقت دخولهم أُلقي شبهه علىٰ بعض أصحابه الحاضرين عنده، ورُفع عيسىٰ، عليه السلام، من نافذة من ذلك البيت إلىٰ السماء، وأهل البيت ينظرون، ودخل رجال الملك فوجدوا ذلك الشاب الذي أُلقي عليه شبهه فأخذوه ظناً منهم أنه عيسىٰ فقتلوه، وصلبوه، ووضعوا الشوك علىٰ رأسه إهانةً له.

ورُوي عن ابن عباسٍ، رضي الله عنهما، قال: لما أراد الله أن يرفع عيسىٰ إلىٰ السماء خرج علىٰ أصحابه وفي البيت اثنا عشر رجلاً منهم من الحواريين، خرج عليهم من عين ماءٍ في البيت ورأسه يقطر ماءً فقال: إن منكم من يكفر بي اثنتي عشرة مرةً بعد أن آمن بي، ثم قال: أيكم يُلقىٰ عليه شبهي فيقتل مكاني فيكون معي في درجتي؟ فقام شاب أحدثهم سناً، فقال له: اجلس، ثم أعاد عليهم فقام الشاب فقال: أنا، فقال: أنت هو ذاك، فأُلقي عليه شبه عيسىٰ، ورُفع عيسىٰ من نافذةٍ في البيت إلىٰ السماء.

وجاء الطلب من اليهود، فأخذوا الشبه، فقتلوه ثم صلبوه.

وقال ابن جرير الطبري: حدثنا ابن حميد، حدثنا يعقوب القُمّيّ عن هارون بن عنترة، عن وهب بن منبه، قال: أتىٰ عيسىٰ ومعه سبعة عشر من الحواريين في بيتٍ فأحاطوا بهم، فلما دخلوا عليهم صوّرهم الله كلهم علىٰ صورة عيسىٰ، فقالوا لهم: سحرتمونا لتبرزن إلينا عيسىٰ أو لنقتلنكم جميعاً، فقال عيسىٰ لأصحابه: من يشتري منكم نفسه بالجنة؟ فقال رجل: أنا، فخرج إليهم، فقال: أنا عيسىٰ، وقد صوّره الله علىٰ صورة عيسىٰ، فظنّت النصارىٰ مثل ذلك أنه عيسىٰ، ورفع الله عيسىٰ من يومه ذلك.

لما صلب اليهود ذلك الرجل ثم ألقوه بخشبته جعلوا مكانه مرمىً

للقمامة، والنجاسة، وجيف الميتة، والقاذورات، ولم يزل كذلك حتىٰ زمن قسطنطين بن قسطن باني مدينة القسطنطينية (إستانبول اليوم)، وذلك بعد ثلاثمائة سنةٍ من المسيح عيسىٰ، عليه السلام، ودخل الروم يومها بالنصرانية. فعمدت أُمّ الملك قسطنطين هيلانة الحرّانية فأخرجت جثة الرجل الذي صُلب، كما وجدوا الخشبة التي صُلب عليها، فعظّم النصارىٰ تلك الخشبة وغطّوها بالذهب واللآلئ، ثم اتخذوا الصلبان وتبرّكوا بشكلها وصاروا يُقبّلونها.

وأمرت هيلانة الحرّانية أم الملك قسطنطين فأُزيلت القمامة من ذلك الموقع، وبُني مكانها كنيسة عظيمة مزخرفة بأنواع الزينة، وهي المعروفة في بيت المقدس، ويقال لها (كنيسة القيامة) ويعنون: التي يقوم جسد المسيح منها.

ثم أمرت هيلانة بأن توضع قاذورات البلد علىٰ الصخرة التي هي قِبلة اليهود فلم تزل كذلك حتىٰ فتح عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، بيت المقدس، فكنس عنها القمامة، وطهّرها من الأنجاس، ووضع المسجد أمامها حيث صلىٰ رسول الله، صلىٰ الله عليه وسلم، ليلة الإسراء بالأنبياء وهو المسجد الأقصىٰ.

ورُفع عيسىٰ، عليه السلام، وعمره ثلاث وثلاثون سنةً.

وبقيت أمه مريم بعده خمس سنواتٍ، وماتت وعمرها ثلاث وخمسون سنةً.

قال الله تعالىٰ: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [آل عمران].

وقال الله تعالىٰ: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ

يَقِينَۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤۡمِنَنَّ بِهِۦ قَبۡلَ مَوۡتِهِۦۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا ﴿١٥٩﴾﴾ [النساء].

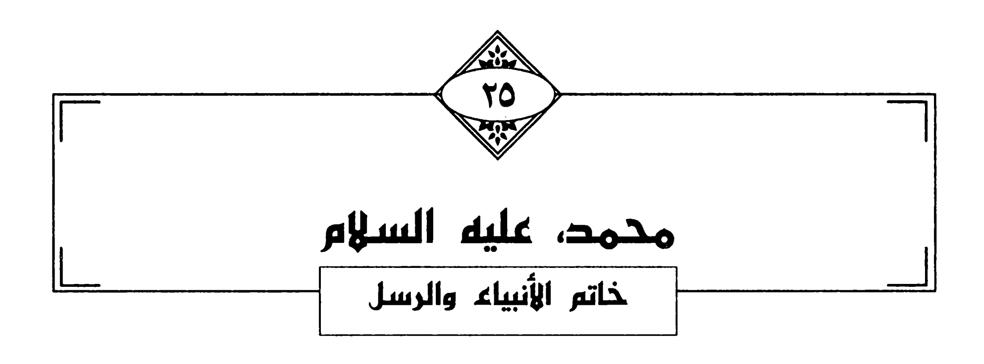
وسيكون نزول عيسىٰ، عليه السلام، في آخر الزمان علىٰ المنارة البيضاء بدمشق وقد أُقيمت صلاة الصبح، فيقول له إمام المسلمين: تقدّم يا روح الله فصلّ. فيقول: لا. بعضكم علىٰ بعض أمراء مكرمة الله هذه الأمة. وفي روايةٍ: فيقول له عيسىٰ: إنما أُقيمت الصلاة لك. ثم يركب ومعه المسلمون في طلب المسيح الدجّال فيلحقه عند باب مدينة (اللُّدّ) فيقتله بيده الكريمة.

وعندما ينزل بدمشق يقتل الخنزير، ويكسر الصليب، ولا يقبل من أحدٍ إلّا الإسلام.

والمدة التي بين عيسىٰ ومحمد، عليهما السلام، هي حوالي خمسمائةٍ وأربعين سنة (٥٣٨) إذ ولد رسول الله محمد، صلىٰ الله عليه وسلم، عام الفيل سنة ٥٧١ بعد ميلاد المسيح عيسىٰ، عليه السلام، وعاش المسيح، عليه السلام، ٣٣ سنة (٥٧١ ـ ٣٣ = ٥٣٨) ٥٣٨ سنة شمسية = ٥٥٤ سنة قمرية. والله سبحانه وتعالىٰ أعلم.

وبقي أصحاب المسيح عيسىٰ، عليه السلام، علىٰ سُنّته وهديه مائتي سنةٍ، ثم بدّلوا وحرّفوا.

ونقل الإنجيل عن المسيح عيسىٰ، عليه السلام، أربعة هم: لوقا، ومتّىٰ، ومرقس، ويوحنّا، وبين هذه الأناجيل الأربعة تفاوت كبير بالنسبة إلىٰ كل نسخةٍ ونسخةٍ بالنسبة إلىٰ الزيادات والنقص والتغيير، وقد أدرك اثنان منهما المسيح، عليه السلام، وهما: متّىٰ ويوحنّا، والاثنان الآخران وهما: مرقس ولوقا فإنهما من أصحاب أصحابه.



محمد[1]، عليه السلام، بن عبد الله، بن عبد المطلب، بن هاشم، بن عبد مناف، بن قصي، بن كلاب، بن مُرّة، بن كعب، بن لؤي، بن غالب، بن فهر، بن مالك، بن النضر، بن كِنانة، بن خُزَيمة، بن مُدرِكة، بن إلياس، بن مُضَر، بن نزار، بن مَعَدّ، بن عدنان، بن أدد، بن مُقَوّم، بن ناحور، بن تيرح، بن يَعْرُب، بن يَشْجُب، بن نابت، بن إسماعيل، بن إبراهيم الخليل.

اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالىٰ أن تتوقّف بعثة الأنبياء والرسل مدةً من الزمن بعد عيسىٰ، عليه السلام، فتوقّفت مدة خمسمائةٍ وثمانيةٍ وثلاثين سنةً، ثم كانت بعثة رسول الله محمد بن عبد الله، صلىٰ الله عليه وسلم. قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٩﴾ [المائدة].

○ نشأته، عليه السلام:

ولد محمد، عليه السلام، في الثاني عشر من شهر ربيع الأول (٢٠ نيسان سنة ٥٧١م)، وهو ما يوافق السنة الأولىٰ من عام الفيل. وكان أبوه عبد الله بن عبد المطلب قد توفي، وهو لا يزال في جوف أمه لم تزد مدة حمله علىٰ الشهرين.

ولد محمد، عليه السلام، في مكة يتيماً، وهي الصورة الأولىٰ من

(١) انظر المصور رقم (٤)، الصفحة (٢٥٠).

اليتم التي تجعل المرء يجد في نفسه تعزيةً فيما لو وُلد يتيماً إذ أن سيّد البشر قد وُلد يتيماً.

وكان من عادة قريش وأهل المدن عامةً أن يرسلوا أطفالهم إلىٰ البادية ليتلقّنوا فيها فصاحة اللسان وسلامة اللغة. وكانت العادة أن تأتي المرضعات من البوادي علىٰ جماعاتٍ يأخذن الرضّع، فأخذته حليمة السعدية فأرضعته في بادية قومها بني سعد، وقد وجدت الخير بإرضاعه إذ حلّ عليها النعيم، وكانت تشعر باللبن يتدفّق في ثدييها، ووجد قومها كذلك الخير بوجوده في باديتهم إذ زال القفر من ديارهم، وانتهىٰ الجدب من بلادهم، وجادت عليهم السماء بخيرها فاخضرّت الأرض، وارتفعت الأعشاب، وشبعت الأغنام فاكتنزت لحماً، وأُترعت أضرعتها لبناً بل أضحت تبدو حُفّلاً. وكان هادئاً لطيفاً في علاقته مع إخوته الذين كانوا في رعاية السعدية وكنفها ترضعهم معه.

وعاد محمد، عليه السلام، إلىٰ أُمّه، ولم يزد عمره علىٰ الرابعة، ولم يلبث عندها إلا قليلاً إذ ذهبت به إلىٰ يثرب لزيارة أقربائها وأثناء عودتها أدركتها المنيّة ببلدة الأبواء[1] وهي في مقتبل العمر، وأول سنّ الصبا، ولم يكن أبوه بأكبر منها بكثير فكلاهما مات دون العشرين من العمر، وقلّما يموت الزوجان معاً في مثل هذه السنّ المبكرة، فسبحان الله الذي بيده كل شيءٍ.

توفيت آمنة، فانتقلت كفالة الطفل إلىٰ جدّه عبد المطلب، وحضنته جاريته بركة أم أيمن التي ورثها عن أبيه، فكانت كأمٍ له، وكان لها ولداً مُطيعاً، وقد رأت منه من النجابة الشيء الكثير، لم تر مثلها في أقرانه، ولم تعلم هذا في أترابه بل ولا من الذين يفوقونه سنّاً بكثير. وكان عبد المطلب سيّد قريش وشيخها المطاع. ولكن هذه الكفالة لم تَطُل إذ توفي عبد المطلب ولم تزد سنّ محمدٍ، عليه السلام، علىٰ السنة الثامنة من عمره، أي: كانت هذه الكفالة ما يقرب من أربع سنواتٍ.

---

(١) الأبواء: بلدة بين مكة ويثرب، وهي إلى يثرب أقرب، وتقع إلى الشمال الشرقي من ميناء رابغ وعلى مسافة أربعين كيلومتر منها.

إبراهيم الخليل

إسحاق | إسماعيل | مديان

نابت

يَشْجُب

يَعْرُب

تيرح

ناحور

مُقَوّم

أدد

عدنان

مَعَدّ

نِزار

مُضَر

إلياس

مُدْرِكة

خُزَيْمة

كِنانة

النضر

مالك

فِهْر (قريش).

غالب

لُؤيّ

كعب

مُرّة

كِلاب

قصي (زيد).

عبد مَناف (المغيرة).

هاشم (عمرو).

عبد المطلب (شيبة).

عبد الله

مُحَمّد صلىٰ الله عليه وسلم.

وبعد وفاة عبد المطلب، انتقل محمد، عليه السلام، إلىٰ كفالة عمّه أبي طالب، وهو شقيق والده عبد الله. وكان أبو طالب يحبّ ابن أخيه محمداً حبّاً جمّاً لما رأىٰ فيه من الأدب والنجابة والطاعة، فضمّه إلىٰ أولاده، وكان يعتني به العناية التامة، ويُفضّله علىٰ أبنائه جميعهم.

كان أبو طالب قليل المال كثير العيال، وقد لاحظ هذا محمد، عليه السلام، مع صغر سنّه، فطلب منه أن يعمل فوافق العمّ مع إلحاح ابن أخيه، فبدأ يرعىٰ الغنم لأهل مكّة علىٰ قراريط.

رأىٰ أبو طالب أن ابن أخيه قد قارب الثانية عشرة من العمر وبذا فقد بدأ بمرحلة الشباب، وبذلك يجب أن يترك مهنة الرعي ويعمل بالتجارة التي يعمل بها سادة قريشٍ، وسار أبو طالب في تجارةٍ، وصعُب علىٰ ابن أخيه وهو أنيسه فرقّ العمّ علىٰ ابن أخيه وأخذه معه، وبذا تحقّقت رغبة العمّ، وسارت القافلة إلىٰ بلاد الشام، ووجد العمّ من ابن أخيه الأخ الرفيق، والولد المطيع، والتاجر المستنير، والزميل ذا العقل الراجح، وكان العمّ يشعر أنه يصطحب رجلاً كبيراً ذا قلبٍ واسعٍ، وعقلٍ راجحٍ، وخبرةٍ عاليةٍ، ومعرفةٍ عامةٍ.

وصلت قافلة التجارة إلىٰ بُصرىٰ الشام من بلاد حوران في الشام، وكان بها سوق عامة دائمة، فالتقىٰ أبو طالب بالراهب (بحيرا) الذي سأله عن محمدٍ، فأجابه أبو طالب: إنه ابني، فقال الراهب: إن هذا الفتىٰ سيكون له خبر فعُد به. فرجع أبو طالب مسرعاً إلىٰ مكة خوفاً علىٰ ابن أخيه.

ولما عاد محمد، عليه السلام، إلىٰ مكة عاش في ظلّ مجتمعها يُخالطهم، ويتعامل معهم، ويرعىٰ الغنم، فعرفه الناس معرفةً تامةً. وقارب عمر محمدٍ، عليه السلام، الثامنة عشرة.

شارك محمد، عليه السلام، في حرب الفجّار مع قريش وقد ناهز العشرين من عمره. وكانت هذه الحرب بين قريشٍ وكِنانة من جهةٍ وبين قيسٍ من جهةٍ، ثمّ تمّ الصلح بين الطرفين ودُفعت الديات. وقد شارك

محمد، عليه السلام، في هذه الحرب مع أعمامه ينقل إليهم الأسلحة والنبال، وكان عمه الزبير قائد بني هاشم، ومعه إخوته أبو طالب، والحمزة، والعباس.

وشهد محمد، عليه السلام، حلف الفضول الذي عُقد بين بطون قريشٍ بعد حرب الفجّار، وعُقد الحلف في دار عبد الله بن جدعان أحد وجهاء قريشٍ، وتعاقدت البطون ومن بينها بنو هاشم ألا يوجد مظلوم في مكة سواء أكان من أهلها أم من غيرهم إلا وتُردّ إليه مظلمته.

وشاع في أندية قريش ومحافلها خبر محمد، عليه السلام، في صدقه، وأمانته، وسلوكه، وأدبه، حتىٰ عُرف بـ (محمد الأمين) و(محمد الصادق).

وأصاب البيت الحرام حريق، ثم جاءه سيل عارم فتصدّعت جُدُر الكعبة، فأرادت قريش إعادة بنائها من جديدٍ، وشرعت في البناء، وكان الوجهاء والأشراف يحملون الحجارة علىٰ أكتافهم لمكانة الكعبة في قلوبهم، وقد شارك في ذلك محمد، عليه السلام، ومعه عمّه العباس.

وانتهىٰ البناء وأرادوا وضع الحجر الأسود في مكانه، ولكنهم اختلفوا فيمن يضعه، وتنافسوا في ذلك حتىٰ كادت الحرب تنشب بين بطون قريشٍ، واستمرّ الخلاف أربع ليالٍ، ثم إن أبا أمية بن المغيرة المخزومي ـ وكان أسنّ القوم ـ قال: يا قوم، لا تختلفوا بل حكّموا من ترضون بحكمه، فقالوا: نكل الأمر لأول داخلٍ. وما لبث القوم إلا قليلاً حتىٰ دخل عليهم محمد، عليه السلام، فاطمأنت القلوب لما يعرفون من صدقه وأمانته، وحكمته ورأيه، وقالوا: هذا محمد الأمين قد رضيناه حكماً.

شرح الوجهاء لمحمدٍ، عليه السلام، القضية، فما كان منه إلا أن خلع رداءه وبسطه، ووضع الحجر عليه، وقال: لتأخذ كل قبيلةٍ بطرفٍ من الثوب ولترفع، واتجهوا إلىٰ موضع الحجر حتىٰ إذا وصلوا إليه أخذه بيديه الشريفتين، ووضعه في مكانه المحدّد.

وبلغ الخامسة والعشرين من عمره وصار هدفاً لكثير من بطون قريشٍ والقبائل تُريد مُصاهرته لما عُرف عنه من الخُلق والرأي والأمانة والصدق رغم قلّة ماله. وكانت خديجة بنت خويلد من بني أسد أحد بطون بني قريشٍ المعروفة بالمجد، وكانت أرملةً إذ تزوّجت أبا هالة وأنجبت ولداً، ثم مات زوجها وكانت تاجرةً ثريةً تستأجر الرجال للذهاب بتجارتها. وأرادت أن تستوثق بما تسمع عن محمدٍ، عليه السلام، فاستأجرته ليذهب بتجارةٍ لها إلىٰ الشام، وأرسلت معه غلامها ميسرة، وذهبت قافلة تجارة خديجة إلىٰ الشام، وعادت وقد ربحت ربحاً عظيماً، وسألت غلامها ميسرة عن محمدٍ، عليه السلام، فأعطاها صورةً في غاية الحسن أمانةً، وعفّةً، وصدقاً، وخُلقاً، ورأياً، فسُرّت غاية السرور، وطمعت بالزواج منه، وأرسلت تخطبه لنفسها، وهي تُقارب الأربعين سنةً من العمر.

وذهب محمد، عليه السلام، وأعمامه إلىٰ عمّها عمرو بن أسد فخطبها منه فزوّجه منها. وعاش محمد، عليه السلام، مع خديجة حياةً زوجيةً هادئةً مثاليةً، خديجة مع زوجها الرجل المثالي في الصدق والأمانة والكرم والوفاء والمحبة والخير، وهذا ما سيكون له أكبر الأثر في المستقبل.

حُبّب لمحمد، عليه السلام، الخلوة ليبتعد عن مشكلات المجتمع، وليعبد الله علىٰ دين أبيه إبراهيم، عليه السلام، ففي الخلوة صفاء للنفس، فكان يرتقي جبلاً قرب مكة، ويخلو في غار حراء فيرىٰ أمامه مكة صغيرةً فتصغر الدنيا في عينيه، وينظر إلىٰ أعاليها فيراها دون موضع قدمه فيصغر الجبابرة والمتغطرسون في نظره.

○ بعثة محمد، عليه السلام:

بينما كان محمد، عليه السلام، ذات يومٍ في غار حراء يتعبّد إذ جاءه الوحي، وكان ذلك في ١٧ رمضان سنة ١٣ قبل الهجرة، وهو ما

يوافق (الأول من شباط سنة ٦١٠م)، وكان محمد، عليه السلام، قد أتمّ الأربعين سنة من عمره.

○ طبيعة الرسالة:

اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالىٰ أن يبعث في كل أمةٍ رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويُعلّمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلالٍ مبينٍ، ويُعرّفهم بالله جلّت قدرته، ويرسم لهم الطريق السويّ ليسلكوه، وليعيشوا في راحةٍ وطمأنينةٍ، فيؤلّفون مجتمعاً فاضلاً، وأمةً مسلمةً قائمةً بأمر الله تُطبّق منهجه في الأرض لتكون أمةً مستخلفةً في هذه المعمورة كما أراد لها ربها.

وما دام الرسول لشعبٍ من الشعوب فلا بُدّ من أن يكون منهم، يخاطبهم بلسانهم، ويتعامل معهم في حياتهم اليومية العادية وبذلك يكون أُسوةً لهم، ولا يمكن أن يكون إلا منهم، لأنه لو كان من غيرهم لما فهموه أو لكانت عاداتهم تختلف عن عاداته فيقع الانفصام بين الطرفين، ولا تكون الهداية والخير لهذا الشعب بالشكل المطلوب، حتىٰ ولو كان من الملائكة لما تمّت الحكمة من الرسالة إذ يحتجّ بنو البشر فيقولون: إنا لا نستطيع أن نقوم بما تقوم به الملائكة فطبيعتنا غير طبيعتهم، وطاقاتنا تختلف عن طاقاتهم، وما يُكلّف الله نفساً إلا وسعها.

قال تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأنعام].

وقال تعالىٰ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾ [الإسراء].

وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾﴾ [الفرقان].

ولما كان كل شعبٍ يعيش وحده مختلفاً عن بقية الشعوب لصعوبة الاتصالات آنذاك، ولطبيعة الحياة في ذلك الوقت، لذا أرسل الله لكل شعبٍ نبيّاً، ولكل مجتمعٍ رسولاً خاصاً بهم، وكان الناس في منطقةٍ واحدةٍ تقريباً. فلما تطوّرت المواصلات وزادت الاتصالات بين الشعوب، كان لا بدّ من دعوةٍ جامعةٍ، لبني البشر تتمثّل في رسولٍ يجمع الدعوات، ويكون خاتم الرسل، ينسخ ما كان خاصاً بقومٍ، ويضمّ ما تشترك به البشرية جمعاء، وهذا ما كان في نهاية المطاف.

كانت دعوة الأنبياء جميعاً الاستسلام لله سبحانه وتعالىٰ. وكانت الجماعات التي تتبعهم أمةً مسلمةً من بداية الخلق إلىٰ آخره.

يقول الله سبحانه وتعالىٰ بعد أن يُعدّد أكثر الرسل: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنبياء].

ويقول الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾ [المؤمنون].

ولما كانت الشعوب كثيرةً ومتعددةً كان لا بُدّ من أن يكون هذا الرسول الخاتم للأنبياء من أحد هذه الشعوب، ولا داعي لأن تحتجّ بقية الشعوب علىٰ أن هذا الرسول ليس منها إذ لو لم يكن من واحدٍ منها لكان من شعبٍ آخر غيرها، ولو كان من غيرها لكان قول البقية كذلك، ولكان لها الاحتجاج نفسه، ولكن يمكن أن يكون من شعبٍ وسط بين هذه الشعوب والأمم، وهذا ما كان في الشعب العربي الذي تقع بلاده في موقعٍ متوسطٍ يمكن أن تكون الدعوة من هذا المكان إليها جميعاً.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾ [البقرة].

وكذلك يكون الرسول الخاتم في أمةٍ قد قلّ فيها الأنبياء لتُعرف قيمته إذ لو كان في أمةٍ كثُر فيها الأنبياء لعُدّ مثل واحدٍ منهم، وقد اعتاد الناس أن يسمعوا بهذه الكلمة (نبي) و(رسول) كثيراً، وهذا ما كان في العرب، إذ لم يكن فيهم من الأنبياء سوىٰ: هود، وصالح، وشعيب.

وكذلك يمكن أن يكون في مدةٍ متباعدةٍ من الرسل في هذه الأمة حتىٰ تتهيّأ النفوس لتقبُّل الدعوة، وتنتظر ذلك الرسول ليُنقذها مما تعاني.

قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٩﴾ [المائدة].

كما كانت هذه المرحلة بعد مدة فتورٍ من إرسال الأنبياء والرسل إذ كانت بعثة رسول الله محمد، صلىٰ الله عليه وسلم، بعد رفع عيسىٰ، عليه السلام، إلىٰ السماء بستمائة وإحدىٰ عشرة سنةً.

وقد كان أهل الكتاب يعلمون بعثة خاتم الأنبياء، وقرب موعد ظهوره بل، ومكانه حيث كانت كتبهم تُشير إلىٰ ذلك، وقد عرف هذا الأحبار والرهبان وكانوا يستفتحون علىٰ المشركين بقرب ظهور الرسول، وأنهم سيُؤيّدونه، ويدعمونه، ويؤمنون به، ويُقاتلون معه، فلما بُعث النبي الكريم، وعرفوه حقاً، أعماهم الحقد، وأضلّهم اللؤم فكفروا به، فلعنة الله علىٰ الكافرين، وعادوه، ووقفوا بإمكاناتهم كلها في وجه الدعوة.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٨٩﴾ [البقرة].

وقال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ٦﴾ [الصف].

فرسالة محمد، عليه السلام، جامعة للرسالات، خاتمة لها، ناسخة لها، وهي للبشر جميعاً، وصاحبها محمد، عليه السلام، خاتم الأنبياء والرسل كلهم، وكان من أمةٍ وسطاً، شهيداً علىٰ الناس جميعاً، جاء علىٰ فترةٍ من الرسل، وتنطبق أحكام شريعته علىٰ أبناء البشر أجمعين.

وتختلف رسالة الإسلام عن بقية الرسالات، فإذا الرسالة مما سبقها تختص بشعبٍ أو قومٍ، وضمّت شرعاً يتفق ومصالح ذلك الشعب، بل إن بعضها لم يكن فيه شرع أصلاً إذ لم تكن لدعوتها دولة قامت في عهد نبيها. فالرسالة الإسلامية كانت جامعةً. أما الرسالة النصرانية مثلاً فليس فيها تشريع عام لأنه لم تقم لها دولة في أيام عيسىٰ، عليه السلام، حتىٰ تتنزل لها التشريعات، وإنما قامت الدول النصرانية بعده حين انتشرت الفكرة، وبعد أن رُفع عيسىٰ، عليه السلام، إلىٰ السماء. علىٰ حين أن محمداً، عليه السلام، قد أقام دولةً إسلاميةً في المدينة المنورة وامتدّ سلطانها علىٰ معظم جزيرة العرب. وهذا أمر طبيعي فما نزل من القرآن قبل أن يكون للإسلام دولة وذلك عندما كانت الدعوة لا تزال في مكة لم يكن يضمّ تشريعاً، وهذا ما يلاحظ في السور المكية وإنما نرىٰ فيها التهديد والوعيد للمشركين والوعد والبشرىٰ للمؤمنين، كما نرىٰ آياتٍ بيّناتٍ علىٰ قدرة الله ونعمه علىٰ مخلوقاته، أما الآيات التي نزلت في المدينة فكان فيها التشريع لدولة الإسلام القائمة. أما دولة اليهود فقد نزل لها منهج خاص ببني إسرائيل يتفق وأسلوبهم في الحياة، ولا يصلح لغيرهم من الناس.

ولما كانت الديانتان اليهودية والنصرانية ليستا آخر الديانات فقد جدت بعدهما علىٰ المجتمعات أمور تحتاج إلىٰ تبيان وحكم، وهذا ما وُجد في الرسالة الإسلامية بصفتها آخر الرسالات وخاتمتها.

قال الله تعالىٰ: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ

لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [الأنعام].

كان كل نبيٍّ يبعث لقومه فقط ولمدةٍ معينةٍ من الزمن، وكانت تنتهي هذه المهمّة بانتهاء تلك المدة من الزمن، أو بهلاك القوم المنذَرين، أو ترك ما كانوا يقترفون من آثامٍ فإبراهيم، عليه السلام، أُرسل لردع قومه عن عبادة الأوثان، وتعريفهم علىٰ الله. قال تعالىٰ: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنبياء].

وقال تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾﴾ [مريم].

وأُرسل لوط، عليه السلام، لمحاربة الفاحشة التي كان قومه يأتونها، قال تعالىٰ: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾ [الأعراف].

وأُرسل شعيب، عليه السلام، لمنع الغشّ الذي شاع بين بني قومه ولإيفاء الكيل والوزن.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًاۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأعراف].

وأُرسل موسىٰ، عليه السلام، لينقذ قومه من ظلم فرعون وملئه.

قال الله تعالىٰ: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾﴾ [طٰه].

وأُرسل عيسىٰ، عليه السلام، لهداية خراف بني إسرائيل الضالّة.

وهكذا فلكل رسولٍ مهمّة بين قومه.

وامتاز بعض الأنبياء بدعوتهم بالإنذار كنوح وموسىٰ، حتىٰ إذا نفد صبر نوح دعا علىٰ من لم يؤمن من قومه، وما آمن معه إلا قليل، قال تعالىٰ: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [هود]. وقال تعالىٰ أيضاً: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾ [هود]. وقال تعالىٰ: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ [نوح].

واتصف بعض الرسل بدعوتهم بالتبشير والتسامح والعفو كإبراهيم وعيسىٰ، عليهما السلام.

واتصف بعضهم بشهادة الحق كإسحاق ويعقوب.

وعُرف بعضهم بالثبات والصبر كأيوب ويحيىٰ.

وهكذا فلكل نبيٍّ ورسولٍ سمة خاصة بدعوته.

أما خاتم الأنبياء والرسل محمد، عليه السلام، فكانت ميزة رسالته أنها تجمع ميزات دعوات الأنبياء كلهم، فقد كان بشيراً ونذيراً وداعياً إلىٰ الله بإذنه وسراجاً منيراً، لذلك يمكن القول: إن الاقتداء به إنما هو اقتداء بالأنبياء جميعاً، ويمكن أن نجد في سيرته ما يمكن أن نأخذه من سيرهم من الصفات البارزة والسمات الواضحة المعالم.

وكذا فدعوة محمد، عليه السلام، تجمع الدعوات السابقة حيث

جاءت جامعةً فهي لبني البشر كافةً، بينما كانت دعوات من سبقه من الأنبياء والرسل لأقوامٍ معينةٍ، وقد شملت دعوته هذه الأقوام كما شملت الزمن كله حتىٰ يرث الله الأرض ومن عليها، فهي تعمّ الأقوام جميعاً، وكذلك كانت خاتمة الدعوات كلها، فلن تنزل بعدها شريعة لتشملها وتشمل الزمن كله، وبذا فتمثُّلها إنما يكون تمثُّلاً لدعوات الأنبياء الآخرين كلها، فلو أخذنا دعوةً واحدةً سواها لكان أخذاً لجانبٍ واحدٍ وطمساً لبقية الجوانب.

وكذلك فهي ناسخة لما قبلها ومتممة لها في الوقت نفسه، فلم يعد للدعوات السابقة بوجودها شأن إذ انتهت مهمتها، أو هلك الذين كانت لهم، وعلىٰ هذا لا يمكن قبول قول من يقول: إننا ندعو إلىٰ تطبيق الشريعة الموسوية أو الديانة النصرانية ما دامتا من عند الله فإضافةً إلىٰ أنهما لا تتضمنان تشريعاً أو نظاماً، وكانتا لبني إسرائيل خاصةً، وعملت بهما يد التحريف، فإنهما منسوختان، والمنسوخ لا يعمل به، بل ولا يمكن قبول هذه الفكرة أساساً لأنها محاولة خبيثة لبذر الشكّ وإبعاد الناس عن طريق الحق[1].

○ الدعوة:

بُعث محمد، عليه السلام، فحمل الأمانة، وبدأ يُؤدّي الرسالة، ويدعو من قومه أولئك الذين تربطهم به روابط القربىٰ القريبة أو الصداقة القوية، أو من يتوقّع منهم تلبية الدعوة لدين الحق، فلبّىٰ الدعوة أولئك النفر لما عرفوا من أخلاقه وصدقه. ولم يكن إيمان هؤلاء أو بعضهم من أجل تحقيق مصلحةٍ عاجلةً فهذا أمر رجال الدنيا وطلّابها، أما هم فقد آمنوا بوحي السماء ولا يمكن لأحدٍ أن يؤمن لآخر بالنبوة إلا إذا عرف منه الأخلاق التي تُخوّله تلك المنزلة من الله.

---

(١) «التاريخ الإسلامي»: الجزء الثاني (السيرة) للمؤلف.

لم يكن رسول الله محمد، صلىٰ الله عليه وسلم، يظهر الدعوة في مجامع قريش العامة كالحرم والأندية والمحافل بل كانت دعوته لأفرادٍ بأعينهم. ولم يكن المسلمون الأوائل ليتمكّنوا من إظهار عبادتهم حذراً من تعصّب قريشٍ لدينها ووثنيتها بل كانوا يُخفون ذلك، ومن أراد العبادة ممن آمن كان يذهب إلىٰ شعاب مكة فيعبد ربه، ويصلي مستخفياً.

لم يكن أولئك الذين قبلوا دعوة رسول الله من مجموعةٍ واحدةٍ أو طبقةٍ معينةٍ كما يزعم بعضهم بأنهم كانوا من الفقراء والعبيد والموالي الناقمين علىٰ المجتمع الجاهلي الذي منعهم حق الحياة الكريمة، بل كان المؤمنون من مختلف المستويات بل إن وجهاء من قريشٍ وأبنائهم كانوا في طليعة المصدّقين، ومن الذين تعرّضوا للأذىٰ أكثر من غيرهم، إذ لا يمكن أن نقول: إن نور الفكر محصور في طبقةٍ أو جماعةٍ من الناس. ويكفي أن نذكر من سادة بطون قريشٍ: أبا بكر الصديق، وعليّ بن أبي طالب، وجعفر بن أبي طالب، وعثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمٰن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وعيّاش بن أبي ربيعة، وأبا سلمة بن عبد الأسد، وعثمان بن مظعون، وأبا عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح و. . . . . وهؤلاء كثير.

وكذلك أعداد من الموالي وغيرهم.

وبعد ثلاث سنواتٍ من الدعوة السرية أمر الله سبحانه وتعالىٰ رسوله بالجهر بالدعوة ودعوة الناس جميعاً. فامتثل الرسول للأمر، وبدأ بالدعوة العامة وبصورةٍ علنيةٍ، وهو واثق بوعد الله ونصره، ودعمه وتأييده، فصعد علىٰ جبل الصفا، ونادىٰ بأعلىٰ صوته: يا بني فهر (قريش)، يا بني (عدي)، يا بني (الحارث)، يا بني. . . . . وجعل يُعدّد بطون قريشٍ بطناً بطناً، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج يرسل رسولاً عنه لينظر الخبر، حتىٰ إذا اجتمعوا إليه، فقال عليه الصلاة والسلام: «أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تُغير عليكم أكنتم مصدقيّ»، قالوا:

نعم، ما جرّبنا عليك كذباً. قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»، فقال أبو لهب: تبّاً لك ألهذا جمعتنا؟.

ثم أنزل الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [الشعراء]. فقام رسول الله، صلىٰ الله عليه، وسلم، فقال: «يا معشر قريش اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا بني عبد المطلب لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً، يا صفية عمّة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئاً، يا فاطمة بنت محمدٍ سليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئاً»(١).

بدأ رسول الله محمد، صلىٰ الله عليه وسلم، الجهر بالدعوة فكان يدعو الناس في كل مجمعٍ ونادٍ، وفي المسجد الحرام يُحدّثهم، ويتلو عليهم القرآن، وكان في موسم الحج يلتقي بالقبائل قبيلةً قبيلةً، يعرض عليها الإسلام، ويُبيّن لها الطريق فيستجيب منهم من يستجيب، ويرفض من يرفض، ويسخر من يسخر. ولكنه في الوقت نفسه الذي كان يدعو فيه قريشاً دعوةً عامةً في الأندية والمحافل، والقبائل في المواسم، لم يكن ليترك أبداً التربية والعناية الخاصة لأولئك الذين قبلوا الدعوة ليبني منهم القاعدة الصلبة المتينة، فكان يجمع المسلمين في البيوت بشكلٍ سريٍّ علىٰ شكل أُسرٍ مُغلقةٍ تماماً لا يعرفها أحد خارج أفرادها، بعيدة عن أعين قريشٍ، وعلىٰ غفلةٍ منها. وتضمّ هذه الأُسر أولئك الذين عقد عليهم رسول الله، صلىٰ الله عليه وسلم، الأمل في حمل العبء والمهام الجسيمة لنشر الإسلام، وبذا وُجدت جماعة من المؤمنين الأوائل قوية في إيمانها، متينة في عقيدتها، مُدركة لمسؤوليتها، ومنقادة لقائدها، مُطبّقة لكل أمرٍ يصدر منه باندفاعٍ لا يُعادله اندفاع، وحبٍّ لا يساويه حبّ.

---

(١) متفق عليه.

وبهذه الطريقة استطاع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أن يُؤدّي الأمانة، ويُبلّغ الرسالة. وبذا تكون طريقته هذه قدوةً لنا في عملنا الذي نسير فيه، ودربنا الذي نسلكه حسب هديه، صلىٰ الله عليه وسلم[1].

كان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وإخوانه الكرام يُعطون صورةً صحيحةً عن الدعوة التي يعملون لها، وعن الإنسان الذي يحملها. سلوك لا يُعادله سلوك، وأمانة لا تساويها أمانة، واستقامة لا توازيها استقامة، وعفة لم تُعرف، وأدب لم يُسمع مثله، وأخلاق عالية وآداب سامية، واقترن هذا بأصحابه حتىٰ إذ رؤي إنسان يحمل صفةً من هذه الصفات قيل: إنه مسلم. وهذا ما يجب أن يتصف به كل من يحمل هذا الاسم في كل عصرٍ.

وارتفعت مكانة الذين قبلوا الدعوة وانضمّوا إليها وكانت نظرة المجتمع إليهم نظرة التقدير والاحترام، غير أن بعض كبار القوم قد خافوا علىٰ مراكزهم، وخشي أصحاب المصالح على مصالحهم وظهر الحقد عند أهله، وبدا الحسد عند أصحاب النفوس الضعيفة، ووقف هؤلاء كلهم في وجه الدعوة وأهلها يسعون جاهدين للحدّ من نموها بالإنكار والتكذيب، والضغط والتعذيب، والتهديد والتأنيب، واتخاذ مختلف وسائل الشدّة، ولكن لم يفدهم هذا أبداً إذ بقيت مكانة رسول الله، صلىٰ الله عليه وسلم، ومكانة أكثر المسلمين بقيت عاليةً في النفوس، عامرةً في القلوب، راسخةً في ضمير المجتمع كله لما كانوا عليه من صفاتٍ حسنةٍ وأخلاقٍ كريمةٍ إذ تكلّم أحدهم فهو الصادق، وإذ حضر فهو الأمين، وإذا طلب فهو الشريف، لا خلاف بينهم ولا شحناء، لا حسد عندهم ولا بغضاء، لا حقد ولا مهاترة بل أخوة ومحبة، ومسابقة إلىٰ الخير ومسارعة، لا يعرف أحدهم الكذب ولا المخادعة، ويمقت النفاق والمداهنة، يتسابقون

---

(١) «التاريخ الإسلامي»: الجزء الثاني (السيرة) للمؤلف.

إلىٰ المعروف، ويُسارعون إلىٰ رضا الله، همّهم الوصول إلىٰ الجنة، وعزوفهم عن الدنيا الفانية. هكذا علّمهم الإسلام، وعلىٰ هذا ربّاهم رسول الله، وإلىٰ هذا ارتاحت نفوسهم، واطمأنت قلوبهم، وبادرت إلىٰ عمله جوارحهم.

هؤلاء قدوتهم الرسول، وهم القدوة لمن جاء بعدهم من المؤمنين، وعلىٰ هذا الخط يجب أن يسير كل مسلمٍ علىٰ مدىٰ الدهر.

أما الذين تكبّروا، وجحدوا واستنكروا، وبما جاء به محمد كفروا، وطغوا وتجبّروا فهم الذين وراء زعاماتهم يسعون، ووراء شهواتهم يلهثون، ولمصالحهم يعملون، ولغواياتهم يُسرعون همّهم الدنيا الفانية ولا همّ لهم سوىٰ ما فيها من متعةٍ، وما يُحقّقون من شهوةٍ، وما يحصلون علىٰ غنمٍ، وما يفرضون من سلطانٍ، وما يُظهرون من طغيان، وما تبرز به شخصيتهم، ويعلو اسمهم المتغطرس، هؤلاء هم الكفرة المعاندون الذين وقفوا في وجه الدعوة الإسلامية وصاحبها عليه أفضل الصلاة والسلام، وهم أعداء المؤمنين علىٰ مدىٰ الدهر.

لقد كان الكفرة وراء عذاب من استطاعوا من المؤمنين، فقد عذّبوا بعضهم، وقتلوا بعضهم، ونكّلوا ببعضهم، وقاطعوا بيعهم، وشراءهم، والزواج منهم وإليهم، وحاربوا الله ورسوله والمؤمنين.

اضطر المسلمون في مكة تحت ضغط المشركين وأذاهم وخوفاً علىٰ إسلامهم وحفاظاً علىٰ عقيدتهم أن يُهاجر بعضهم إلىٰ الحبشة، ولكن المشركين بعثوا إثرهم وفداً إلىٰ النجاشي ملك الحبشة غير أن وفد المشركين قد فشل في مهمته، ثم وجد مهاجروا المسلمين في أنفسهم شوقاً لرسول الله وغُربةً عنه فعادوا بعد مدةٍ.

وهاجر رسول الله، صلىٰ الله عليه وسلم، إلىٰ الطائف بحثاً عن قاعدةٍ للمسلمين يُقيمون فيها يحمون دعوتهم، ويعملون علىٰ نشرها، ويسعون لتأسيس أركان دولةٍ لهم، غير أنه اضطر للعودة إلىٰ مكة بعد أن

يئس من قبيلة ثقيف في الطائف. لكنه لم يستطع دخول بلده مكة حتىٰ أجاره المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف.

أخذ رسول الله، صلىٰ الله عليه وسلم، يعرض نفسه علىٰ القبائل في موسم الحج، وفي مواسم الأسواق التي تحضرها العرب للتجارة وللاستماع للشعر، ومن هذه القبائل من كان يردّ ردّاً لطيفاً فيه أدب، ومنها من كان يردّ ردّاً قبيحاً.

وفي أحد مواسم الحج التقىٰ رسول الله، صلىٰ الله عليه وسلم، ببعض أهل يثرب فدعاهم إلىٰ الله، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن، فأجابوه إلىٰ ما دعاهم إليه، وواعدوه الموسم المقبل للحج. ولما رجعوا إلىٰ بلدهم وذكروا ذلك لقومهم، ودعوهم إلىٰ الإسلام فانتشر الخبر هناك وعمّ.

واستدار العام وأقبل الناس إلىٰ الحج، والتقىٰ رسول الله، صلىٰ الله عليه وسلم، باثني عشر رجلاً، عشرة منهم من الخزرج واثنان من الأوس فبايعوا رسول الله، صلىٰ الله عليه وسلم، بيعة العقبة الأولىٰ. وعندما رجعوا إلىٰ بلدهم بعث معهم مصعب بن عمير، رضي الله عنه.

وفي الموسم التالي التقىٰ مسلمو يثرب برسول الله، صلىٰ الله عليه وسلم، وكان عددهم ثلاثةً وسبعين رجلاً وامرأتين، كما كان معهم مصعب بن عمير، رضي الله عنه، وبايعوا رسول الله، صلىٰ الله عليه وسلم، بيعة العقبة الثانية، فاختار منهم اثني عشر نقيباً تسعةً من الخزرج وثلاثةً من الأوس.

ولما رجع مسلمو يثرب إلىٰ بلدهم أظهروا الإسلام فيها.

○ الهجرة إلىٰ يثرب:

اشتدّ أذىٰ مشركي مكّة علىٰ من أسلم من أهلها بعد أن علموا أن محمداً، صلىٰ الله عليه وسلم، قد حالف أهل يثرب. فأمر رسول الله،

صلىٰ الله عليه وسلم، من عاد من مهاجري الحبشة بمكة بالخروج إلىٰ يثرب، والالتحاق بإخوانهم المسلمين هناك.

بدأ المسلمون بالهجرة من مكة إلىٰ يثرب، وعملت قريش علىٰ الحيلولة دون ذلك، فلم تفلح، ثم هاجر رسول الله، صلىٰ الله عليه وسلم، مع صديقه أبي بكر، رضي الله عنه.

اجتمع المسلمون بعضهم مع بعضٍ في مدينة يثرب التي غدا اسمها المدينة المنورة، وآخىٰ رسول الله، صلىٰ الله عليه وسلم، بين المهاجرين والأنصار وغدوا كتلةً واحدةً هي القاعدة الإسلامية. وبقي في المدينة اليهود، وبعض المنافقين الذين أظهروا الإسلام كي لا يفقدوا مركزهم بعد أن دان قومهم بالإسلام، والمشركون الذين لم يدخلوا بالإسلام من الأوس والخزرج.

وادع رسول الله، صلىٰ الله عليه وسلم، اليهود ليكون سكان المدينة كتلةً واحدةً أمام العدوّ الخارجي الذي يمكن أن يأتي لقتال المسلمين.

ولكن يهود لم تتقيد بالموادعة بل بدأت بالكيد والفتنة فأُخرجت من المدينة فئةً بعد أخرىٰ، وهم عدة قبائل: بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة فأُخرجت قبيلة بعد أخرىٰ، فكلما حاولت قبيلة الفتنة ضُربت وأُخرجت حتىٰ خلت المدينة منهم، وحاولوا الفتنة خارج المدينة حيث تجمّعوا في خيبر، ووادي القرىٰ، وتيماء، وفَدَك، فكلما حاول تجمّع لهم فتنةً جاءته ضربة حتىٰ ذلّ يهود تماماً، ثم أُخرجت بقاياهم من جزيرة العرب أيام خلافة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه.

بعد اجتماع المسلمين في المدينة المنورة، أقام رسول الله، صلىٰ الله عليه وسلم، لهم الدولة الإسلامية، وأُنزلت آيات التشريع، وجهّزت هذه الدولة السرايا، وأعدّت الغزوات، والتقت مع الأعداء، وحقّق المسلمون النصر في كل ميدانٍ، كما وقفت الدولة الإسلامية في وجه الغزو الخارجي الذي بعثته قريش، وانتصر المسلمون في بدر وكبّدوا أعداءهم

خسائر فادحةً، وردّوهم علىٰ أعقابهم خائبين أذلّاء. وكذا كتب الله للمسلمين الفوز في معظم ميادين القتال التي دارت أيام رسول الله محمد، صلىٰ الله عليه وسلم.

دان معظم جزيرة العرب للمسلمين في عهد رسول الله، كما قاتل المسلمون في ذلك العهد الروم وأعوانهم في مؤتة في منطقة الأردن اليوم، وفي تبوك في شمالي جزيرة العرب، وكانت إمبراطورية الروم يومذاك إحدىٰ دولتي العالم الكبرىٰ، فوقفت في وجهها هذه الدولة الإسلامية الناشئة، ولقنتها درسين في ميداني تلكما المعركتين شاع خبرهما وعمّ صداهما، انحنت لهما رؤوس أتباع الروم، وعجب لهما من بقي من رؤوس الكفر والضلال.

وانتهت حياة رسول الله، صلىٰ الله عليه وسلم، من هذه الدنيا، وخلفه الراشدون فساروا علىٰ نهجه واقتدوا بأثره. وتحرّك مرضىٰ القلوب، وتطلّع إلىٰ العلياء طلّاب الدنيا وأصحاب الأطماع والشهوات فكانت حركة رِدّةٍ خبيثةٍ ودعمها الفرس والروم، ولكن أنّىٰ لها الفوز والحياة والمنهج الإسلامي هو السائد، وراية الجهاد عالية، وأتباع رسول الله، الذين يقتدون به، ويسيرون علىٰ نهجه هم أصحاب الرأي والشأن وبيدهم راية الجهاد. فقُمعت حركة الردّة، ودان من بقي من أهلها، وتراجع من دعم، وأُخرس لسانه، وذلّت نفسه.

وانطلقت قوات المسلمين مجاهدةً تدعو إلىٰ الله، وتدكّ معاقل من يُصرّ علىٰ الكفر ويقف في وجه الدعوة الإسلامية ففُتحت البلدان، وارتفعت راية الإسلام، وذلّ أعداء الله، ودالت دولة الفرس عن الساحة، وأسلم أهلها، وزالت مجوسيتها، أما أبناء أكاسرتها ودهاقنة مجوسيتها، فقد أظهروا الإسلام ليبقوا علىٰ صلةٍ مع شعبهم الذي اعتنق الإسلام فيمكنهم دسّ الدسائس، وإثارة الفتن إن سنحت لهم الفرص.

وقُهرت دولة الروم، واندحرت جيوشها، فتراجعت عن الشام ومصر

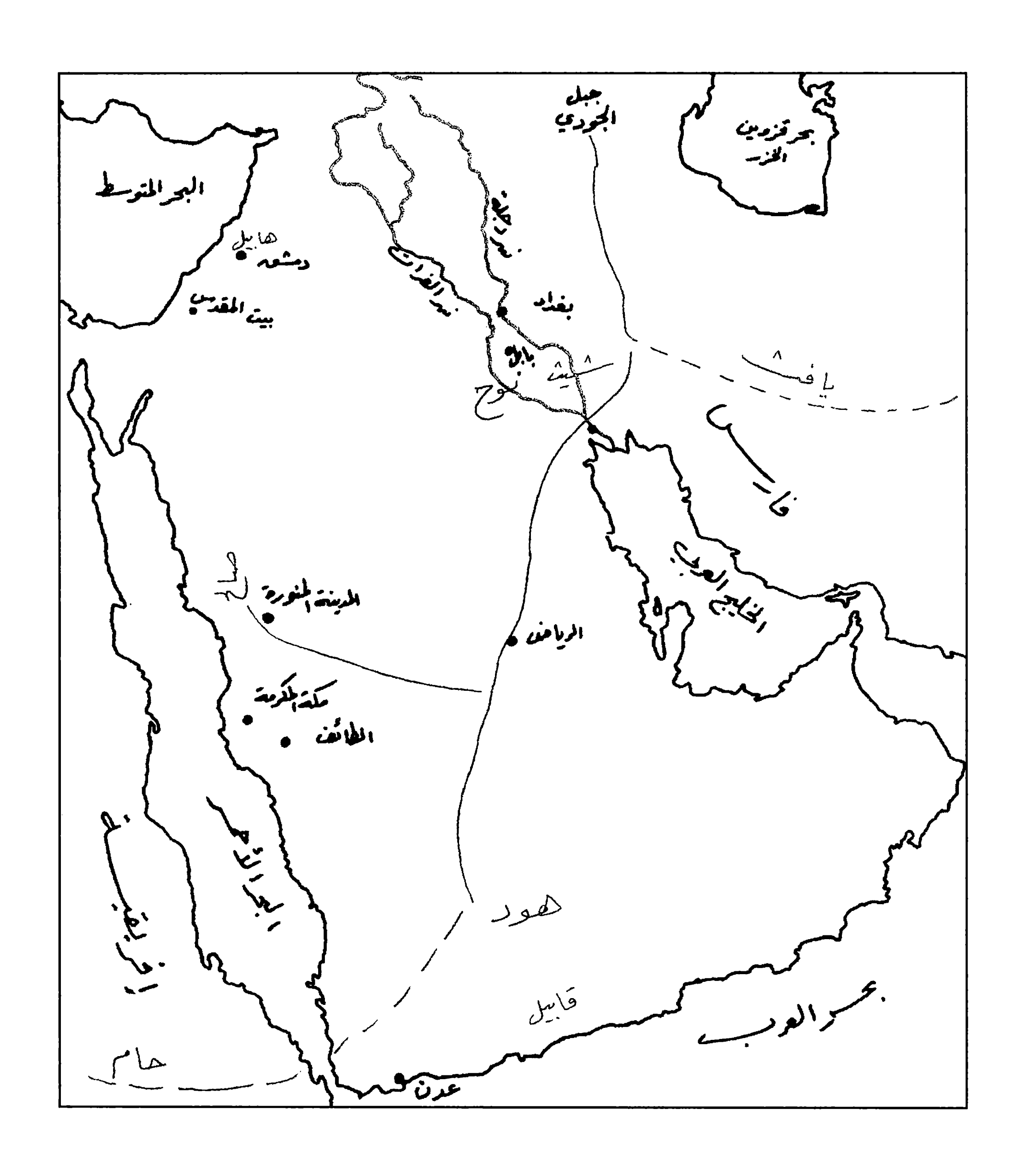
وأجزاء من الأناضول لكن بقيت دولتهم، واستمرّ صراعها مع المسلمين مدةً من الزمن، وكان أباطرتها وأهلها يشعرون أنهم لا قِبل لهم مع المسلمين فيما إذا رُفعت راية الجهاد حيث ينطلق المجاهدون لا يُبالون بشيءٍ يبغون رضا الله، ويندفعون يريدون الشهادة في سبيل الله للوصول إلىٰ الجنّة، وهم في جهادهم هذا لا يمكن أن يقف أمامهم أحد يبغي الحياة، وما شعوبهم سوىٰ أمةٍ تريد الحياة وتسعىٰ وراء الشهوات لذا تطلب السيطرة والتحكّم بالآخرين لذا لم يكن صراعهم مع المسلمين سوىٰ شنّ غاراتٍ لإثبات وجودهم أمام المسلمين، وأنهم علىٰ شيءٍ من القوة حتىٰ يحسب المسلمون لهم حساباً فلا ينطلقون مجاهدين لا يبالون بهم أبداً. وهذا في أغلب أوقات القتال، وقد يحدث لقاء ساخن بين الطرفين في بعض المعارك، وينتصر المسلمون ـ بإذن الله ـ ويندحر الروم كمعركة ملاذكرد مثلاً.

أما اليهود فقد خنعوا منذ أن هُزموا وذلّوا إذ لا دولة لهم، وعددهم قليل، وفي نواحي الأرض موزّعون، يكسبون بألاعيبهم ونسائهم. فبعد أن كُسرت شوكتهم أمام المجاهدين المسلمين، وأُخرج أكثرهم من جزيرة العرب فلم يبق منهم فيها سوىٰ أقليةٍ في بلاد اليمن وليس لهم شوكة، وما لهم من قوةٍ يقاتلون لذا لجؤوا إلىٰ أساليبهم المعروفة التي هي الفتن، والمال، والمرأة، والدسائس، وبهذه الوسائل عملوا علىٰ إفساد العقيدة الإسلامية وتجزئة الأمة وتشتيت شملها إذ رفعوا أفراداً من أبناء البيت الهاشمي (أسرة آل بيت رسول الله، صلىٰ الله عليه وسلم،) فوق مستوىٰ البشر، وروّجوا الشائعات لها، وافتروا الأكاذيب، وادّعوا الادّعاءات، وأخذ بذلك أولئك الذين زال سلطانهم، ودال ملكهم، وانتهت مجوسيتهم، واستمرّ ذلك علىٰ مدىٰ الأيام، فوجدت الفرق الضالة التي إن لم ينتم بعضها إلىٰ اليهود إلا أنها تُعرف باتخاذ المرأة سلاحاً من أسلحتها، ووسيلةً للوصول إلىٰ أهدافها، وقد برز من هؤلاء: عبد الله بن

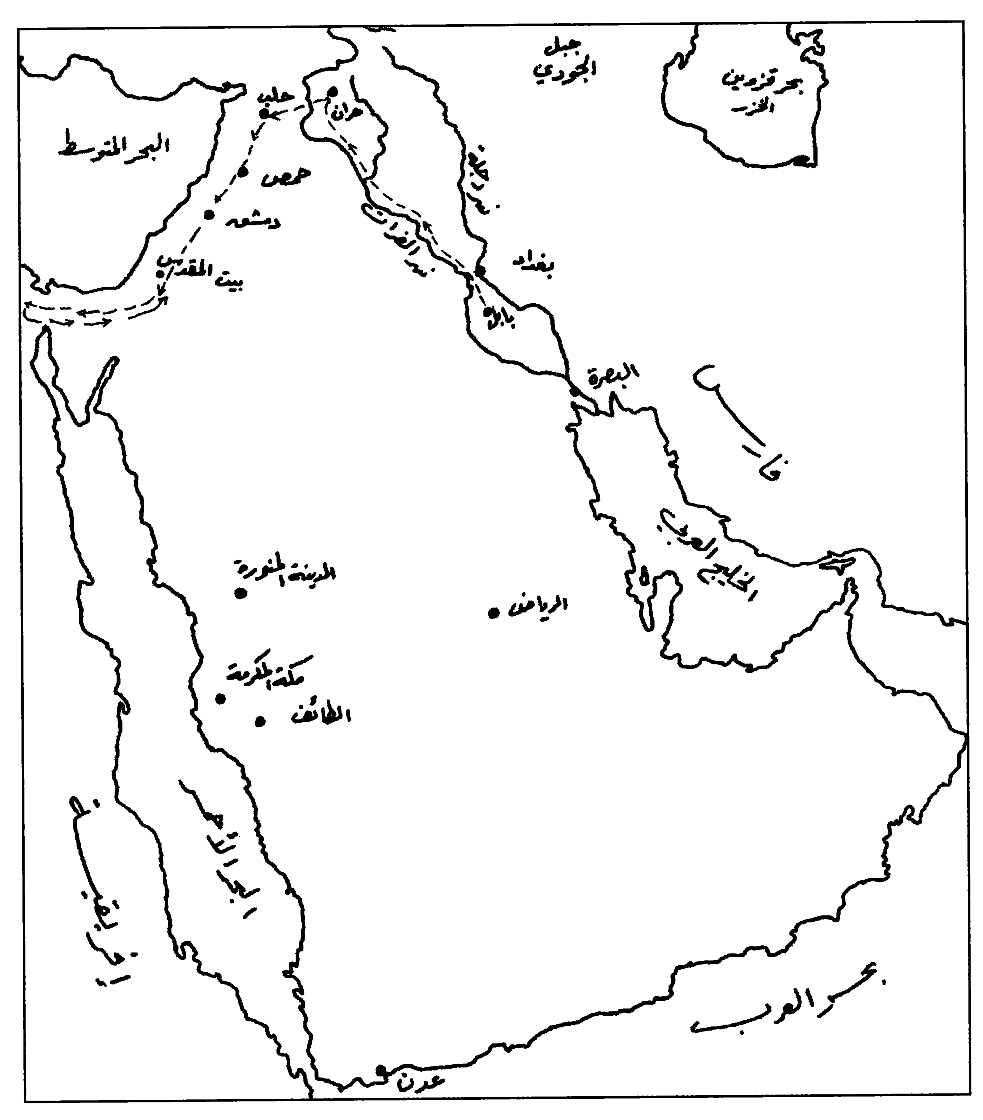
سبأ، ومحمد بن نصير، وعبيد الله بن الحسين حفيد ميمون القداح بن ديصان إذ كان لهم دور بارز في التاريخ، وأثر علىٰ الإسلام. وإن غطّىٰ بعضهم علىٰ هذه الشخصيات، وتاريخها، ودورها لأغراضٍ عقيديةٍ، وسياسيةٍ، وتاريخيةٍ، ومآرب خاصةٍ. فإلىٰ الله نشكو، وإياه ندعو ليعود المؤمنون إلىٰ إيمانهم فيقتدوا بقدوتهم، ويتّبعوا منهجهم.

وآخر دعوانا أنِ الحمد لله رب العالمين.

❁ ❁ ❁

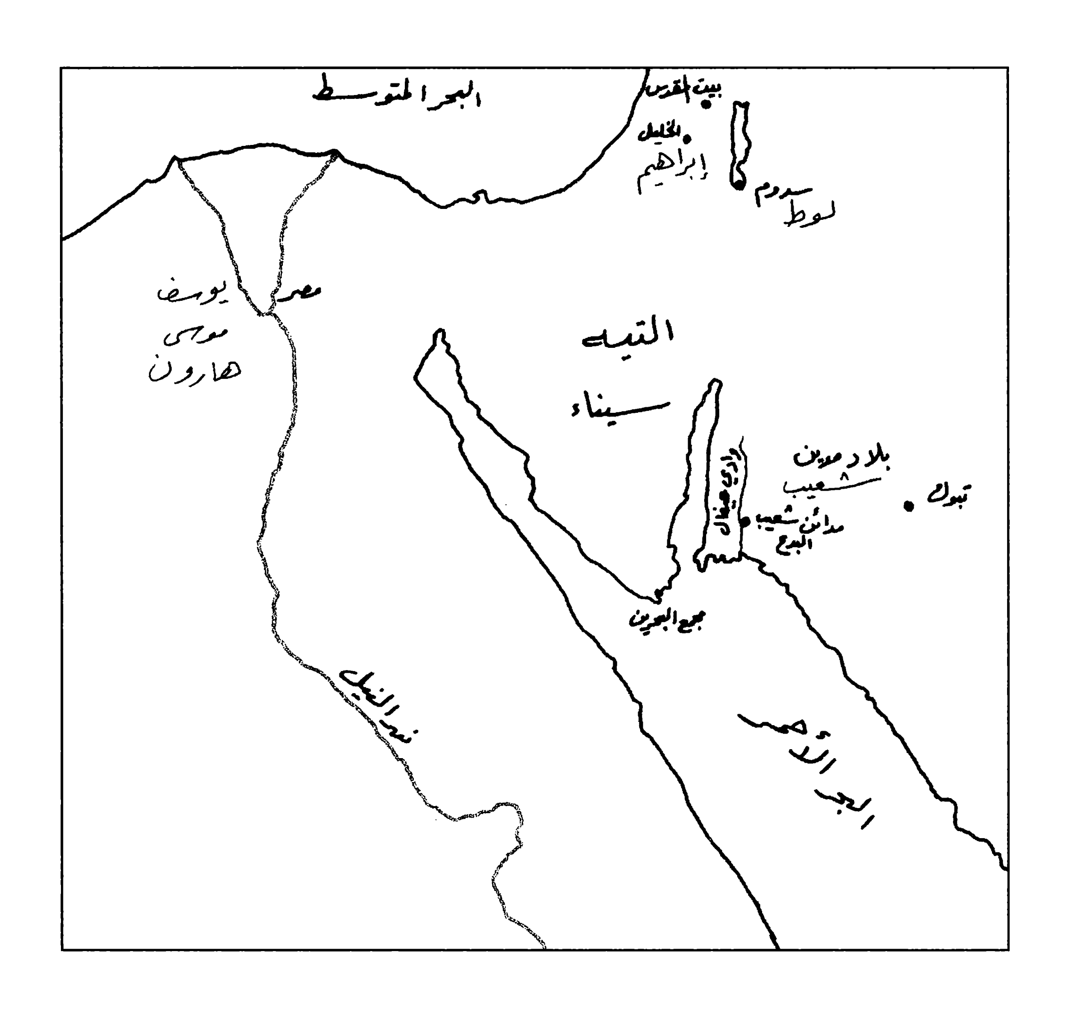

البحر المتوسط
هابيل
دمشق
بيت المقدس
جبل الجودي
بحر قزوين الخزر
نهر الفرات
بغداد
بابل
شيث
نوح
يافث
فارس
الخليج العربي
صالح
المدينة المنورة
الرياض
مكة المكرمة
الطائف
البحر الأحمر
هود
قابيل
بحر العرب
حام
عدن

مصور رقم (١)

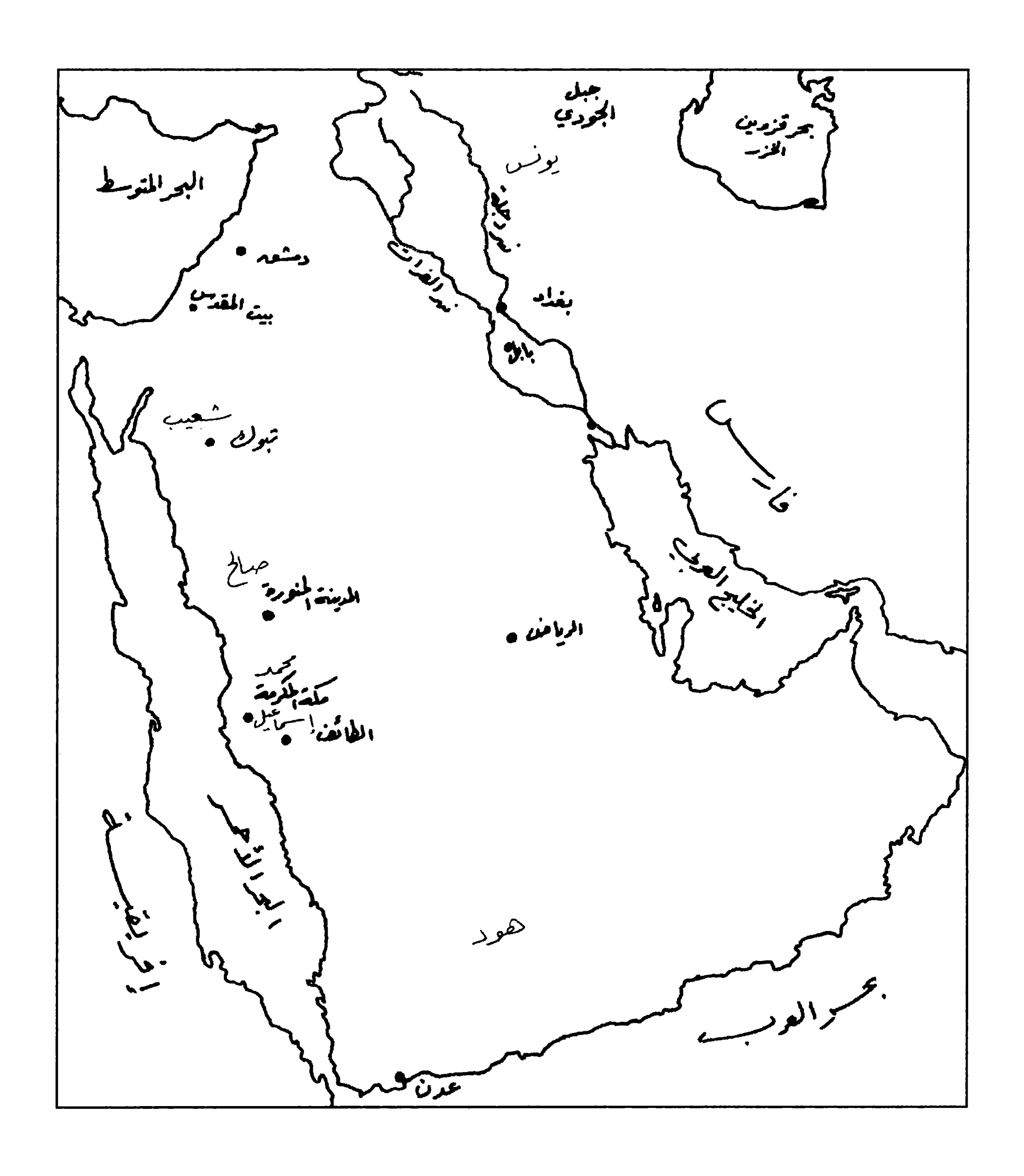


هجرة إبراهيم الخليل، عليه السلام.

مصور رقم (٢)

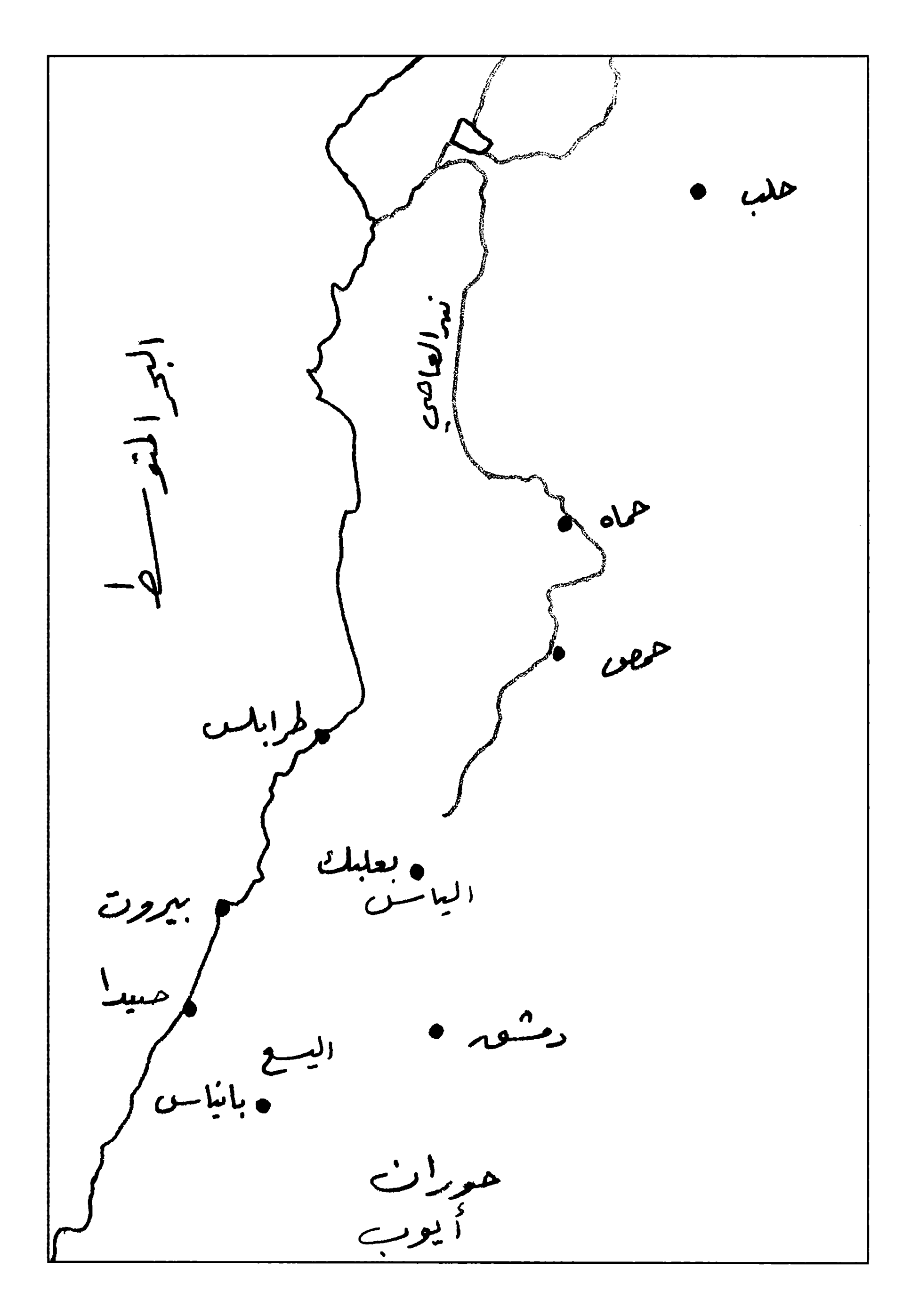

البحر المتوسط
بيت المقدس
الخليل
إبراهيم
سدوم
لوط
مصر
يوسف
موسى
هارون
التيه
سيناء
بلاد مدين
شعيب
تبوك
مدائن شعيب
البدع
مجمع البحرين
نهر النيل
البحر الأحمر

مصور رقم (٣)

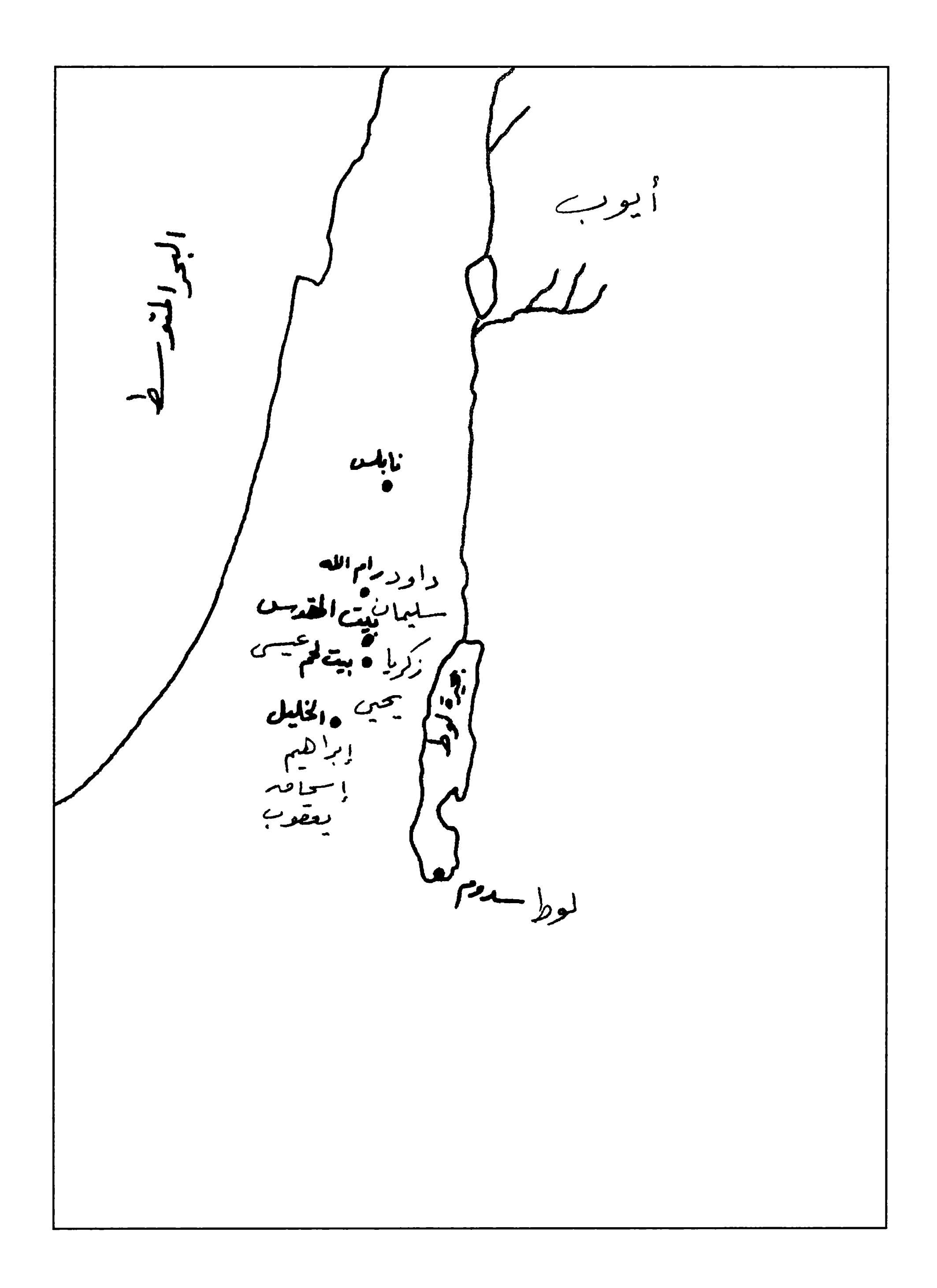


جبل الجودي
بحر قزوين الخزر
البحر المتوسط
يونس
دمشق
بيت المقدس
نهر الفرات
بغداد
بابل
شعيب
تبوك
فارس
صالح
المدينة المنورة
الخليج العربي
الرياض
محمد
مكة المكرمة
إسماعيل
الطائف
هود
بحر العرب
عدن

مصور رقم (٤)


حلب
نهر العاصي
البحر المتوسط
حماه
حمص
طرابلس
بعلبك
الياس
بيروت
صيدا
دمشق
اليسع
بانياس
حوران
أيوب

مصور رقم (٥)



البحر المتوسط
أيوب
نابلس
داود رام الله
سليمان بيت المقدس
زكريا بيت لحم عيسى
يحيى
الخليل
إبراهيم
إسحاق
يعقوب
لوط سدوم

مصور رقم (٦)

المحتويات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة